رياض سيف

سيرة ذاتية وشهادة للتاريخ

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

مؤسسة دار الجديد

بيضاء في الأصل

رياض سيف

سيرة ذاتية وشهادة للتاريخ

تحرير

أكرم البنّي أسامة العاشور

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

الطبعة الأولى، ٢٠٢٠
جميع الحقوق محفوظة

دارة محسن سليم ـ حارة حريك
بيروت ـ لبنـــان
صندوق بريد: ٥-٢٥ الغبيري
هاتف: ٩٦١-١-٥٥٣٦٠٥

ترقيم دولي: 978-9953-11-199-5

كانَ نَشْـرُ هـذا الكتـابِ بدعـم مشـكور مـن «مؤسسـة فريدريـش إيبـرت»، بَيْـدَ أنَّ الآراءَ والمواقِـفَ الـواردَةَ فيـه يُسْـأَلُ عنهـا صاحـب الكتـاب، وهـي، اسْـتِطْرادًا، لا تُعَبِّـرُ بالضَّـرورَةِ عـن رأي «المؤسَّسَـة» ولا تُلْزِمُهـا.

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

قراءة ذاتـيَّة
في
سيرةٍ موضوعيَّة

بقلم جاد الكريم الجباعي

سـيرةُ أيِّ شـخصٍ منقوشـة فـي أذهـان مَـن يعرفونـه، مـن قريـب أو مـن بعيـد، وقبـل ذلـك فـي نفوسـهم. لا تتولَّـد السـيرة مُوحَّـدة، بـل هـي سِيَـرٌ مختلفـة للشـخص الواحـد، ولكـن، لا بـد مـن شـيءٍ يجمعهـا معًـا، شـيءٍ يجعـل منهـا سـيرة واحـدة، حينهـا فقـط ليـس مـن الممكـن إلا أن تكـون كاملـة.

سـيرة ريـاض سـيف كذلـك، منقوشـةٌ فـي أذهـان الأهـل والجيـران والأصدقـاء والمعـارف، وفـي أذهـان العامـلات والعُمـال، ممَّـن أحاطهـم سـقفٌ واحـد فـي مصنعـه خاصـة، وكذلـك مَـن تعامـل معهـم فـي مضمـار التجـارة ومجالَـيِ التشـريع والسياسـة. فـكلُّ قـارئٍ وقارئـة لـسيرته مـن هـؤلاء سـيَجد فيهـا مـا يخصُّه/ـها أو مـا يُلامـس الذكريـات، وسـيحكم الجميـع علـى مضمونهـا أحكامًـا، قـد تكـون أقـرب إلـى العدالـة مـن أحـكام النُّـقاد، ولاسـيما النُّقـاد المُدجَّـجين بأسـلحةٍ أيديولوجيـة.

فـكتابة السـيرة، سـواءٌ بضميـر المتكلـم أو بضميـر الغائـب، هـي

إعـادة إنتـاجٍ لتلـك السِّيَـر المنقوشـة فـي الأذهـان والنفـوس، هـي نسـيجٌ مـن خيـوطٍ مختلفـة الألـوان. وهـي، فـي جميـع الأحـوال، صـورةٌ عـن أصـلٍ مشـهودٍ عليـه ومبثـوثٍ فـي نفـوس كثيـرة؛ لأن أيَّ شـخص هـو مجمـوع علاقاتـه الاجتماعيـة. والصـورة لا تُطابـق الأصـل، مهمـا كان المُصـوِّر بارعًـا. فالعلاقـات الاجتماعيـة، بـنَسجها الإنسـاني، مُـدرَكًا كان هـذا النَّسـجُ أم غيـر مُـدرَك، هـي التـي تُشـكِّل الـذات، وتُحـدِّد سـيرتها. فالصَّداقـة والعـداوة والنجـاح والتعثُّـر والإخفـاق.. كلهـا مُعطَيـات اجتماعية/اقتصاديـة وسياسـية، مـا دام الفـرد عضـوًا فـي مجتمـعٍ ومواطنًـا فـي دولـة. العُضويـة فـي المجتمـع والمواطَنـة فـي دولـة وَجهـان متكامـلان لذاتِـيَّة الشـخص امـرأةً كان أو رجـلًا، ومـن ثُـمَّ، فـإن أيَّ سـيرةٍ ذاتيـة تُلقـي ضـوءًا مـا علـى الحيـاة الاجتماعية/الاقتصادية/السياسـية والأخلاقيـة، فـي المجتمـع المَعنِـيّ، والمجتمـع المَعنِـيُّ هنـا هو المجتمع السـوري.

بعـض السِّيَـر تكـون مـن قَبيـل العـودة إلـى الـذات، وبعضهـا الآخـر مـن قَبيـل الشـهادة. وهـذه الأخيـرةُ، أيِ الشـهادة، لا تُقبـل إلا مـن «شـاهدٍ مُحايـد»، كمـا فـي محكمـة، إذ مـن أهـم شـروطها اسـتقلالُ الوجـدان وحريـةُ الضميـر وابتغـاءُ الحقيقـة. هـذه السـيرة، التـي يضعهـا ريـاض سـيف بيـن أيـدي القارئـات والقـراء، مـن النـوع الثانـي أو أقـرب مـا تكـون إليـه، لأن هاجـسَ الصديـق ريـاض هـو إظهـار الحقيقـة وجَعـلُ تجاربـه، فـي الصناعـة والتشـريع والسياسـة، موضوعًـا عامًّـا للقـراءة والفهـم والتمثُّـل والنـقد. فـهي سـيرةٌ تحمـل رسـالة، بقـدر مـا تصـف تجربـة.

لـم أُخـفِ إعجابـي بالرجـل، هـذا «البُـرجوازي» الدمشـقي، منـذ

تعارفنا أيام «ربيع دمشق» في «منتدى الحوار الديمقراطي»، الذي افتَتحه في منزله بأشرفية صحنايا، بمحاضرةٍ لافتةٍ للمثقف السوري البارز المرحوم أنطون مقدسي، صاحب الأيادي البيضاء على الثقافة السورية.

اللَّافت في محاضرة الأستاذ مقدسي كان موضوعها الجديد على الحياة الثقافية السورية: «ما هو المجتمع المدني؟». وكنت آنذاك أحد أعضاء «الهيئة التأسيسية للجان إحياء المجتمع المدني» التي بدأتْ إرهاصاتها الأولى قُبيل وفاة حافظ الأسد، ربما بأسابيع، وكان رياض سيف أحدَ المبادرين إلى تشكيلها، تحت عنوان «أصدقاء المجتمع المدني»، وأخذ على عاتقه مهمة تسجيلها جمعيةً غير حكومية، وحاول جاهدًا، لكن ردود «الجهات المعنِيَّة» جعلته يختار الخيار الأصعب، في نظام «الديمقراطية الشعبية»، أعني الحوار و«منتدى الحوار»، فاتحة ربيع دمشق. أجل كان الحوار في سوريا هو الخيار الأصعب، ولا يزال كذلك، أما الحرب فهي الخيار السهل، وليس ثمة خيارٌ ثالث بين (الحرب والحوار) سوى الرضا والقناعة والطاعة والامتثال، إزاء العَسف والتسلُّط والطغيان.

اليوم، وقد مرَّت دماءٌ كثيرة تحت الجسور وفوقها، أفكِّر: لمَ لم تكن تلك الهيئة التأسيسية، الموسومة بـ «أصدقاء المجتمع المدني» هي بيت القصيد وعنوانه، فاقترحتُ على الصديق رياض أن يُعنوِن هذه السيرة بـ: «مَن هم أصدقاء المجتمع المدني؟» مستوحيًا ذلك من عنوان كتاب مهمٍّ لفيلسوف العلم، كارل بوبر: «المجتمع المفتوح وأعداؤه»، والمجتمع

المفتـوح، كمـا أعتقـد، هـو المجتمـع المدَنـي، بـصفته فضـاء الحريـة المدنيـة.

هـذا وثيـق الصِّلـة بأسـباب إعجابـي بالرجـل، وبمـا أحملـه لـه مـن محبـةٍ واحتـرام؛ أول هـذه الأسـباب أن تجربـته فـي الصناعـة والسياسـة تُـقدِّم، بـل قدَّمـتْ لـي علـى الأقـل، صـورةً عـن كيفيـة نشـوء بُرجوازيـة وطنيـة، مـن البديهـيِّ أنهـا مدنـية، ولا تنفصـل عـن عمليـات أو مجريـات تشـكُّل مجتمـعٍ مدنـي، «بُرجوازي» بالضـرورة، رغـم أنـف يسارِيَّـتي وماركسِـيَّتي. قـوام هـذه الصـورة هـو حـب العمـل واحتـرام القانـون، بـل تقديـس العمـل، وفـق المأثـور البروتسـتنتي: «العمـل عبـادة». فالمجتمـع المدنيُّ، بأوجـز تعريف، هـو «أعمـالٌ خاصـةٌ وقوانيـنُ عامـة». وقـد تجلَّـتْ هـذه الصـورة فـي كيفيـة انتقـال ريـاض سـيف مـن عامـلٍ أجيـر إلـى صناعـي ورَبِّ عمـل، مـن عامـلٍ إلـى بُرجـوازي، بينمـا العامـل والبـرجوازي كلاهما فـي أفـق المجتمـع المدنـي. البـرجوازي ليـس سـليلَ أسـرةٍ ثريـة بالضـرورة، فالبـرجوازية أسـلوب تفكيـر وتدبيـر، ثقافـة مختلفـة، بالمعنـى الـذي يُحيـل علـى الممارسـة، وكذلـك أخـلاق مختلفـة.

مأسـاة ريـاض سـيف، وهـي صـورةٌ مصغـرة عـن مأسـاةٍ سـوريَّة، تتلخَّـص فـي وجـود أعمـالٍ خاصـة، وعـدم وجـود قوانيـنَ عامـة، أي فـي حلـول الامتيـازات محـل الحقـوق، والـولاءات مـا قبـل الوطنيـة محـل القانـون، وهـذه الامتيـازات والـولاءات تَمسـخ الأعمـال الخاصـة، وتهـدر قِيـم العمـل والإنتـاج الاجتماعـي، وتفتـح أبـواب الفسـاد والنهـب السَّـافر لقـوة عمـلِ المجتمـع. أعـداء ريـاض سـيف، كانـوا ولا يزالـون، هـم أنفسـهم أعـداء المجتمـع المدنـي،

أعـداء الوطـن والشـعب، أعنـي أصحـاب الامتــيازات ، الذيـن كانـوا ولا يزالـون فـوق القانـون.

تُقـدِّم لنـا تجربـة ريـاض سـيف، التـي يبسـطها فـي هـذا الكتـاب، حقيقــة أن الثــروة المادِّيــة لا تمنــح صاحبهــا حريــاتٍ أو حقوقًــا مدنيــة أكثـر مـن أيِّ مواطـن أو مواطنـة، ولا تحـول دون المسـاواة أمـام القانـون، والمسـاواة فـي العمـل، مـع أخـذ الكفـاءة والخبـرة فـي الحسـبان. البــرجوازيُّ الحـق، هـو مَـن يُـدرك هـذه الحقيقـة، ويعمـل بمقتــضاها. وإذ يُعــرِّف سـيف نفسـه بأنـه إنسـان ومواطـن، إنمـا يفعـل ذلـك علـى اعتبـار الإنسـانية والمواطَنـة صفتـان لا تقبلان التفـاوت والتفاضـل، لذلـك لـم يكـن يرضـى لعاملاتـه وعُمالـه غيـر ما يرضـاه لنفسـه، ولـم يكـن يُعاملهـم إلا كمـا يحـب أن يعاملـوه. ليـس كونـه إنسـانًا ومواطنًـا محـض صفــتَين بديهيَّــتَين، بـل همـا حالتـان يرقــى إليهمــا الفــرد (ذكــرًا وأنثــى) بالعمــل والفاعليــة الاجتماعيــة والإنسـانية والمشـاركة الحـرة والمُبدعـة فـي الشـؤون العامـة.

ربمـا نحتـاج إلـى وقـتٍ طويـل وثقافـةٍ مختلفـة لكـي نـدرك سـرَّ التحـولات الديمقراطيـة فـي البلـدان المتقدمـة، بـل سـر التمـدُّن، السـر الـذي كشـفه كارل ماركـس بوضـوح، هـذا السـر هـو الإلغـاء السياسـيُّ للمِلكيــة الخاصــة، والإلغــاء السياســيُّ للديــن، والإلغــاء السياسـيُّ للعـرق والإثــنية، علـى مـا تُشـير إليـه الإثــنية مـن دلالـةٍ مسـتقلةٍ عـن القوميـة. المِلكيـة الخاصـة لا تمنـح أصحابهـا حقوقًـا مدنيـة أكثـر مـن حقـوق نظائرهـم مِـن غيـر المُـلَّاك، ودين الأكثريـة لا يمنـح أتباعـه حقوقًـا مدنيـة أكثـر مـن حقـوق أتبـاع الديانـات الأخـرى الأقـل عـددًا، والأكثرية الإثــنية، كالعـرب السوريِّــين، لا تمنح

أفرادها حقوقًا مدنية أكثر من حقوق أفراد الإثنيات الأخرى، كالكُرد والآثوريِّين والتركمان والأرمن والشركس وغيرهم. أعتقد أن رياض سيف لم يقرأ ذلك عند كارل ماركس، لكنه مارَسه، في حين أن معظم الذين قرؤوا ذلك لا يُمارسونه، بعثِيِّين كانوا أم شيوعيِّين.

«المُناضلون» مِنَّا يعتقدون أن «النضال» يمنحهم حرياتٍ وحقوقًا أكثر من غيرهم، على منوال الدعاة والمجاهدين، وبمِثل ذلك يعتقد «المثقفون» والقادة السياسيون. الأدهى والأمرُّ من هؤلاء وأولئك هم «المثقفون القادة»، المناضلون الأشاوس، الذين امتهنوا صفَّ الكلام، واستَبطنوا «طبائع الاستبداد».

انتقل رياض سيف من عاملٍ أجير، إلى رَبِّ عمل، ومن البديهيِّ أن انتقالًا كهذا يحتاج إلى «رأسمال»، أو إلى «مال» بالمعنى الدارج، (هكذا تُفهم المسألة في بلادنا، فيُسمَّى كل غنيٍّ رأسماليًّا وبرجوازيًّا، ولا يخلو أن يُصنِّفه اليساريون رجعِيًّا وعميلًا للإمبريالية). لكنَّ معنى رأس المال، في تجربة سيف، مختلفٌ عن المعنى الدارج، لأنه يتضمن في وقت واحد، وعلى نحو لا يقبل التجزئة، ثلاثة أنواع من رأس المال: رأس مال مادِّي (أموال منقولة وغير منقولة) - ورأس مال مَعرفي وثقافي، مشروط بالاستقلال الكياني والانعتاق من الروابط الأولية والعادات والتقاليد الكابحة عن الانفتاح على العالم - ورأس مال اجتماعي قوامه ثقة وتعاون وشبكات، أو علاقات أفقية وشبكية، تقوم على التكافؤ والندِّية، والاعتراف المتبادل بالكرامة الإنسانية والجدارة والاستحقاق، قد تكون مُحصلتها جميعًا رأسَ مالٍ رمزيًّا، بحسب

قاعدتهـا الأخلاقيـة أو أساسـها الأخلاقـي. رأسُ المـال الاجتماعـي والثقافـي ليـس حكـرًا على البـرجوازية، والبـرجوازية لا تكـون كذلك بدونهمـا، وإلا فـمرحبًا بالصـراع الطبقـي التعادمـي.

رأسُ المـال المعرفـي والثقافـي الناتـج مـن العمـل والفاعليـة الاجتماعيـة والتواصـل الإنسـاني، لا مـن الكتـب فقـط، هـو رأس المـال الفِعلـي. بـل أكاد أن أقـول إن المعـارف والأفـكار المأخـوذة مـن الكتـب، والتـي لا تُـتـرجَم إلـى عمـل اجتماعـيٍّ وعلاقـات اجتماعيـة وإنسـانية وسـلوك أخلاقـي، تنتمـي إلـى دائـرة الوعـي الزائـف والمعرفـة الزائفـة والثقافـة الزائفـة. الوعـيُ الزائـف هـو الوعـي المُنقطِـع عـن الواقـع والمنفصـل عـن المجتمـع، لا مـا يُوصـف بالوعـي التقليـدي، السَّـلفي والأصولـي، فقـط، ولا مـا يُوصـف بالوعـي المثالـي (الميتافيـزيقي) فحسـب. المُزيَّـفون والمُزيِّفـون هـم مَـن يُخرجـون الواقـع مـع رؤوسـهم، لا مَـن يُخرجـون رؤوسـهم مـن الواقـع، بـتعبير ياسـين الحافـظ.

قلَّمـا ينعقـد مجلـسٌ أو لقـاء، ويـدور نقـاش فـي السياسـة أو فـي أحـوال المجتمـع، مـن دون أن يتحـدث أبـو جـواد عـن حضارة سـوريا ومدنيَّـتها وعظَمـة الشـعب السـوري وإبداعاتـه علـى مـر التاريـخ، وعـن المُمكنـات الإبداعيـة والأخلاقيـة التـي يتوفـر عليهـا السـوريون، إذا توافـرت لهـم شـروط مناسـبة. فـلعله فـي ذلـك يتجـاوز كثـرةً مـن المثقفيـن الذيـن لا يـرون فـي سـوريا والشـعب السـوري سـوى التخلـف والتعصـب القومـي والمذهبـي أو الطائفـي. يستشـهد أبـو جـواد علـى هـذه الثقـة المطلقـة بـسوريا والسوريِّـين بـتَجربته الصناعيـة وعلاقاتـه بعاملاتـه وعُمالـه، ويَـروي حـوادثَ قـد يظـن

مَـن يسـمعها أو يقـرأ عنهـا أنهـا جـرتْ فـي مـكان مُتخـيَّل، لا فـي سـوريا، وفـي زمـانٍ آخـر غيـر زمـان البعـث وزمـان الأسـد. ربمـا كان بإمـكان هـذه الجزيـرة السـعيدة، التـي أنشـأها سـيف، أن تتحـوَّل إلـى ظاهـرةٍ سـوريَّة، فـتُحوِّل بـدورها سـوريا إلـى نمـر تنمـويٍّ دونه النمـور الأسـيوية، لـولا أن نظـام البعـث وسـلطة آل الأسـد حـالا دون ذلـك، حتـى صـار الأقـرب إلـى الإمـكان هـو الحديـث عـن سـوريا الممنوعـة مـن النمـو، لا بفعـلٍ خارجـي، بـل بفعـل مَـن جعلوهـا مِلكيـة خاصـة يرثهـا خلـف عـن سـلف.

ليسـت تجربـة سـيف الشـخصية فقـط، هـي مـا يقـوم دليـلًا علـى تميُّـز الشـعب السـوري، وأهـل سـوريا الطبيعيـة، بـل المآثِـر المشـهورة عـن مرحلتَـيِ الكفـاح الوطنـي ضـد الاسـتعمار الفرنسـي والمرحلـة الليـبرالية القصيـرة، التـي عاشـتها سـوريا. ولا أحسـب إلَّا أن مآثـر قـادة الكفـاح الوطنـي مِـن أمثـال إبراهيـم هنانـو وسـلطان الأطـرش وعبـد الرحمـن الشـهبندر، ورجـالات الدولـة مِـن أمثـال هاشـم الأتاسـي وخالـد العظـم وفـارس الخـوري ــ شـكَّلتْ مَثلـه الأعلـى الأخلاقـي فـي السياسـة، مثلمـا شـكَّلتْ مآثـر التُّجـار والصُّنـاع والحرفيِّـين مَثلـه الأعلـى فـي التجـارة والصناعـة، عـلاوةً علـى تأثُّـره بنمـاذج أوروبيـة وأمريكيـة عمِـل علـى توطينهـا فـي البيئة السـورية.

الثقـةُ المطلقـة بالشـعب السـوري وعـدم التوجُّـس مـن التـنوُّع الإثنـي والدينـي، فضـلًا عـن اعتبـاره ثـروة، صِفتـان ملازمتـان لمَـن نقـرأ سـيرته، آملـين أن تصـل الرسـالة إلـى المَعنـيِّـين والمعـنِيَّات بهـا، مَـن يُراهِـن سـيف علـى ممكناتهم/ـهن الإبداعيـة والأخلاقيـة.

لقـد وصفـتُ قراءتـي لـمذكرات الصديـق ريـاض بأنهـا «قـراءة ذاتيـة

فـي سـيرة موضوعيـة» لكـي أشـير إلـى بُعـدٍ جديـدٍ مـن أبعـاد الصداقـة، مـن دونـه لا يتشـكَّل مجتمـع مدنـي؛ فالصداقـة ليسـت مجـرد تواصـل إنسـانيٍّ بيـن شـخصين تجمعهمـا المـودة والثقـة والاحتـرام والتعـاون فقـط، بـل هـي تجربـة فريدة بـتـفرُّد الأشـخاص الذيـن يُؤسِّسـونها ويبنـون عليهـا، نسـاءً ورجـالًا. تجربـةٌ قـد تتعـدَّى الحـدود الفرديـة إلـى فضـاءٍ أخلاقـيٍّ مشـترك، أي إلـى فضـاءٍ اجتماعـي - سياسـي مشـترك، قوامـه أفـكار وتصـورات مشـتركة، وقِيـم ومعايـير مشـتركة، وتطلعـات مشـتركة، وأعمـال مشـتركة، تَرقـى بهـا الصداقـة الشـخصية إلـى صداقـةٍ مدنيـة، تحتفـظ بـدفءِ العلاقـة الشـخصية وثرائهـا، وتُعانـق المُواطَنـة المتسـاوية. هكـذا أصـف علاقتـي بالصديـق ريـاض: صداقـة مدنيـة، تتوفَّـر علـى جميـع معانـي الصداقـة الشـخصية وثرائهـا، أو قُـل صداقـة مدنيـة مُؤسَّسـة علـى معانـي الصداقـة الشـخصية، ولاسـيما المحبـة والثقـة والاحتـرام والتعـاون. ولا أبالـغ إذا قلـتُ إن ريـاض سـيف صديـق محبـوب وموثـوق بـه ومحتـرم بالنسـبة لـكثير جـدًّا مـن السوريِّـين والسـوريات مـن مختلـف الاتجاهـات والمشـارب ومختلـف الأماكـن. سـأقول إنـه أحـد رواد الصداقـة المدنيـة، التـي نحـن فـي أمـسِّ الحاجـة إليهـا اليـوم بعـد أن دمَّـرتِ الحـرب اجتماعنـا المدنـي والسياسـي والأخلاقـي.

الصداقـة المدنيـة هـي البطانـة الأخلاقية للمُواطَنة المتسـاوية، ترتـقي بالشـخص مـن كائـنٍ طبيعـي مسـوق بسـائق حاجاتـه ومصلحتـه الشـخصية وسـائق تفضيلاتـه وانحيازاتـه إلى كائـن اجتماعي - سياسـي يتعلـق بـقِيم الخيـر والحـق والجمـال، بـصفتها قِيـم الحيـاة العامة أو

الحيـاة النوعيـة، فـي مجتمـع بعينـه وزمـن بعينـه. الصداقـة المدنيـة هـي التـي تُعيِّـن التُّخـوم الفارقـة بيـن الاختـلاف وبيـن عوامـل التجنُّب والعزلـة والعـداوة، فهـي، أي الصداقـة المدنيـة، تحتفـي بالاختـلاف وتغتنـي بـه، وتعمـل علـى اقتـلاع أعشـاب العـداوة وأشـواكها مـن العلاقـات الاجتماعيـة والسياسـية.

أعتقـد أن تجـارب ريـاض سـيف فـي الصناعـة والتشـريع والسياسـة كانـت حاملـةً للصداقـة المدنيـة ومحمولـة عليهـا. تُقـاس نجاحاتـه فيهـا بمقيـاس رأسـماله الاجتماعـي، وهـو رأس مـال أخلاقـي، علـى العمـوم، يُؤسِّـس مفهـوم الشـخصية العامـة، الـذي يمنـح أيَّ مجـالٍ مـن مجـالات الحيـاة العامـة بُعـدًا أخلاقيًّـا. هـذا المفهـوم الـذي يُجسِّـده ريـاض سـيف وأمثالـه يختلـف عـن مفهـوم القائـد والزعيـم والمناضـل والمجاهـد ومـا إليهـا مـن مفـردات القامـوس الأيديولوجي اختلافًـا جذريًّـا.

أخيـرًا، أريـد أن أشـير إلـى أن تجربـة ريـاض سـيف فـي مجالَـيِ التشـريع والسياسـة مُؤسَّسـةٌ علـى تجربتـه فـي المجاليـن الصناعـي والتجـاري، وهـي تجربـة تسـتحق مزيـدًا مـن الاهتمـام والدراسـة، لمـا تنطـوي عليـه مـن ابتـكاراتٍ لافتـة وأفـكار خلاقـة، مـن أهمهـا فكـرة التكافـؤ بيـن العامل/العاملـة ورب العمـل، والإدارة المرِنـة، التـي تفسـح فـي المجـال لمشـاركةٍ فعالـة فـي اتخـاذ القـرار، إضافـة إلـى نظـام المكافـآت النسـبية (نسـبة محـددة مـن الأربـاح) والضمان الاجتماعـي، ولاسـيما فـي مجـال سـكن العمـال والعامـلات، والضمـان الصحـي، وإدخـال الرياضـة إلـى المعمـل، بصفتهـا جـزءًا مـن تقاليـد العمـل. ولعـل الفكـرة الأكثـر مدعـاةً للإعجـاب هـي فكـرة «الأم»،

التـي تدافـع عـن العامـلات والعامليـن فـي وجـه الإدارة ووجـه رب العمـل، دفـاع الأم عـن أولادهـا وبناتهـا، ويمكـن أن نُسـمِّيها النقابـة الأخلاقيـة، التـي تُكـمِّل عمـل النقابـة المهنيـة.

لعـل المشـترك بيـن التجـارب الصناعيـة والتشـريعية والسياسـية فـي سـيرة ريـاض سـيف، هـو مفهـوم المنفعـة الليبرالـي. ويتجلـى هـذا المفهـوم بوضـوح، وفقـاً لمعاييـر عامـة ونظـام مقبـول مـن الجميـع، فـي ضـوء مبـدأ مدهـش مفـاده: «كلمـا زادت أجـور العامـلات والعمـال تـزداد أربـاح المؤسسـة».

فعلـى هـذا المفهـوم تتأسـس المنفعـة العامـة التـي تتحقـق مـن خـلال الصناعـة والتشـريع والسياسـة، بـل إن المنفعـة، فـي هـذه السـياقات لا تكـون إلا منفعـة عامـة، وهـذا مـا يجعـل مـن صناعـي، كريـاض سـيف، معارضـاً موضوعيًّـا لنظـام الامتيـازات والمحسـوبية والفسـاد معارضـة جذريـة.

إن هـذا النمـوذج مـن المعارضـة الجذريـة الـذي تمثـل عليـه سـيرة ريـاض سـيف يتفـوق حكمًـا علـى أي معارضـة أيديولوجيـة. وبهـذا المعنـى لا مبالغـة فـي القـول بـأن أبـرز الـدروس المسـتفادة مـن سـيرة الرجـل ــ وأبـرز الرسـائل التـي يحملهـا هـذا الكتـاب ــ هـو، ببسـاطة، أن طلـب المنفعـة العامـة لا يمكـن أن ينفصل عـن معارضة نظـام الامتيـازات والمحسـوبية والفسـاد.

ج. ك. ج.

تشرين الأول ٢٠٢٠

بيضاء في الأصل

مُقَدِّمَة المُحَـرِّرَيْن

لـم نتـردَّد فـي الاسـتجابة لطلـب ريـاض سـيف مُسـاعدته فـي تحريـر سـيرته الذاتيـة للوقـوف عنـد مفاصـلَ رئيسـية مـن حياتـه ونضالـه ومعاناتـه...

وإذ لـم نتـردد فليـس مـن دافـع المحبـة والمعرفـة القديمة بصِدقِـيَّة هـذا الرجـل وشـهامته وحسـب، وإنمـا، وهـو الأهـم، لأن سـيرته فيهـا مـن الخصوصيـة مـا تسـتحق تعميمهـا.

لـم ينشـأ ريـاض سـيف فـي بيئـةٍ سياسـية بـل بـدأ حياتـه مـن أسـرةٍ متوسـطة الحـال وترعـرع عِصاميًّـا بـاذلًا جهـودًا شـخصية مُضنِيـة لتطويـر فُـرص عملـه ثـم مُنشـآته الصناعيـة وجعلهـا منشـآتٍ مميـزة مـن حيـث أجـور العامليـن وضمـان احتـرام جهودهـم وإنسـانيتهم وحقوقهـم.

وربمـا لا أحـدَ يختلـف علـى حقيقـة أن ريـاض سـيف كان مُغرمًـا بجعـل وطنـه سـورية أفضـل وأجمـل، وكان مسـتعدًّا فـي سـبيل ذلك، للتضحيـة بـكل شـيء، المـال والطاقـة والامتيـازات والمناصـب، وقـد فعـل ذلـك حقًّـا، فالسياسـة عنـده ليسـت نشـاطًا عليـك أن تسـتثمره

أرباحًـا ومنافـع شـخصية فـي النهايـة، كمـا أنَّ التزعُّـم واحتـلال المناصـب ليـس رغبـةً وحاجـة أنانيـة بـل إيثـارًا وتمكُّنًـا مـن جَنـي أفضـل النتائـج والثمـار. أمـا النِّضـال السياسـي فقـد اعتبـره، برغـم الصعوبـات والتضحيـات، متعـة العطـاء، بـل متعـة المُتَـع.

واليـوم يبـدو أن هـذا الفـارسَ أُرغِـم علـى التَّرَجُّـل ــ أَرغمـه ليـس فقـط وطـأة المـرض الثقيـل، بـل الأهـم حالـة الإحبـاط واليـأس التـي اعترتـه مـن فشـل كثيـرٍ مـن المحـاولات التـي جاهـد مـن أجـل تحقيقهـا كـي يحظـى المجتمـع السـوريُّ بمعارضـةٍ كُـفءٍ وعلـى قـدر المسـؤولية الملقـاة علـى عاتقهـا، معارضـةٍ تنسـجم مـع رؤيتـه الوطنيـة والإيثاريـة للعمـل السياسـي.

وعلـى الرغـم مـن اختلافنـا الطبيعـي مـع عـددٍ مـن مواقـف وآراء ريـاض سـيف، نأمـل أن نكـون قـد نجحنـا بنقـل مـا رواه عـن نفسـه وعمَّـا كابـده فـي رحلتـه الشـاقة لخلـق بديـلٍ سياسـي ديمقراطـي يُـوازي تضحيـات وعظمـة الشـعب السـوري، خاصَّـةً وأن الرجـل، وقبـل البـدء بمسـاعدته فـي تحريـر روايتـه، أعلـن أنـه لا يخشـى لومـة لائـم مـن عَـرْضِ سـيرته علـى المـلأ، وأنـه علـى أتـم الاسـتعداد للاعتـراف بالأخطـاء التـي اعْتَـرتْ مسـيرته، بـل مـا يُهمـه هـو وضـع خصوصيـة تجربتـه بحقائقهـا وتفاصيلهـا بمُتنـاول الجميـع، عسـى أن تسـاعد فـي اسـتخلاص العِبَـر والـدروس للأجيـال القادمـة.

أ. ب. و أ. ع.

١٥ حزيران/يونيو ٢٠٢٠

إلى شعب سوريا العظيم

ر. س.

بيضاء في الأصل

الباب الأوَّل

من الصِّناعة إلى التَّشْريع

بيضاء في الأصل

الفصل الأوَّل

من النَّشاط الخاصِّ
إلى العمل في الشَّأن العامّ

بيضاء في الأصل

ينشأ المرء ويترعرع وهو لا يعرف مصيره، لكنه يعرف بلا شك، ما يُريده ويميل إليه ــ أو على الأقل يتملَّكه حَدسٌ وشعور بما يمكن أن يتوافق مع مكوِّنات شخصيته من خيارات.

في بداياتي، استهواني العمل في الزراعة، والسبب أنَّ خالي كان يُدير أراضي العائلة في ببيلا، وهي بلدة صغيرة من غوطة دمشق، حيث لأمي حِصَّة بها من ميراث أبيها. كنت أحب أن أرافقه في جولاته، وكان أكثر ما يسحرني هو مشهد الأشجار المُثمرة على تعدُّد ثمارها وتنوعها وهي تنمو جنبًا إلى جنب في بستانٍ واحد.

بدأتُ باقتناء كتبٍ عن الزراعة وأساليبها الحديثة، لكني توصَّلتُ بعد قراءة بعضها وإثرَ نقاشٍ طويل مع خالي صاحب الثقافة والخبرة، أنه ليس ثمة جدوى اقتصادية يمكن تحقيقها في مساحةٍ صغيرة من الأرض، فتوجَّهتُ نحو النشاط الصناعي، ربما لأن شروطه وآلِيَّاته كانت الأقرب لطبيعتي الشخصية والأكثر ملاءمة لمرجعيتي الأخلاقية.

في سبعينيّات القرن الماضي، عندما سألني موظف الجوازات عن مهنتي، أجبتُه بأنني «صِناعي»، فسجَّل على جواز السفر «تاجر»، وذلك على الرغم من محاولتي إقناعه بأن الصناعي يختلف عن

التاجـر. كنـت لا أحـب صفـة التاجـر وأفضِّـل دائمًـا أن أُعـرِّف عـن نفسـي كـصناعي، بـل وكنـت أقـول مُمازحًـا: «لـو أنهـم فحصـوا جيناتـي لوجـدوا فيهـا صِناعيًّـا!».

التجـارة لا وطـن لهـا، ولديهـا هـدف وحيـد هـو الربـح بغـضِّ النظـر عـن مصـدره وعـن نـوع البضاعـة ومـدى نفعهـا أو ضررهـا علـى الإنسـان أو البيئـة، وغالبًـا مـا يَسـتخدم التاجـر «حربقاتـه الفرديـة» لـتحقيق ذلـك، والتـي عُرفـت باسـم «شَـطارة التاجـر» وهـي حصيلـةٌ مـن الجشـع والاحتـكار وغيـاب الشـفافية. أمـا الصناعـة فهـي ثابتـة فـي أرض الوطـن، وهـي فِعْـلٌ مُبـدع لخلـق مُنـتَجٍ جديـد، تمـتزج بالـروح الجماعيـة وتوفِّر أفضـل فـرصٍ للعمـل ضمـن وحـدات إنتاجيـةٍ يُكمِّـل فيهـا العاملـون بعضهـم بعضًـا تبعًـا للإمكانيـات الفنيـة والفكريـة والجسـدية لـكلِّ فـردٍ منهـم، بحيـث يُنجِـز كل عامـل جـزءًا مـن العمـل، حتـى أنَّ الخطـأ الـذي يرتكبـه أي منهـم ينعكـس علـى الجميـع فيُفسـد المنـتج ويُقلِّـل مـن جودتـه وقيمتـه. والأهـمُّ أنَّ الصناعـة هـي أسـاس ازدهـار الـدُّول، فالمجتمـع الـذي يعمـل فيـه ٣٠٪ مـن قُـواه العاملـة فـي مجـال الصناعة هـو مجتمـع يتطـور ويزدهـر باطِّـرادٍ، مثـل ألمانيـا وغيرهـا.

أمـا فـي سـورية، فقـد حـرص حافـظ الأسـد علـى إعـدام أيـة فرصـةٍ لنشـوء صناعـةٍ قويـة تُهيِّـئ الظـروف لتقـدُّم دور المجتمـع المدنـي ولبنـاء مؤسسـاته، خشـيةً مـن أن يشـكل ذلـك خطـورةً علـى نظامـه وخاصَّـةً فـي حـال نمـو القطـاع الخـاصِّ الصناعـي. ولتـبرير ذلـك بالـغ البعثيـون كثيـرًا وبشـكلٍ خبيـث، بـدَور «الشـركة الخماسـية» فـي العهـد الوطنـي، وأنهـا قـادرة علـى تغييـر الـوزارات، وهـو أمـر غيـر صحيـح ولـم يشـهد التاريـخ السـوري أيـة محطـةٍ تـدل علـى ذلـك.

بـل كانـت اسـتراتيجية حافـظ الأسـد، منـذ تسـلم السـلطة عـام ١٩٧٠

وحتـى صـدور قانـون الاسـتثمار رقـم ١٠ عـام ١٩٩١،[١] تقـوم علـى تقزيـم القطـاع الصناعـي الخـاص وإفسـاد القطـاع الصناعـي العـامّ، بـل وسَـنِّ قوانيـن ناظمـة للصناعـة، إمـا تعجيزيـة أو غيـر قابلـة للتطبيـق، بحيـث لـم تُبْـنَ أيـة مدينـةٍ أو منطقـة صناعيـة جديـدة فـي عهـده، بـل تكاثـرت عشـرات الألـوف مـن الـوِرش والمعامـل الصغيـرة التـي انتشـرت فـي العشـوائيات وأطـراف المُـدن وهـي تفتـقر للبِنيـة التحتيـة وشـروط النمـو والتطـور.

ومِـن هـذا المنطلـق، وبهـدف بنـاء قاعـدةٍ صناعيـة علـى مسـتوى البـلاد تكـون القاطـرةَ للازدهـار العـام، فكـرتُ بترشـيح نفسـي لعضويـة مجلـس الشـعب أمـلًا فـي ذلـك الموقـع، ليـس فقـط لتعميـم تجربتـي فـي الصناعـة علـى كافَّـة أنحـاء سـورية مـن أجـل توفيـر فُـرص عمـلٍ وبنـاء اقتصـاد ومجتمـع مُتـطوِّرين ومزدهريـن، وإنمـا أيضًـا لمحاربـة الفسـاد الـذي كان يقـف عائقًـا فـي وجـه فُـرص التنميـة الحقيقيَّـة ويُرهـق الصناعيِّيـن ومسـار التطـور الاقتصـادي.

وبالفعـل، وبتشـجيعٍ مـن أصدقـاء أُكِـنُّ لهـم كل الاحتـرام، ومـن زمـلاء مُهتميـن ومُطَّلعيـن علـى مسـار حياتـي الشـخصية والمهنيـة، ومؤمنيـن بتجربتـي الصناعيـة ومـا احتوتـه مـن مكاسـب للعامليـن فيهـا، وضعـتُ هـذه الفكـرة موضـع التنفيـذ وأعلنـتُ ترشُّـحي لعضويـة مجلـس الشـعب، ووضعـتُ عنوانًـا لبيانـي الانتخابـي: «فلنَـبنِ صناعـةً في خدمة الإنسـان... ولنجعـل سـورية مكانًـا مُحبَّبًـا للإبـداع والإنـتاج» مُتوسِّـلًا بمـا راكـمه نجاحـي فـي المجـال الاقتصـادي منـذ سـتينيّات القـرن الماضـي، والأنمـوذج الـذي بنيـتُه فـي الإدارة والتنظيـم والتخطيـط فـي مُنشـآتي

(١) القانون رقم ١٠ لعام ١٩٩١: «قانون استثمار الأموال في الجمهورية العربية السورية»: http://www.parliament.gov.sy/arabic/index.php?node=5554&cat=16371

الاقتصادية التي أثبتتْ أنها تستطيع تحقيق التقدم والوصول إلى السوق العالمية والمنافسة في حال توفر الحد الأدنى من المناخ المناسب، وكف يد أجهزة الدولة الأمنية والسُّلطوية عنها. وقد تكثَّف هذا النجاح بانتقالي المُتدرِّج من ورشةٍ لصناعة القمصان مع إخوتي عام ١٩٦٣ إلى تأسيس «شركةِ أديداس الجديدة» عام ١٩٩٣، بعد حصولي، من هذه الشركة العالمية، على امتياز تصنيع منتجاتها من الملابس الرياضية، والذي كان الأول من نوعه في سورية والعالم العربي.

«وقد تمكَّن إنتاج المصنع من تغطية حاجة السوق المحلية، وتم تصدير الفائض إلى مختلف دول العالم، وخاصَّةً دول الاتحاد الأوروبي، وهو يحمل علامة أديداس العالمية وعبارة "صُنع في سورية" عداكم عن أنَّ هذا النشاط الصناعي قد وفَّر أكثر من ١٦٠٠ فرصة عمل، ومنح العاملين دخلًا مُجزيًا، ورعايةً صحية متميزة من خلال عياداتٍ للطب البشري والأسنان والعيون، إضافةً إلى تأمين حضانةٍ لأطفال العاملين ووسائل للترفيه، كمَسبحٍ ومنتجع مُخصَّصٍ للعاملين وأُسَرهم، وفِرق مسرحية وموسيقية من العمال، دون إغفال الخدمات الاجتماعية لهؤلاء العاملين وعائلاتهم، مما انعكس إيجابًا على سُمعة هذه المنشآت وعلى الإنتاج كمًّا ونوعًا».[٢]

(٢) رياض سيف، «تجربتي في مجلس الشعب: أوهام الديمقراطية في ظلِّ الاستبداد (١)»، **السَّفير** (لبنان)، ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٧.

https://bit.ly/33uHWot

الفصل الثَّاني

انتـخابات الدَّوْر التَّـشـريعيِّ السَّادس

بيضاء في الأصل

لقد خضتُ انتخابات الدور السادس لما سُمِّيَ مجلس الشعب، في عام ١٩٩٤، بالتَّزامن مع قيام الحكومة وغالبية أجهزة السلطة، وقُبَيلَ العملية الانتخابية، بحملةٍ واسعة تُروِّج لوعود الإصلاح التي ستبدأ مع هذه الانتخابات، هذا على الرغم من معرفتي الأكيدة بأنهم غير جادِّين، لكنني في الحقيقة لم أتعرَّض لضغوطٍ ولم أكن مستهدفًا في الترشيح الأول لمجلس الشعب.

ويصِحُّ هنا تمييز ثلاث فئاتٍ من المُتطلِّعين لعضوية مجلس الشعب: قِلَّةٌ قليلة تَعتبر الوصول إلى مجلس الشعب فرصةً لخدمة مَن يُمثِّلون من قطاعات المجتمع ويَسعون صادقين للدفاع عن مصالحها، ثم غالبيةٌ تندرج في إطار تمثيل أطراف «الجبهة الوطنية التقدُّمية»، وهؤلاء يتم تعيينهم بالتوافق بين الأجهزة الحزبية والأمنية، وهم أشبه بأدواتٍ مُسيَّرة من قِبَلِ منظماتهم وقياداتهم، وأخيرًا مُرشَّحون يدَّعون الاستقلالية ويتهافتون على الفوز بعضوية مجلس الشعب، بل ويدفعون المبالغ الطائلة لتَغطية تكاليف حملاتهم الانتخابية التي وصلتْ في إحدى الحالات بمدينة دمشق عام ٢٠٠٣ إلى مئة مليون ليرة سورية كما صرح أحدهم، مع العلم أنَّ الراتب الشهري الصافي لعضو مجلس الشعب في عام ٢٠٠٠ كان ٧٥٠٠ ليرة سورية ويصل إلى ١٢٥٠٠ ليرة سورية شهريًّا بعد إضافة

المهمـات وكافَّـة التعويضـات، ومـع العلـم أيضًـا أنَّ تكاليـف السـفر والإقامـة فـي دمشـق للأعضـاء القادميـن مـن المحافظـات الأخـرى خـلال انعقـاد الجلسـات تبلـغ أضعـاف ذلـك المبلـغ، لكـنَّ دَيـدن هـذه الفئـة هـو تحقيـق مكاسـب شـخصية علـى الصعيدَيـن المـاديِّ والاجتماعـيّ، أو توسُّـل الحمايـة التـي يمكـن أن توفرهـا لهـم الحصانـة البرلمانيـة.

وطبعًـا يـزداد عناصـر هـذه الفئـة ويتكاثـرون كالفِطـر فـي ظـل الفسـاد المُستشـري والتوغُّـل الأمنـي فـي حيـاة النـاس، حيـث مـن المعـروف أنَّ الاحتـكارات والاسـتثناءات والسـوق السـوداء أو مـا يُعـرف باقتصـاد الظـل، تُشـكِّل قطاعًـا كبيـرًا مـن مُجمـل الاقتصـاد السـوري، ويتحكـم فيها أصحـاب النفـوذ السياسـي والأمنـي مـن العائلـة والحاشـية والطائفـة والمحاسـيب، ويعمـل رئيـس وأعضـاء الحكومـة والكثيـر مـن أعضـاء مجلـس الشـعب كموظفيـن لصالحهـم ولصالـح شـركائهم ومَـن يلـوذ بهـم، ويمكنهـم أن يُقدِّمـوا بعضًـا مـن المكاسـب غيـر المشـروعة لشـراء الضمائـر وكسـب المـوالاة، تتـراوح بيـن اسـتثناءاتٍ للحصـول علـى بِضعـة أطنـانٍ مـن مـادَّة الإسـمنت مثـلًا أو غيرهـا، ولا تنـتهي باسـتثناءاتٍ أو احتـكاراتٍ تصـل عائداتهـا إلـى مئـات المليـارات، كمـا حصـل فـي صفقـة الهاتـف الخلـوي.

والحـال، فـي ظـل غيـاب البرامـج السياسـية للمُرشَّـحين المسـتقلين، اكتـفيتُ ببيـانٍ انتخابـيٍّ مُقتـضَب، يؤكـد علـى توظيـف الصناعـة لخدمة الإنسـان وتوفيـر حاجاتـه وحفـظ كرامتـه، ويحـث علـى عدالـة التوزيـع التـي تُضاعـف الإنتـاج وتُحقـق الرَّفـاه. وقمـتُ بافتتـاح مضافـةٍ للِّقـاء المباشـر مـع النـاس والاسـتماع إلـى مشـاكلهم ومظالمهـم، حتـى وإن كانـت، كمـا درجَـت العـادة لحمـلاتِ انتخابـات مجلـس الشـعب، مَحفوفـةً ببعـض العراضـات الشـامية وأصـوات الطبـول وفِـرق السـيف

والترس، إضافةً للعمل على إشهار اسمي في مختلف أنحاء المدينة على لافتاتٍ كبيرة مع عبارة: «انتخبوا مرشح مدينة دمشق».

في يوم الانتخاب، توزع أكثر من ٢٠٠٠ شابٍّ وفتاة تطوعًا، من موظفي الشركة ومن الأهل والأصدقاء على مراكز الاقتراع، مُبرهِنين عن كل ما لديهم من محبةٍ وحماس لشخصي وتجربتي، مما كان له التأثير الكبير على النتائج، لِأستيقظ فجر اليوم التالي على ضجيج المُهنِّئين الذين أعلموني بأني حصلتُ على أعلى الأصوات بين المرشحين المستقلين من الفئة ب عن مدينة دمشق، فعاهدتُّ نفسي على أن أكون وفيًّا للثقة التي منحني إياها أبناء دمشق.

وقد حفَّز هذا النجاح اللافت وأعداد الأصوات التي حصلتُ عليها، هِمَّتي وحماسي كي أبقى وفِيًّا لمَنِ انتخبوني، وكي أتمسك بما يُمليه عليَّ ضميري وبما أراه ضروريًّا وصالحًا لخدمة حاجات الناس والدفاع عن حقوقهم. وهذا لا يُغيِّر من حقيقة أنني قبل هذا لم أكن في يومٍ من الأيام لِأهتم بأية انتخابات، مركزية أو فرعية، لشعوري وربما لقناعتي بأنَّ أية انتخابات تجري هي شَكلِيَّة ومُرتَّبة ومعروفة النتائج سلفًا، في ظل قانون الطوارئ[1] وبندٍ في الدستور

(١) قانون الطوارئ في سورية هو القانونُ القَمعيُّ الأخطر الذي يمسُّ حقوق جميع المواطنين السوريين بلا استثناء، وهو أداةٌ لسَلب حريتهم والاستيلاء على أموالهم وانتهاك سائر حقوقهم التي ضمنتها الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، ولوائح حقوق الإنسان. فقد فوَّض هذا القانون سلطاتِ الحكومة أن تفعلَ ما ترى بأيِّ مواطنٍ دون بيان الأسباب وبلا تعليلٍ، ودون حقٍّ لأيِّ جهةٍ قضائية في الاعتراض على هذه الأفعال التي تُشكِّل أبشع الجرائم الجنائية. بمُوجِب هذا القانون أُعلنتْ في سورية حالة الطوارئ إثر انقلابٍ عسكريٍّ قاده حزب البعث العربي الاشتراكي في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣ حيث أُعلنتِ الأحكام العرفية بالأمر العسكري رقم ٢. كان إنهاء حالة الطوارئ في ٢١ نيسان/أبريل ٢٠١١، ثم استِبدالها بثلاثة قوانين لمُكافحة الإرهاب، هي القوانين ١٩ و٢٠ و٢١ لعام ٢٠١٢.

يَعتبر حزب البعث قائدًا للدولة والمجتمع.[٢] ولمعرفتي كذلك بأنَّ ضمان النجاح في الانتخابات يحتاج لضوءٍ أخضر من الأجهزة الأمنية أو السياسية، أو على الأقل ألا يكون المُرشَّحُ معارضًا للنظام، وحيث أنني كنت مع أفرادٍ قلائل ممَّن اخترقوا هذه القاعدة، كنت الأكثر تعرضًا للحصار والضغط كي يجري تطويعي تحت جناح السلطة.

كانت جهودي طيلة الفترة الأولى في مجلس شعب (١٩٩٨/١٩٩٤) تنصبُّ على المطالبة بالإصلاح الاقتصادي والمالي، وإزالة العقبات التي تعترض تنشيط الصناعة الوطنية، وإعادة التوازن بين الدَّخل وتكاليف المعيشة، والتركيز على محاربة الفساد، الذي اعتبرتُه مصدرًا لكل الشرور أو السبب الأول لكل التردِّي والإخفاقات والمصائب التي عانى منها الشعب السوري ولا يزال. وهكذا دخلتُ معارك غير متكافئة مع الحكومة ومافيات الفساد، كانت نتيجتها الطبيعية في نهاية الدور التشريعي السادس أنْ خرجتُ مهزومًا منها، وقد خسرتُ كل ما جنَيته في حياتي، ومُرتهِنًا لديونٍ سآتي على ذكرها لاحقًا، ولضرائب مُفتَعلة. وكانت الخسارة الأفدح هي فقدان ولدي إياد (٢١ عامًا) في ظروفٍ غامضة وملتبسة في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٦، وسآتي لاحقًا على ذكرها مُفصلًا.

لعل مُداخلتي الأولى عند مناقشة البيان الوزاري بتاريخ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ تدل على المسار الذي اخترتُه، حيث ألقيتُ مُداخلةً للحكومة وَرَدَ فيها أنَّ: «المُنشآت الصناعية في بلدنا لكي

(٢) ينصُّ دستور الجمهورية العربية السورية لعام ١٩٧٣ في مادته الثامنة على أنَّ: «حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب القائد في المجتمع والدولة، ويقود جبهةً وطنيةً تقدُّميةً تعمل على توحيد طاقات جماهير الشعب ووَضعها في خدمة أهداف الأمة العربية». ظَلَّ معمولًا بهذا الدستور حتى إقرار دستور عام ٢٠١٢.

تتمكَّن من الاستمرار على قيد الحياة يجب أن تتمتَّع بقُوى خارقة، فهي متروكة لقَدَرها لتحل مشاكلها بنفسها وتتغلَّب على ما يوضع في عجلاتها من عِصِيّ». كما بيَّنتِ المداخلة مدى الضرر الناتج عن إهمال الحكومة للصناعة، وقد تقدَّمتُ بعشرين مطلبًا مُحدَّدًا لإنقاذ الصناعة الوطنية وتوقعتُ أن تُبدِيَ الحكومة تجاهها شيئًا من الاهتمام، ولكنها لم تَلْقَ إلا الاستخفاف والتجاهل، لتتنامى بداخلي قناعةٌ بأنَّ نقاشات مجلس الشعب هي نقاشات شكلية ومجرد كلام في كلام.[٣]

نعم، كانت كل القوانين المُقترحة من الحكومة تُقَرُّ بشكلٍ روتيني بعد إفساح المجال للأعضاء لمناقشتها صُوريًّا، دون السماح بإجراء أيِّ تعديل جوهري على مضمونها، وكثيرًا ما كانت الحوارات والنقاشات مُفبرَكة برعاية رئيس المجلس، وتجري بطريقةٍ مسرحية من قِبَلِ جوقة من الأعضاء أصحاب المواهب في الخطابة والتضليل الإعلامي من المنتمين لحزب البعث أو أحزاب «الجبهة الوطنية التقدمية»، دون أن يكون هناك معنى حقيقي لأي نقاشٍ جادٍّ أو لعملية التصويت. وإذا صادف أن غرَّد أحد الأعضاء الجُدد خارج السرب، وأصرَّ على السباحة عكس التيار، فسرعان ما يُعاد إلى الطريق المرسوم بالترغيب إن أمكن أو بالترهيب والتأديب إذا تطلَّب الأمر ذلك، وهنا يكمن جوهر مشكلتي مع المجلس والحكومة.

(٣) رياض سيف، «تجربةُ رياض سيف: همومٌ في الصناعة والسياسة»، دمشق، ٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩، لا ذكر لناشر، ص ٢٤.

https://bit.ly/2Rt8mBt

بيضاء في الأصل

الفصل الثَّالث

بين التَّـرغيب والتَّـرهيب

بيضاء في الأصل

(١) فضح المُستفيدين

أرى مـن الضـروري ومـن واجبـي فَضـحُ ممارسـات المسـتفيدين مـن اختـلال الموازيـن التـي أوصلـتِ اقتـصاد البـلاد إلـى مـأزقٍ ليـس مـن اليسـير الخـروج منـه، وفرضـتْ علـى أكثريـة السـوريِّين معانـاةً دائمـة وقهـرًا مسـتمرًّا حاصرَهـم ومنعهـم مـن الحصـول علـى حقوقهـم كمواطنيـن وعيـش حياتهـم بكرامـة ومسـاواة.

أحـد الأمثلـة: فـي عـام ١٩٩٥ احتاجـت شـركتِي إلـى ١٠ أطنـان مـن الغـزول، وكان سـعر الكيلـو الغـرام الواحـد فـي السـوق السـوداء يزيـد ٥٥ ل.س عـن سـعرها الرسـمي فـي المؤسسـة العامـة النَّسـيجية فتوجهـتُ إلـى المؤسسـة، وخـلال أقـل مـن سـاعةٍ حصلـتُ علـى اسـتثناءٍ مُوَقَّـعٍ مـن مديـر المؤسسـة ووزيـر الصناعـة ومديـر معمـل حمـاة الـذي كان بزيـارةٍ للمؤسسـة، بتسـليمي العشـرة أطنـان مـن الغـزول. فـي البدايـة سُـررتُ كثيـرًا لاهتمامهـم وعلمـتُ أنـه بإمكانـي أن أحصـل علـى أيـة كميـةٍ فـي المسـتقبل متـى أريـد.

وفـي طريـق العـودة إلـى مصنعـي بـدأتُ أفكـر بمـا حـدث، ووصلـتُ إلـى قناعـةٍ بأننـي إذا جاريتهـم فسـأكون كَـمَنْ يبيـع ضميـره، لأنـه لـولا صِفتـي كعضـو فـي مجلـس الشـعب لمـا حصلـتُ أبـدًا علـى هـذا

المَغنم. وفور وصولي إلى المعمل اتصلتُ بمدير مؤسسة الصناعات النسيجية وطلبتُ منه إلغاء الاستثناء، فقال لي على الفور: «معقول! فيها نصف مليون ليرة!»، فقلتُ له: «من أجل ذلك أرفضها». وهذا المثال هو واحدٌ من آلاف الوسائل التي مكَّنت الفئة المستفيدة من الفوضى الاقتصادية من جمع الأموال الطائلة على حساب معيشة الشعب ومستقبله.

وبتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٩٦ قدَّمتُ مداخلةً ثانية حول بيان لجنة الموازنة لعام ١٩٩٦، سلَّطتُ فيها الأضواء على واقع اقتصادنا الأليم وهزالة ناتجنا القومي وما تُعانيه الأكثرية من ظلمٍ اجتماعي واقتصادي. وكنت في كل مرةٍ أقدِّم فيها مداخلةً في المجلس، أقاطَع من قِبَلِ وزير المالية الذي يتهمني بالتهرب من دفع الضرائب وبأنني جامع أموال، في محاولةٍ منه للتأثير عليَّ ودفع الأمور في اتجاهٍ آخر.

وبتاريخ ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ قدمتُ مداخلةً بمناسبة مناقشة إغلاق الموازنة العامَّة للدولة لعام ١٩٩٤ عَنونتُها بـ: «عِصِيُّ وزارة المالية في عجلات الصناعة» فضحتُ فيها ما نعيشه من فوضى ضريبية تقف مانعًا أمام تطور صناعتنا الوطنية. ثم أتبعتُها في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ وبنفس المناسبة بمداخلةٍ أوضحتُ فيها، وبأرقامٍ مأخوذة من الجداول التفصيلية لقطع حسابات عام ١٩٩٤، حجم التناقضات في تنفيذ ميزانية الدولة، مُسلِّطًا الضوء على التحصيل العشوائي، وقد ورد فيها ما يلي:

«إنَّ الفترة الزمنية بين إقرار موازنة ١٩٩٤ في مجلس الشعب ونهاية السنة الجارية للضرائب ثمانية أشهر، كيف نستطيع أن نستوعب زيادةً في التحقيقات

للإيـرادات الجاريـة للضرائـب والرسـوم بلغـت ١٧٥٪ وكلنـا يعلـم أنَّ وزارة الماليـة ومنـذ سـنوات طويلـة لا تعتـرف بأيـة ميزانيـة تُقـدَّم لهـا مـن فعاليـات القطـاع الخـاص، وأن الطريقـة المُتبعـة فـي وزارة الماليـة هـي تقديـراتٌ مزاجيـة مـن أنـاس غيـر مؤهليـن ولا يُحمِّلـون أنفسـهم عنـاء البحـث عـن الحقيقـة، قـد أعطـوا صلاحيـات غيـر محـدودة لفـرض مـا يشـاؤون مـن ضريبـة، مُسـتعملين مـا مُنحـوا مـن تفويـضٍ فـي حجـز أمـوال أمـلاك المواطنيـن ومصادرتهـا وحجـب بـراءات الذمـة عمَّـن يعتـرض علـى قراراتهـم الجائـرة».

(٢) اتِّـهامي بـجَمع الأموال

لـم يكـن فـي سـورية قبـل صـدور قانـون الاسـتثمار رقـم ١٠ عـام ١٩٩١، أيـة فرصـة قانونيـة ومعقولـة لاسـتثمار مدخـرات المواطنيـن، وجـرتِ العـادة لمَـن يريـد أن يسـتثمر فائضًـا مـن المـال لديـه أن يشـتريَ شـقة علـى الهيـكل ويتركهـا لعـدة سـنوات ليبيعهـا بأضعـافِ سـعر الشـراء، نتيجـة هـذا الظـرف، ظهـر مـا سُمِّـيَ تشـغيل أمـوال.

كانـت سـورية قبـل تأميـم عبـد الناصـر لمؤسسـاتها الصناعيـة تنعـم باقتصـادٍ حـرٍّ وسـوق مزدهـر للأسـهم والسـندات، وكان مؤشـر البورصـة فـي السـنوات العشـر قبـل التأميـم قـد حقَّـق أرباحًـا مرتفعـةً جـدًّا، ممـا شـجع السـوريين علـى استـثمار مُدخراتهـم فـي شـراء أسـهم فـي الشـركات الصناعيـة مثـل شـركات الإسـمنت والزجـاج والكونسـروة والغـزل والنسـيج، بـدلًا مـن تخزيـن الليـرات الذهبيـة كمـا جـرتِ العـادة حينهـا. وكان مجـال الاسـتثمار الثانـي فـي الخمسـينيات والأربعينيـات

هـو شـراء العقـارات وخاصَّـةً المنـازل وتأجيرهـا لتحسـين دخـل الأسـرة. أُغلِقــت البورصــة بعــد التأميــم، وخســر أصحــاب الأســهم أموالهــم، وأصبــح الاســتثمار عــن طريــق تأجيــر العقــارات غيــر ذي جــدوى بســبب قانــون الإيجــار الــذي أعطــى المســتأجِر الحــق فــي البقــاء بمنزلـه المسـتأجَر دون رفـع الإيجـار، بـل علـى العكـس صـدر ثـلاث قـرارات لتخفيـض أجـور المسـاكن، فخسـر الكثيـر مـن النـاس بيوتهـم وعقاراتهــم المؤجَّــرة.

لـم تــبقَ أي فرصـةٍ للسـوريين لاستِــثمار مدخراتهـم إلَّا اقتنـاء الذهـب والمجوهــرات وشــراء عقــاراتٍ علــى الهيــكل ونســيانها إلــى أن ترتفــع أسـعارها، وكان هـذا الاسـتثمار بالفعـل أكثـر الاسـتثمارات رِبحًـا، ولكـنَّ مسـاوئه أنـه تـرك قسـمًا كبيـرًا مـن المسـاكن فـي المـدن الكبيـرة ــ فارغـةً وغيـر مسـكونةٍ لسـنوات عديـدة انتظـارًا لارتفـاع أسـعارها.

فــي هــذا المنــاخ، وفــي صيــف ١٩٦٣، انطلقــتْ شــركة ٤٠٠ (ســيف إخـوان) برأسـمالٍ قـدره ٢٨٠٠ ل.س، وكان يقتــضي توزيـع أربـاح الشـركة إلــى قســمين: حصــةٌ للأتعــاب وتُــوزَّع بينــي وبيــن أخــويَّ المؤسســين، وحصــة رأســمال التــي تُــوزَّع علــى المســتثمرين.

وفـي آخـر ذلـك العـام، أصـاب والـدِي مـرضٌ منعـه من العمـل فقـام ببَيع حصتــه فــي المنشــرة بمبلــغ ١٣٠٠٠ ل.س، وكان رأســمالنا مــع الأربــاح فــي بدايــة ١٩٦٤ قــد وصــل إلــى ٧٠٠٠ ل.س أضفنــا إليــه ١٣٠٠٠ ل.س فأصبـح المجمـوع ٢٠٠٠٠ ل.س ممـا أعطانـا الفرصـة للتوسُّـع السـريع.

كانــت أربــاح حصــة رأس المــال عــام ١٩٦٤ مُجزيــة بلغــتْ نِســبتها ٢٧٪، أي أنَّ مـا حصـل عليـه والدُنـا فـي ذلـك العـام ٣٥١٠ ل.س بينمـا كان دخلـه فـي العـام الـذي سـبَق مرضـه ٣٠٠٠ ل.س، مقابـل رأسـماله وجُهـده طيلـة العـام، الأمـر الـذي جعلـه يتكلـم عـن هـذه النتيجـة

فـي كل مناسـبةٍ، ممـا حفَّـز بعـض أفـراد الأسـرة ممَّـن يملكـون فائضًـا مـن المـال للمسـاهمة فـي شـركتنا. وربمـا هـذه البـادرة تُشـجعني علـى القـول، بأننـا كنـا أوَّل مـنِ ابتكـر هـذه الطريقـة فـي الاسـتثمار فـي الصناعـة كشـركةٍ مسـاهمة مغفلـة وغيـر معلنـة تعتمـد علـى الثقـة المتبادلـة بيـن المستـثمر وشُـركائه، مـا شـجَّع علـى الاسـتثمار فـي المَعامـل والورشـات الصناعيـة.

عـام ١٩٨٤ انفصلـتُ عـن إخوتـي وأصبحـتْ شـركتي مسـتقلةً، يتألـف رأسـمالها مـن رأسـمالي الشـخصي ورأسـمال المسـتثمرين مـن أصدقائـي وأقربائـي. وحتـى بدايـة عـام ١٩٩٠ كانـت القاعـدة ألا يتجـاوز رأسـمال المسـاهمين ٥٠٪ مـن إجمالـي رأسـمال الشـركة.

قبـل حوالـي الشـهرين مـن صـدور القانـون ٨ لعـام ١٩٩٤ المتعلِّـق بجامعـي الأمـوال، دُعيـتُ لاجتمـاعٍ فـي مكتـب وزيـر الاقتصـاد حضـره وزيـر الماليـة وحوالـي ١٢ مـن رجـال الأعمـال، وقـدَّم السـيد وزيـر الاقتصـاد خلالـه أمثلـةً عـن حـالات التلاعـب عنـد بعـض مَـن يسـتثمرون أمـوالَ الغيـر بسـوء نيـة فـي حلـب ويدفعـون أرباحًـا خياليـة لا يمكـن الاقتنـاع بأنهـم يحققونهـا، مُبدِيًـا رغبتـه فـي الوقـوف علـى مـدى حجـم هـذه الظاهـرة فـي دمشـق، وبـدأ بسـؤالنا كلٌّ علـى حـدة، إذا كان لدينـا اسـتثمارات للغيـر. وكان جـواب مَـن سـألهم قَبلـي الإنـكار، وعندمـا جـاء دوري قلـتُ: نعـم، لـديَّ أكثـر مـن ٢٥٠ مليـون ل.س، وإننـا شـركة مسـاهمة وطنيـة منـذ عـام ١٩٦٣ أي منـذ أكثـر مـن ثلاثيـن عامًـا.

وفعـلًا صـدر القانـون رقـم ٨ بتاريـخ ٢٠ حزيـران ١٩٩٤، وقـد وضعتْـني بنـوده واشـتراطاته أمـام مشـكلةٍ جديـدة، حيـث أنَّ تطبيقـه بحرفيتـه يعنـي تدميـر «شـركة ريـاض سـيف وماجـد الزايـد» (أديـداس) كأهـمِّ اسـتثمارٍ لـي، حيـث كان عـدد المسـاهمين في مجمـوع نشـاطي التجاري

والصناعي عند صدور القانون ما يُقارب الـ ٤٠٠ شخص، بينما وصل عدد عُمالها آنذاك إلى ١١٥٠ عاملًا؛ علمًا أن الشركة قامت بتصدير بضائع ومنتجات في عام ١٩٩٤ وصلت لمبلغ ١٠ مليون دولار إلى دول الاتحاد الأوروبي، كما فاقت مبيعاتها في السوق الداخلي ٥٠٠ مليون ليرة سورية.

نتيجةَ الثقة المتبادلة بيني وبين جميع المساهمين والتي بُنيَتْ على مدى عشرين عامًا من العمل المشترك، فقد وافقوا في نهاية عام ١٩٩٥ على عدم التقيُّد بالقانون ومنحوني فرصةَ ثلاث سنوات لإعادة رؤوس أموالهم، مما اضطرَّني في بداية عام ١٩٩٨ إلى بيع حصةٍ جديدة من شركة أديداس نِسبتها ٣٠٪ بحيث لم يبقَ لي فيها سوى ١٢٪ إضافةً إلى ٨٪ مُسجَّلة باسم ابني إياد المفقود ولا يمكن التصرف بها ما دام مصيره غير معروف.

في بداية عام ١٩٩٩ اضطرِرتُ أيضًا إلى بيع ما تبقَّى من حصتي في الشركة والبالغة ١٢٪، وذلك لسببين رئيسيين، الأول حاجتي الماسَّة لتسديد الْتزاماتي تجاه المساهمين، والثاني وهو الأهم، أنَّ وجودي في الشركة أصبح عبئًا ثقيلًا عليها لِمَا باتت تتلقَّاه من ضرباتٍ موجعة تُكبِّدها أفدح الخسائر المادية ولِمَا أصابها من أضرار نتيجة الحجوزات المتكرِّرة على حصتي فيها وعلى كل حساباتها في المصارف السورية.

لقد كان قراري بالانسحاب من «سيزا/أديداس» من أصعب القرارات التي اتخذتها في حياتي، لأنه خلال ستة أعوام من تأسيسها نمتْ علاقة روحية أبوية بيني وبين جميع العاملين فيها، ومنهم من تعُود علاقتي معهم إلى عام ١٩٨٠، ولأن فكَّ رباط هذه العلاقة المقدسة والمتميزة ليس بالأمر السهل.

لقـد سـعيتُ بـكل مـا أسـتطيع لضمـان حقـوق المسـاهمين وإعـادة أموالهـم، وارتضيـتُ لنفسـي أن أعيـش حيـاةً بسـيطة بالحـدِّ الأدنـى الـذي يوفـر لـي الكرامـة فبِعـتُ كل مـا يمكـن بيعـه حتـى بيتـي الـذي أعيـش فيـه وانتقلـتُ إلـى شـقة صغيـرة مُسـتأجَرة. وهنـا لا بـد لـي مـن التنويـه إلـى أنَّ مـا لقيتُـه مـن تفهـمٍ وتضامـن مـن قِبَـلِ الأكثريـة السـاحقة مـن المسـاهمين ومـا تلقَّيتُـه مـن دعـمٍ ومسـاعدة مـن الأهـل والأصدقـاء مكَّنانـي مـن الحفـاظ علـى كرامتـي ومِصداقيتـي التـي بـتُّ لا أملـك غيرهـا.

خـلال هـذه السـنوات كانـت التكاليـف الضريبيـة المُفتعَلـة تتصاعـد طـردًا مـع تصاعـد مواجهتـي لبرامـج الحكومـة والفسـاد وفضـح الأخطـاء والثغـرات التـي تكتـنفها. ففـي تاريـخ ١٢ آذار/مـارس ١٩٩٥ قـام وزيـر الماليـة محمـد خالـد المهاينـي بالإيعـاز إلـى مُعاونيـه بفـرض ضرائـب علـيّ، لا يقبلهـا عقـل ولا منطـق، بلغـتْ مـا يعـادل خمسـة عشـر ضِعفًـا ممـا يتوجـب علـيَّ دفعـه وبأثـرٍ رجعـيٍّ، ابتـداءً مـن عـام ١٩٨٨وحتـى تاريخـه، وبشـكلٍ مخالـف للقوانيـن الضريبيـة المعمـول بهـا ذاتهـا. مـع وضـع حجـوزاتٍ علـى ممتلكاتـي وممتلـكات أبنائـي. وقـد علمـتُ مـن أحـد معاونـي الوزيـر لاحقًـا، وكان مـن أصدقائـي، بـأنَّ الوزيـر كان يتصـل معـه فـي كل صبـاح ويبـدأ نهـاره بالاستفسـار عـن ملفاتـي الضريبيَّـة المُفتَعلـة ومـاذا تحقَّـق مِـن حجـوزات.

وبتاريـخ ١٤ أيلول/سـبتمبر ١٩٩٦، وزَّعـتُ علـى أعضـاء السـلطتَين التشـريعية والتنفيذيـة وغيرهـم مـن المُهتمِّيـن بالاقتصـاد، دراسـةً مُوسَّـعةً تحـت عنـوان: «الركـود الاقتـصادي فـي سـورية، الأسـباب والحلـول»، لاقـتْ حينهـا اهتمامًـا وانتشـارًا واسـعَين، وتـم نشـر العديـد مـن التحليـلات والتعليقـات عنهـا، منهـا مـا نشـرتْه دعمًـا لهـا جريـدة

نضال الشعب الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوري، أحد أحزاب «الجبهة الوطنية التقدمية»، بتاريخ ٢٦ شباط/فبراير ١٩٩٧ بقلم السيد محمد الجندي الذي ختم مقالته بالمقطع التالي: «كلُّ أنواع الخلل الاقتصادي المذكورة في نشرة السيد رياض سيف هي نتائج تفصيلية لكون إدارة الاقتصاد الحالية هي واقعيًّا غير وطنية، وأول خطوة للخروج من ذلك هي أن تعمل الإدارة السياسية على بناء إدارةٍ اقتصادية وطنية».

وفي تلك الفترة، طلب مقابلتي رئيس مجلس الوزراء محمود الزعبي في مكتبه، وعندما قمتُ بزيارته شاهدتُّ نسخةً من المقالة المذكورة على طاولته، وفاجأني بقوله: «هل أنت الوحيد الوطني ونحن لسنا وطنيين!» وذلك على الرغم من أنني لم أستخدم عبارة «الإدارة الاقتصادية غير الوطنية» كما وردتْ في المقالة، إلا أنني واجهتُ حربًا شعواء من رئيس الوزراء بالإضافة إلى حرب وزير المالية لعرقلة أعمالي بفرض مزيدٍ من الضرائب.

والحالة هذه، فقد وصل ما تُطالبني به دوائر المالية من ضرائب على بيع مخلفات العقود الروسية التي اضطُرِرنا إلى بيعها بأقل ١٠٪ من كلفتها، بالإضافة إلى فرض ضرائب عن تصنيع صادرات الإدخال المؤقت إلى الاتحاد الأوروبي عن أعوام ١٩٩٥/١٩٨٨ إلى مبلغ (٤٨,٥٧٦,٠٠٠) ل.س والمُعفاة أصلًا من الضرائب، لتستمر المضايقات الضريبية على ممتلكاتي وأعمالي حتى وصل مجموع ما تم فرضه على نشاطي الصناعي من ضرائب حتى عام ١٩٩٨ إلى مبلغ ١١٢ مليون ل.س قابلة للزيادة، باحتمال فرض ضرائب جديدة مُفتعلة. ثم تم إعلان بيع مكتبي بالمزاد العلني بتاريخ ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩٨ تلاه بعد ثلاثة أسابيع عرض مَعمل ابني جواد

للبيـع بنفـس الطريقـة. فضـلًا عـن أنَّ لجنـة الترشـيد الرسـمية قـرَّرتْ بجلسـتها المنعقـدة بتاريـخ ٢٣ حزيران/يونيـو ١٩٩٧ توقيـف اسـتيراد الأحذيـة لشـركة «ريـاض سـيف وماجـد الزايـد» المشـمولة بقانـون الاسـتثمار رقـم ١٠ ممـا كـبَّد الشـركة خسـائر ماديـة تزيـد عـن ٥٠ مليون ل.س. يُضـاف إلـى ذلـك توقـف شـركة أديـداس العالميـة عـن اسـتيراد الملابـس مـن شـركتنا نتيجـة القـرار المذكـور، وكان مجمـوع صادراتنـا فـي فتـرة السـماح باسـتيراد الأحذيـة وصـل إلـى (١,٣٣٥) مليـار ل.س، بينمـا لـم تتعـدَّ مسـترداتنا مـن الأحذيـة بنفـس الفتـرة (٤٤,٦) مليـون ل.س، أي نسـبة ٣,٣٤٪. ولـم يـؤدِّ قـرار المنـع من اسـتيراد الأحذية سـوى لفَـتح البـاب واسـعًا أمـام المُهرِّبيـن للحصـول عليهـا مـن لبنـان، بينمـا كانـت الدولـة تتقاضـى نسـبة ٥٧٪ مـن قيمـة مسـترداتنا مـن الأحذيـة كرسـومٍ جمركيـة.

(٣) اختِـفاءُ ابني إيـاد

فـي يـوم الخميـس الأول مـن آب ١٩٩٦، كان فـي برنامـج إيـاد، (ابنـي الأصغـر، مواليـد ١٩٧٥)، السَّـفر صبيحـة اليـوم التالـي، (الجمعـة ٢ آب)، إلـى بيـروت، لحضـور الاجتمـاع الـدوري مـع قسـم أديـداس للشـرق الأوسـط.

فـي السـاعة الثانيـة عشـر ظهـرًا مـن يـوم الخميـس، تلقَّـى مكالمـةً هاتفيـة يحثُّـه فيهـا المتكلـم بإلحـاحٍ علـى قضـاء يـوم الجمعـة ٢ آب ١٩٩٦ فـي اللاذقيـة، يـوم افتتـاح «مهرجـان المحبـة» هنـاك، بصحبـة بعـض الأصدقـاء. وقـد علمـتُ أنَّ إيـاد حـاول أن يعتـذر بشـتَّى الوسـائل ولكـنَّ إصـرار المتكلـم دفعَـه للرضـوخ فـي النهايـة ليُبـادر بإلغـاء موعـده فـي بيـروت ويسـافر فـي المسـاء مـع بعـض أصدقائـه إلـى اللاذقيـة.

فـي السـاعة الثالثـة والنصـف مـن بعـد ظهـر يـوم الجمعـة، ذهـب برفقة (ر.س) علـى موتـور مائـي (جيـت سـكي) وانقطعـتْ أخبارهمـا لفتـرة، فسـارع رفاقهمـا المتواجـدون علـى الشـاطئ للبحـث عنهمـا عبـر عـدة محـاولات، ثـم بصحبـة المسـؤولين عـن الشـاطئ الأزرق، وكان آخرهـا السـاعة السـابعة والربـع مسـاءً، لكـن مـن دون جـدوى.

دام الأمـر كذلـك إلـى أن حلَّـت السـاعة التاسـعة والنصـف ليـلًا، حيـث شُـوهد (ر.س) وهـو عائـد إلـى الشـاطئ الأزرق مُلوِّحًـا بنظَّارته الشمسـية ولا يبـدو عليـه أيُّ انفعـال، وعندمـا سـأله رفاقـه عـن إيـاد، وسـارعوا للقـول بأنـه لـم يعـد حتـى الآن، حـاول إظهـار الحـزن وقـال مـا معنـاه أنـه مـات. فـي تلـك اللحظـة، ومـن الصدمـة فقـدتْ إحـدى الشـابَّات الحاضـرات، وهـي مـن صديقـات العائلة، وعيَـها. وحسـب روايتـه، فإنهما سـارا، إيـاد وهـو، فـي عـرض البحـر بسـرعة ٧٠ كـم وبخـطٍّ مسـتقيم ربع سـاعة، ثـم انطفـأ المحـرك لنفـاذ الوقـود قبالـة أبنيـةِ الدراسـات، وبقِـيا ينتظـران تحـت أشـعة الشـمس حتـى السـاعة السـابعة والنصف ولـم يمرَّ بهمـا أحـد (عِلمًـا بـأنَّ الشـاطئ كان يعـج بمئـات القـوارب والموتـورات المائيـة بمناسـبة افتتـاح «مهرجـان المحبـة») فقـرَّرا السـباحة إلـى شـاطئ الدراسـات وبعـد أن سـبحا سـويَّةً لمـدة ربـع سـاعة، سـمع (ر.س) صـوت إيـاد يُخبـره بأنـه متعـب ولا يقـوى علـى المتابعـة، وادَّعـى أنـه تابـع السـباحة مُنفـردًا إلـى الشـاطئ مُتوقعًـا وصـول إيـاد بعـده.

والحقيقـة أنَّ إيـاد كان سـبَّاحًا ماهـرًا وذو بنيـةٍ رياضيـة قويـة، والـذي يعـرف طبيعتـه لا يمكـن أن يُصـدِّق هـذه الروايـة بأنهمـا انتـظرا سـاعات طويلـة مـن دون مـرور أيِّ قـارب بجوارهـم فـي يـوم افتتـاح «مهرجـان المحبـة»، ولا سـيَّما أن أصدقـاءه ذهبـوا فـي قـاربٍ للبحـث عنهـم فـي نفـس المنطقـة التـي وُجِـد فيـه الجيـت سـكي الـذي كانـوا يركبونـه،

وتبيَّـن عنـد فحصـه أنَّ كميـة البنــزين فيـه كانـت كافيـةً للسـير لمسـافة طويلـة.

عندمـا علمـتُ بالحادثـة صبـاح السـبت ٣ آب/أغسـطس ١٩٩٦، توجهـتُ إلـى اللاذقيـة وذهبـتُ إلـى قسـم شـرطة اللاذقيـة والْتـقيتُ بـكل رفاقـه الذيـن كانـوا هنـاك وكانـت قناعتـي حينهـا، أنـه حـادث عرضـيٌّ ولا يوجـد أي دليـل علـى أي جـرم. وكان قاضـي التحقيـق المشـهود لـه بالنزاهـة قـد أوقـف (ر.س) فذهبـتُ للقاضـي وطلبـتُ إطـلاق سـراحه. دُهِـشَ القاضـي لطلبـي وقـال لـي: هـل أنـت متأكـد؟ هـل لديـك مـا يكفـي مـن المعلومـات لاتخـاذ هـذا القـرار؟ ثـم اسـتدعى ابنـي جـواد ليقـول لـه: «أخطـأ أبـوك خطـأ كبيـرًا». ولِعلمكـم، فـإنَّ هواتـف التوصيـة بالمدعـو (ر.س) مـن قِبَـلِ رجـال الدولـة لـم تتوقَّـف لثانيـة مـن لحظـة توقيفـه. بعـد أن أسـقطتُ حقـي جاءنـي شـابٌّ مـن عائلـة مخلـوف ليُعزِّينـي وليقـول لـي إنـه صديـق إيـاد وإنـه لـم يكـن يـوم الحادثـة بالـذات فـي اللاذقيـة مـع بقيـة الرفـاق، وقـد أثـار انتـباهي رغبتـه فـي إبلاغـي شـخصيًّا بـ«أنـه لـم يكـن موجـودًا يـوم الحادثـة».

قامـت الحوامـات ورجـال الضفـادع بالبحـث فـورَ انتشـار الخبـر بشـكلٍ اسـتعراضيٍّ لإظهـار الاهتمـام، ولكـن دون أن تجـد أيَّ أثـر، ومـع ذلـك توقـع الخبـراء ظهـور الجثـة خـلال أيـام وربمـا بعـد أسـابيع نتيجـة تغيُّـر التيـارات البحريـة. وقمـتُ بإعـلام سـلطات خفـر السـواحل التركيـة، كمـا عمَّمـتِ السـلطة السـورية الخبـر علـى كل المرافـق البحريـة، ولكـن لـم تظهـر الجثـة ومـا زال الغمـوض يكتـنف قصـة اختفـاء ابنـي إيـاد حتـى الآن.

لا يمكـن أن أنسـى روح إيـاد المسـالمة فـي طفولتـه وحِسـه الإنسـاني وعلاقاتـه المميـزة والمُحببـة مـع الموظفيـن والعامليـن بالشـركة، مثلمـا

لا يمكـن أن أنسـى حالـة الاضطـراب والقلـق التـي انتابتـه قبـل فتـرة أسـبوعين أو ثلاثـة مـن حادثـة اختـفائه، حيـث كان يأتـي إلـى عملـه متأخـرًا علـى غيـر عادتـه وعندمـا نبهتُـه علـى ذلـك بادرنـي، وقبـل يـومٍ واحـد مـن الجريمـة، قائـلًا: «يجـب أن تعلـم أنَّ روحـي فـداك»، ربمـا لشـعوره أو لسـماعه بـأنَّ ثمـة خطـرًا يتهدَّدنـي.

وقـد عرفـتُ لاحقًـا مـن أحـد أصدقائـه أنـه اشـترى مسدسًـا كان يحملـه معـه أينمـا ذهـب، علـى الرغـم مـن أنَّ حمـل السـلاح غيـر واردٍ فـي العائلـة، وعلـى الرغـم مـن أنـه بطبيعتـه إنسـانٌ مسـالم لـم يلجـأ إلـى العنـف فـي حياتـه.

واسـتنتاجي الشـخصي الآن، وبعـد مـرور أربعـة وعشـرين عامًـا، ومـن خـلال كل التفاصيـل التـي جُمعَـتْ عـن الحادثـة، بأنهـا كانـت عمليـة اغتـيالٍ مُدبَّـرة مـن رؤوس الفسـاد لـثَنيِـي عـن معركتـي ضدهـم وضـد فسـادهم، أو يـراد منهـا الانتقـام مِنِّـي وإرسـال رسـالة واضحـة عمـا يمكـن أن يفعلـوه بـي إن اسـتمررت فـي محاربتهـم.

نعـم، لقـد انتـزعوا مِنِّـي أصغـر أولادي الثلاثـة، فـي نفـس الوقـت الـذي بـدأتْ فيـه الحـرب الضريبيـة، وفـي ظَنهـم أنهـم بذلـك يكسـرون إرادتي، ويُثْـنونني عـن مواجهتهـم وفضـح فسـادهم وتسـلطهم، لكـنَّ كل ذلـك إنمـا زادنـي اقتناعًـا وتصميمًـا علـى الاسـتمرار فيمـا بدأتُـه.

الفصل الرَّابع

انـتـخابات الدَّوْر التَّشريعيِّ السَّابع

بيضاء في الأصل

مع انتهاء الربع الأول من عام ١٩٩٨، لم أعد أحتمل ضربات الحكومة المُوجِعة المتعددة الوجوه، ما اضطرَّني لاتخاذ قرار الاعتكاف والانسحاب من الشأن العام، مُقدرًا أنني سوف أدفع أثمانًا باهظة من جديد من دون ثمارٍ أو جدوى، وأنَّ دوري في مجلس الشعب لم ولن يُحدِث فارقًا كما كنتُ آمل، خاصَّة وأنَّ أوضاع البلاد كانت تسير من سيئٍ إلى أسوأ، فالتدهور الاقتصادي يزداد، والفساد ينمو، والظلم والعوز يطالان شرائح أوسع وأوسع. لكنَّ الجديد أنَّ هذا الإحباط لم يدم طويلًا، فقد اخترقَتْه، بدايةً، موجةُ الترويج لبشار الأسد كخليفةٍ لرأس النظام وتضخيم توجُّهاته الإصلاحية، حتى صار الشارع يتداول قِصصًا وحكايات عن تصدِّيه لبعض حالات التمييز والفساد أو لمبادراته في إعادة الحقوق لبعض المظلومين. وكثيرًا ما كان الخيال الشعبي المُتعطِّش للإصلاح والعدالة يبالغ في التفاصيل أثناء سرد تلك الحكايات والقصص، ما أثار جوًّا من التفاؤل النِّسبي بوجود فرصةٍ لتغييرِ ما هو قائم.

وما عزَّز تأثير هذا المناخ في نفسي، هو التغيير الواضح والمفاجئ في تعامل وسائل الإعلام معي. وكانت البداية بمبادرةٍ غريبة ومفاجئة بعد سنواتٍ من المحاربة والتغييب، حين تقدَّم صحفيُّون عاملون في صحيفة **تشرين** الرسمية بإجراء حوارٍ صريحٍ ومُطوَّل

معي، تم نشره في ملحق الصحيفة الأسبوعي، بتاريخ ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٩٨، وعلى صفحتَين كاملتين[١] مع صورةٍ كبيرة لي وتنويهٍ بأهمية هذا الحوار في الصفحة الأولى. وأرجِّح أنَّ الأمر لم يأتِ من بنات أفكارهما، بل جاء بتوجيهٍ من الصف الأول من المسؤولين، حيث لم يتم حذف أية كلمة منه، واختارا له عنوانًا مُشوِّقًا: «حوارٌ ساخن مع رياض سيف».

ثم بعد فترةٍ وجيزة، عرض التلفزيون السوري بالصَّوت والصورة، وللمرة الأولى بعد أربع سنوات من التعتيم الكامل على ظهوري في تلفزيون الدولة، مُداخلتي في مجلس الشعب حول الجدوى الاقتصادية لزراعة القطن[٢] من دون أن يحجبَ ما دار في تلك الجلسة من نقاشٍ حادٍّ بيني وبين كلٍّ من رئيس الوزراء ووزير الزراعة ورئيس اتحاد الفلاحين. وتعزَّز الأمر بنشر صحيفة **تشرين** ذاتها، وعلى صفحةٍ كاملة، تفاصيل نفس الحوار الذي بثَّه التلفزيون. وفي إشارةٍ لافتة أخرى، أدرج الكاتبان رياض عواد وجهاد الأحمر إحدى الدراسات التي كنت قد نشرتُها سابقًا بعنوان: «الإدارة هي وحدها المسؤولة عن النتائج» ــ أدرجاها كخاتمةٍ لكتابٍ أصدراه بعنوان «الحقيقة القومية والاستراتيجية الديمقراطية في فكر حافظ الأسد».

وقد ترافق هذا التغيير الواضح في تعامل وسائل الإعلام مع ما أقوله وأكتبه، مع الحديث عن انتخاباتٍ ديمقراطية للدور

---

(١) تمَّ حذف كلِّ ما يتعلَّق برياض سيف من موقع صحيفة **تشرين** الإلكتروني.

(٢) رياض سيف، «الجدوى الاقتصادية الوطنية لإنتاج القطن في سورية»، دمشق، مجلس الشعب، ٢٥ أيار/مايو ١٩٩٩.

https://bit.ly/3c04x01

التشـريعي السـابع وضـرورة إصـدار البطاقـات الانتخابيـة لضمـان نزاهـة الاقتـراع، وأقاويـل عـن خطـواتٍ أخـرى ستُـتَّخذ علـى طريـق تفعيـل «الديمقراطيـة». بالإضافـة لذلـك وللظـروف المُسـتجدَّة التـي رافقـتْ تقـدم دور بشـار الأسـد كشـخصٍ يُعلـن ضـرورة الإصـلاح، زاد إلحـاح الأصدقـاء مـرة أخـرى علـيّ، فـكان لـكل مـا سـبق كبيـر الأثـر علـى موقفـي، وشـجَّعني لإعـادة النظـر فـي قـرار اعتكافـي وللتراجـع عـن رغبتـي فـي الانسـحاب مـن الشـأن العـامّ، والعـودة، لترشـيح نفسـي مـرة أخـرى وخـوض هـذه التجربـة مـن جديـد، وذلـك علـى الرغـم مـن مـرارة مـا كابدتـه وعانيـتُه، آمـلًا، إن نجحـتُ، فـي تخفيـف مـا يمكننـي مـن التمييـز والمظالـم مُتوسِّـلًا خبرتـي وتجربتـي الأولـى فـي المجلـس السـابق.

ولكـن بعـد أنِ اتخـذتُ قـرار خـوض الانتخابـات، بقيَـتْ أمامـي مشـكلة تمويـل الحملـة الانتخابيـة التـي تبلـغ فـي حدهـا الأدنـى أربعـة ملاييـن ليـرة سـورية. ولحُسـن الحـظ فـإنَّ انتشـار خـبر قـراري الجديـد بيـن العامليـن فـي الشـركة شـجَّع الغالبيـة العظمـى منهـم علـى المبـادرة إلـى التـبرُّع، فجمعـوا ٦٢٥,٠٠٠ ل.س، وكان ذلـك بمثابـة إشـارةٍ إيجابيـة لفَتـح البـاب أمـام حملـة تبرعـاتٍ شـارك فيهـا أفـرادُ العائلـة بكُلفـة طعام الـوكلاء خـلال يومـي الانتخـاب، حيـث بلغـتْ حوالـي ١,٨٠٠,٠٠٠ ل.س. وكذلـك كان تجـاوُب بعـض الأصدقـاء الصناعيِّيـن كبيـرًا ومشـجعًا هـو الآخـر، حيـث تبـرَّع أحدهـم بطباعـةٍ مجانيـة لكافَّـة المنشـورات اللازمـة، وحينهـا قدَّمـتُ ترشـيحي بقـوة وإصـرار، مُصممًـا منـذ البدايـة علـى أن تكـون حملتـي الانتخابيـة جريئـةً وواضحـة وتتـناول معالجـةَ مختلـف القضايـا الاقتصاديـة والاجتماعيـة المُلِحَّـة، غيـر عابِـئٍ بالنتيجـة، مُتسـلِّحًا بالخبـرة التـي اكتسـبتها خـلال السـنوات الأربـع الماضيـة، ومُسـتندًا إلـى مـا حققـتُه مـن تأييـدٍ ومصداقيـة فـي المجتمـع.

بعـد تسـجيل ترشُّـحي وقبولـه، حضـرتُ الاجتمـاع الـذي يُقـام علـى مُـدرج غرفـة تجـارة دمشـق لإعـلان بَـدء الحملـة الانتخابيـة مـن قِبَـلِ أميـن فـرع حـزب البعـث ومحافـظ دمشـق، وقدَّمـتُ عنـد فتـح بـاب الحـوار، مداخلـةً تعبِّـر دون مواربـة عـن الوضـع المأسـاويِّ الذي نعيشـه وضـرورة جعـل الـدور التشـريعي القـادم بدايـةً لمرحلـة جديـدة مـن الإصـلاح والانتقـال إلـى عهـدٍ نُواجـه فيـه الحقيقـة ونعيـد بنـاء مـا تهـدَّم. فمـا كان مـن أميـن فـرع حـزب البعـث إلا أن تصـدَّى لـي وهاجمنـي، واتَّهمنـي بالخيانـة والسَّـعي للتطبيـع مـع إسـرائيل.[٣]

لـم أُفاجَـأ كثيـرًا لأنـي أعـرف أنَّ الاتهامـات فـي دولـة البعـث دومًـا دون دليـلٍ، وكل انتـقادٍ للسـلطة هـو حسـب وعيهـم «عِمالـةٌ للخـارج». وكان التحـدي بالنسـبة لـي كبيـرًا، حـرَّض كل مـا عنـدي مـن قـوة للاسـتمرار بتأديـة واجبـي الوطنـي والاجتماعـي والأخلاقـي، وشـجَّعني علـى الانفتـاح والمشـاركة فـي مختلـف الحـوارات والتفاعـلات، وحفَّـز رغبتـي فـي الاسـتمرار كنائـبٍ يُدافـع عـن مصالـح النـاس وحاجاتهـم، فلـم أتراجـعْ عـن ترشـيحي علـى الرغـم مـن نصيحـة بعـض الأصدقـاء المُقرَّبيـن بالانسـحاب بعـد سـماعهم مـا دار فـي اجتمـاع غرفـة التجـارة.

اسـتكملتُ مسـار العمليـة الانتخابيـة كمـا ينـصُّ قانـون الانتخـاب، وسـلَّمتُ ثـلاث نسـخٍ مـن بيانـي الانتخابـي،[٤] إلـى رئيـس الدائـرة القانونيـة فـي المحافظـة ظهـر يـوم الخميـس، فطلَـب منـي علـى الفـور ضـرورة التريُّـث فـي نشـر البيـان ريثمـا أحصـل علـى موافقـةٍ خطِّيَّـة،

---

(٣) ريـاض سـيف، «تجربتـي فـي مجلـس الشـعب: أوهـام الديمقراطيـة فـي ظـل الاسـتبداد (١)»، **السَّـفير** اللبنانيـة، ١٨ نيسـان/أبريل ٢٠٠٧.

https://bit.ly/33uHWot

(٤) رياض سيف، نصُّ البيان الانـتـخابي للدور التـشـريعي السابع.

https://bit.ly/3ix6CDe

استنادًا إلى «عرفٍ وتقليد» يتم التعامل بمُوجِبه مع مثل هذه البيانات التي تتضمن انتقادًا لسياسة الحكومة مهما كان شكل هذا الانتقاد ومضمونه، فلم أكترث لطَلبه لأنه لا يستمد قوته من القانون. وباشرتُ بتوزيع البيان الانتخابي بكثافة، وأنجزتُ تعليق ١١٠٠ لافِتة في غضون ليلة الخميس ويوم الجمعة، تضمَّنتْ ٢٥ شعارًا، منها:

- «تعالوا نحقق الرفاه في وطن الأمن والأمان»،
- «الانتماء للوطن فوق كل انتماء»،
- «لنجعلْ سورية مكانًا مُحبّبًا للعمل»،
- «وحدتنا الوطنية نعمة فلنحافظ عليها»،
- «تعالوا نتعلم كيف نختلف ونصغي للآخر»،
- «مزيدٌ من الديمقراطية لمزيد من التقدُّم»،
- «الصناعة المتطورة صمام أمانٍ لمستقبلنا»،
- «تعالوا نحرر كل طاقاتنا الكامنة»،
- «لا قدسيةَ للتعليم إلا بقدسية المعلم. ولا قدسية للقضاء إلا بإنصاف القاضي»، وغيرها.

أما برنامجي الانتخابي فقد ختمتُه بسبعة مطالب في مواجهة الواقع المُتردِّي:

«(١) إصدار القوانين اللازمة لإنعاش اقتصادنا، ليكون أقدر على توفير فُرص عملٍ منتجٍ يساهم بزيادة موارد الخزينة.

(٢) التخلص من تراكمات البطالة المُقنَّعة وتحويل الفائض من مُوظَّفي الدولة إلى الأعمال المنتِجة في القطاع الخاص.

(٣) تحصين المال العام من الهدر والاختلاس، وتحويل المبالغ

الضائعة لتكون مصدر دخلٍ للخزينة يساعدها على رفع الرواتب.

(٤) إيجاد نظامٍ ضريبيٍّ عادل يُفعِّل النشاط الاقتصادي ويُضاعف إيرادات الخزينة من الضرائب العادلة.

(٥) وَضع برنامج لرفع الرواتب لتصل إلى نقطة التوازن مع التكاليف المعيشية خلال خمس سنوات.

(٦) إعادة المنطق السليم إلى الفَرق بين الحدِّ الأدنى والحدِّ الأعلى للراتب، والذي انخفض من سبعة أضعافٍ عام ١٩٦٢ إلى ٢,٧ ضعف في وقتنا الحاضر، مما سبَّب الإحباط لدى النخبة المثقفة من أبنائنا وشكَّل نزيفًا خسرتْ نتيجتَه مؤسساتُ الدولة الكثير من أصحاب الخبرات العالية.

(٧) القيام ببرنامجٍ مكثَّف للتدريب والتأهيل لمُوظفي الدولة، وإدخال المعلوماتية لجميع دوائر الدولة وربط ترفيع الموظفين بما يكتسبونه من مهارات جديدة، وإلغاء سقف الرواتب لأنَّ إمكانيات الإنسان وإبداعه لا سقف لها».

وفي صباح السبت استدعاني محافظ مدينة دمشق ليُبلغني بأنَّ ما فعلتُه أمرًا خطيرًا ولا يمكنهم السكوت عنه، وقدَّم لي نسخةً من بياني الانتخابي عليها مِساحات مُظلَّلةٌ طالبًا شطبها أو استبدالها، فأعلمتُه أنَّ التغيير لم يعد ممكنًا بسبب توزيع أعداد كبيرة من البيان، فسارع لمُطالبتي بإزالة معظم شعارات حملتي الانتخابية من الشوارع، وخاصَّة شعار «الانتماء للوطن فوق كل انتماء». وبعد جدالٍ دام أكثر من ساعتين لم نتفق على طريقةٍ لمعالجة هذه النقطة الخلافية.

وفي محاولةِ الإفادة، من الترويج السُّلطويِّ للإصلاح ولدور بشار

الأسد على هذا الصعيد، أعددتُّ على عجلٍ بعض النسخ من برنامج حملتي الانتخابية دون أيِّ تبديل أو تعديل، وسلَّمتُها إلى مكتب بشار الأسد، في جبل قاسيون حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا. وفي الساعة السابعة من مساء نفس اليوم، أبلغَني مدير مكتب الأمين القطري المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي الدكتور سليمان قداح، بأنَّ لي كامل الحرية في متابعة حملتي الانتخابية كما أُريد ولن يتعرَّض لي أحد.

لقد وفَّر لي ذلك غطاءً للقيام بحملة انتخابية جِدِّية انطلاقًا من برنامجٍ يُلامس هموم الناس، خلافًا لما جرتْ عليه العادة في انتخابات مجلس الشعب، ونبَّهني وحرَّضني على ضرورة الخروج من الطرق التقليدية والمُبتذلة في الحملات الانتخابية والمبادرة لأنشطةٍ تؤكد احترام عقول الناخبين، فطلبتُ من الدكتور عمر أبو زلام الذي كان يُقيم في منزله جلساتٍ حواريةً تحت اسم «المنتدى الحضاري» ــ مساعدتي في إقامة جلساتٍ مشابهة ولكنها مفتوحة للنقاش العامّ، وذلك في مضافتي المُخصَّصة للحملة الانتخابية. ولم يتردَّد الرجل أو يتوان عن تقديم كل خبرته في إدارة هذا النوع من النشاط وفي استنفار كل علاقاته لإنجاح جلسات الحوار الوطني تلك، والتي تناولتْ عددًا من أهم المواضيع التي تُلامس هموم وآمال وتطلُّعات الشعب السوري. حيث أقيمتْ بنجاحٍ كبير تسع جلسات للحوار في مضافتي الواسعة، كان أهم عناوينها: «اقتصادنا وتحديات المستقبل»، «الصناعة المتطورة صمام أمان لمستقبلنا»، «ثروتنا البشرية»، «الوحدة الوطنية»، «أهمية الإدارة»، «شفافية القوانين»، «المُعاقون»، «الصحة»، «البيئة».

وكانت المفاجأة حضورَ المئات من المهتمين، من المثقفين

والسياسيين، فضلًا عن المواطنين العاديِّين والمُستقلِّين، حيث انطلقتْ ألسنة المُتداخلين والمشاركين من عِقالها في مداخلاتٍ جريئة وغير مسبوقة، غرضها توسيع الهوامش الموجودة إلى أبعد مدى من دون استفزازاتٍ أو صدامٍ أو تشنُّجٍ، مما دعا أحد الصحفيِّين إلى التعليق بأنها: «حواراتٌ تحت الخيمة الرئاسية»[٥] حيث تمكَّن الجميع من خلال هذه الفسحة الحوارية من امتلاك الشجاعة والعزم اللازمَين، وممارسة انتقاداتٍ جريئة وحازمة.

ولكنَّ قيادات الحزب الحاكم الوسيطة ومسؤولي نقابات وأجهزة الأمن وبعض الوزراء قاموا بحملةٍ مركزة ضِدِّي كلٌّ في مجاله بغية محاصرتي وإفشالي، منها إقدام وزير المالية محمد خالد المهاينيي، قبل أسبوع من الانتخابات، على إقامة الحراسة المالية على شركة أديداس في فترة الانتخابات (التي كنتُ أحد مالكيها وأتولَّى إدارتها)، إذ أرسل إلى الشركة اثنين من موظفي وزارة المالية مع عددٍ من عناصر الشرطة، كي يُقيموا فيها خلال ساعات العمل لمُصادرة وارداتها النقدية. ثم، قبل ٤٨ ساعة من يوم الانتخاب، أي بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨ وفي ذروة الحملة الانتخابية نشرتْ جريدة **تشرين** في صفحةٍ رئيسية

---

(٥) وأُطلِقَ على هذه الحوارات اسم «جلسات الحوار الوطني» واستمرَّتْ على مدى ٩ جلسات بحثَتْ في الشأن السياسي والاجتماعي والحقوقي والبيئي بجرأةٍ نادرة، وبإدراك مميز، في الوقت نفسه، لحدود السقف الذي على هذه الحوارات ألا تخترقه، وهو ما أسماه أحد الصحفيين البارزين حينها «حوارات تحت الخيمة الرئاسية» حيث كان الرئيس حافظ الأسد ما زال على قيد الحياة.

وائل السواح، «مقدِّمات الثورة السورية (٤) ـ ربيع دمشق: خطوةٌ واثقة على أرضٍ غير مستقرة»، **صفحات سورية**،١٠ آب/أغسطس ٢٠١٨.

https://bit.ly/3miWEYp

http://ixiria.alsafahat.net/2018/08/10/

وبأحـرفٍ بـارزة إعلانًـا عـن بيـع مكتبـي المُخصَّـص لنشـاطات مجلـس الشـعب، فـي المـزاد العلنـي بحُجَّـة تحصيـل ضرائـب غيـر مُسـدَّدة.[٦] وكان لِزامًـا علـيَّ أن أناضـل علـى كل الجبهـات وأتـرك لصناديق الاقـتراع القـول الفصـل.

ويبـدو أنَّ الجهـة المسـؤولة عـن إدارة الانتخابـات فـي مدينـة دمشـق كانـت واثقـةً مـن نجاحهـا فـي محاصرتـي وإسـقاطي، وكانـت تتوقـع أنَّ عـدد الأصـوات التـي سـأحصل عليهـا، لـن يتعـدى الثمانيـة آلاف فـي أحسـن الأحـوال. لكـن النتيجـة فاجأتهـم وحصلـتُ علـى ١٨٤,٥٠٠ صـوت، مُوزَّعـة بنِسَـبٍ متفاوتـة علـى جميـع المراكـز المنتـشرة فـي مدينـة دمشـق. ففـي منطقـة الدويلعـة حصلـتُ علـى نسـبة ٦٠٪ مـن مجمـوع الأصـوات بينمـا كانـت النسـبة فـي حـي الميـدان الـذي ولـدت فيـه بحـدود ٢٥٪، وكذلـك فـي القصّـاع.

ووصلـتِ النسـبة فـي منطقـة العريـن حوالـي ٢٠٪ بسـبب النشـاط المميَّـز الـذي قـام بـه عامـلات وعمـال الشـركة الذيـن يقطنـون فـي هـذا الحـي، علـى الرغـم مـن حصـول بعـض حـالات التـزوير الأكيـد. ولكـي أُوثِّـق مـا لاحظتـه مـن تلاعـبٍ فـي عمليـة فـرز الأصـوات، طالبـتُ بإعـادة فـرز الأصـوات فـي صنـدوقٍ، نتيجـةَ شـكوى قدَّمَـتْها مندوبتـنا فـي «ثانويـة بهجـت البيطـار»، لتكشـف عمليـةُ إعـادة العـدِّ، أنَّ عـدد الأصـوات التـي انتخـبتني كانـت ٣٢٠ صوتًـا وليـس ٢٤٠ صوتًـا كمـا ادَّعـتْ نتيجتهـم المُسـجَّلة والمعلنـة فـي الفـرز الأول. وتبيَّـن أيضًـا أنَّ عـدد الأصـوات الممنوحـة والمسـجلة لأحـد المُرشَّـحين الآخريـن تزيـد

(٦) ريـاض سـيف، تجـربة ريـاض سـيف: «همـومٌ فـي الصـناعة والسـياسـة»، دمشـق، ٢٣ أيلول/سـبتمبر ١٩٩٩، لا ذكـر لناشـر، ص ٣٧.

https://bit.ly/2Rt8mBt

سبعين صوتًا عن العدد الفعلي الذي ناله. وكل ذلك أثبتُّه بمحضرٍ رسمي في محافظة مدينة دمشق.

وقد أبدى محافظ دمشق استعداده لفَتح أية صناديق أخرى إذا رغبتُ بذلك، ولكنَّ النتائج بدأت بالظهور وكانت الأصوات التي حقَّقتُها تؤكد فوزي في المراتب الأولى وأنَّ ما خسرته من أصواتٍ بسبب التلاعب لم يعد له من الأهمية التي تستدعي خلق مشكلةٍ كبيرة أو تأخير عمليات الفرز النهائي، حيث كان الوقت متأخرًا في ليلة فرز الأصوات والناس مُرهقون، فقرَّرتُ التنازل عن حقي.[٧] ومن المعلوم أنَّ عدد الصناديق في المحافظة يبلغ ١٠٠١ صندوق، الأمر الذي يوضح حجم التزوير أثناء العدِّ أو التسجيل الذي يحتكره عادةً موظفون من أعضاء حزب البعث الحاكم، وبالتالي دورهم المُتواطئ في حذف وإنقاص عدد الأصوات التي يحصل عليها مرشحون لا تَرضى عنهم السلطة وزيادة أصوات مرشحين آخرين، تريدهم السلطة أن يكونوا في برلمانها الجديد. وأوضح مثالٍ على ذلك تجربة الدكتور عارف دليلة، عميد كلية الاقتصاد السابق، ذي الشعبِيَّة الواسعة والمشهود له بمواقِفه الجريئة في محاربة الفساد والمطالبة بالإصلاح الاقتصادي، والذي سخَّرت الدولة كل أجهزتها الأمنية وأدواتها لمَنع وصوله إلى مجلس الشعب.

(٧) المرجع السابق، ص ٤١.

الفصل الخامس

انطلاقة جديدة
وقضايا ساخنة تحت الأضواء

بيضاء في الأصل

(١) التَّفَرُّغ للشأن العامّ

كان عـام ١٩٩٩ آخـر عهـدي مـع العمـل الصناعـي والتجـاري بعـد أن بِعـتُ آخـر حصـةٍ لـي فـي «شـركة أديـداس»، وقـرَّرتُ التفـرغَ للشـأن العـامِّ والخـوضَ فـي القضايـا الهامـة التـي تُؤثِّـر علـى حيـاة السـوريين وتمَـسُّ كرامتهـم ومسـتقبل أولادهـم وتحفـظ البيئـة والثـروة الوطنيـة. فـكان مـن صُلـب اهتماماتـي مواضيـع اعتـبرتُها حسَّاسـةً وخطيـرة، منها: دراسـة مضـارِّ الاسـتمرار فـي زراعـة القطـن، الـذي سمَّيـتُه العـدو الأول للشـعب السـوري، حيـث مَلَّـحَ الأراضـي وجفَّـف الينابيـع وكبَّـد ميزانيـة الدولـة خسـائر فادحـة. وكشـفتُ مـا رافـق هـذه العمليـة مـن تضليـلٍ للإيهـام بـأنَّ زراعـة القطـن مصلحـة وطنيـة. ومنهـا قضيـة الخلـوي الـذي يُفـترض أن يوفِّـر دخـلًا هامًّـا لخزينـة الدولـة دون عنـاءٍ أو تلـوث للبيئـة. ومنهـا: حاجتنـا الماسَّـة لبنـاء صناعـة متطـورة توفِّـر فـرص عمـلٍ شـريف وتكـون قاطـرةً للاقتصـاد، بمـا فـي ذلـك الدفـاع عـن القطـاع الخـاص الصناعـي المنـتِج والسـعي لتوفيـر المنـاخ المناسـب لانتعاشـه وإزالة كل العراقيـل التـي تُعيـق نمـوه وتقدمـه.

وأرى أنَّ مـن حـق كل مواطـنٍ سـوري الوقـوف علـى أسـباب مـا لحـق بـه مـن ظُلـمٍ نتيجـة تبديـد المـال العـام وسرقـته، وسـوف أقـدم أمثلـةً

لدراساتٍ قمتُ بها خلال الدور السابع لمجلس الشعب حتى دخولي السجن في أيلول ٢٠٠١، كدراساتي عن القطاع الخاصّ الصناعي والتصدير وأيضًا عن زراعة القطن ثم عن صناعة النسيج والخيوط الصناعية، وأهمها عن عقود الخلوي.

(٢) وقفةٌ مع التصدير

والإدخال المؤقَّت وتقزيم القطاع الخاص الصناعي

كانت السياسة الاقتصادية للسوق الأوروبية المشترَكة في السبعينيّات تدعم برامج التصنيع في عددٍ من الدول، منها تركيا والمغرب وتونس ويوغوسلافيا، وهذا الدعم أصبح يُشكِّل جزءًا أساسيًّا من اقتصادات كلٍّ من هذه الدول النامية، بهدف إيجاد مُصنِّعين لمنتجاتهم خصوصًا مع ارتفاع مستوى المعيشة وصعوبة المنافسة، نتيجة ارتفاع كلفة الإنتاج في أوروبا.

وكان دعم برامج التصنيع باتفاقياتٍ عقدَتْها أوروبا مع تلك الدول، توفر المزايا اللازمة لتمكين القطاع الخاص الصناعي من اكتساب الخبرة، وإنشاء مصانع خاصَّة بقصد التصدير إلى السوق الأوروبية، ونقل بعض الصناعات ــ ولا سيما تلك التي أصبح من غير المُمكن استمرارها في دول السوق الأوروبيَّة المشترَكة مثل صناعة النسيج والملابس ــ إلى الدول النامية، وخاصَّةً الصناعات التي تعتمد على العمالة الكثيفة والرخيصة.

في هذا السياق، وقَّعَتِ السوقُ الأوروبية المشترَكة مع سورية في أوائل السبعينيّات اتفاقيةً تُعطي المُصنِّع السوري إمكانية تصدير منتجاته للسوق الأوروبية المشتركة، وهي مُعفاة من كامل الرسوم الجمركية ونظام الحِصَص (الكوته). أي يستطيع المُصنِّعون التصدير

بـلا حـدودٍ شـريطةَ أن تكـون المـادَّة الأوليـة بنسـبة ٦٠٪ مُصنَّعـة محليًّـا، أو أن تكـون بشـكلٍ كامـل، (الأقمشـة مثـلًا)، مـن السـوق الأوروبيـة المشـتركة، وكانـت هـذه ميـزةً للصناعييـن السـوريين لتشـجيعهم علـى تطويـر صناعتهـم.

واسـتدراكًا فقـد شـهدتْ أوروبـا فـي الثمانينيّـات اضمِحـلال صناعـة الملابـس. زاد الأمـر وضوحًـا فـي التسـعينيّات حيـث لـم يبـق فيهـا لهـذه الصناعـات شـيءٌ يُذكـر، وبالتالـي غدت كل ملابسـهم مُسـتوردة. وللأسـف لـم يعلـم أحـدٌ مـن المُصنِّعيـن السـوريين بهـذه الاتفاقيـة كـي يسـتفيد منهـا، حتـى عـام ١٩٩٨ حيـن كنـتُ فـي دورة شـراء الخبـرة بشـركةٍ ألمانيـة لتصنيـع القمصـان عاليـة الجـودة، مع عشـرةٍ مـن عُمالـي، وهناك عرضـوا أن نُصنِّـع لهـم فـي سـورية قمصانًـا باسـمهم التجـاري، علـى أن يُرسـلوا خبيـرًا مُقيمًـا فـي دمشـق، مـع توفيـر كل الأقمشـة ومسـتلزمات الإنتـاج وتعليمـات القـصِّ والخياطـة والتعبئـة، ويتقاضـى المُصنِّـع أجـور تصنيـع صافيـة. وأذكـر أنَّ كلفـة دقيقـة العمـل فـي صناعـة الملابـس فـي ألمانيـا كانـت ٠,٦ دويتشـمارك، ومتوسـط صناعـة القميـص الواحـد ٣٠ دقيقـة إنتـاج، أي ١٨مـارك، بينمـا التعاقـد معنـا كان بـ ٠,١٥ للدقيقـة، أي الربـع، علـى أن يكـون العمـل اسـتنادًا للاتفاقيـة الموقعـة بيـن سـورية ودول السـوق الأوروبيـة.

بعـد عودتـي توجَّهـتُ إلـى وزارة الاقتصـاد لمتابعـة هـذه القضيـة، وتواصلـتُ مـع الوزيـر العمـادي، ولكنـه أنكَـر وجـود هـذه الاتفاقيـة، فحاولـتُ البحـث عـن نسـخةٍ باللغـة العربيـة فـي دوائـر الدولـة، والجمـارك والاقتصـاد والصناعـة، حتـى اسـتطعتُ أن أجدهـا عنـد رئيـس المكتـب القانونـي للجمـارك والـذي كان يتهـيَّأ للتقاعـد.

صـوَّرتُ الاتفاقيـة وطبعـتُ منهـا بحـدود ٥٠ نسـخة وزَّعتُهـا علـى الوزيـر

العمـادي ودوائـر الدولـة والجمـارك، حيـث بـادر الوزيـر مُكرَهًـا إلـى القـول: «ولـو مانـي مقتنـع بـس منشـانك رح مشـيها». وتـمَّ تعميـم الاتفاقيـة بعـد تغييـبٍ وممانعـةٍ شـديدين ومقصوديـن. والمفارقـة أنَّ هـذه الاتفاقيـة مكَّنـت تركيـا مـن أن تُصبـح الدولـة الثانيـة فـي العالـم فـي صناعـة وتصديـر الملابـس، بينمـا ضيَّعـتْ سـورية خمسـة عشـر عامًـا لبنـاء وتطويـر هـذه الصناعـة العالميـة.

تابعـتُ اهتمامـي بواقـع قطـاع الصناعـة عبـر محاضـرةٍ قدَّمتُهـا بدعـوةٍ مـن «المركـز الثقافـي الألمانـي» بدمشـق بتاريـخ ١٨ نيسـان/أبريل ١٩٩٩ عنوانهـا «تطـور القطـاع الخـاص فـي سـورية وتحديـات المسـتقبل»[١] حيـث اكتـظَّت القاعـة بالحضـور وبينهـم عناصـر الأمـن الذيـن حاولـوا الحصـول مـن إدارة «معهـد غوتـه» علـى نـص المحاضـرة قبـل إلقائهـا. وقـد شـرحتُ فـي هـذه المحاضـرة تفاصيـل حـول سياسـة حافـظ الأسـد فـي تقزيـم القطـاع الخـاص الصناعـي خوفًـا مـن تحوُّلـه إلـى قـوةٍ مدنيـة وسياسـية تُشـكِّل خطـورةً علـى نظامـه كمـا كانـت «الشـركة الخماسـية» فـي دمشـق، والتـي يَدَّعـي البعثيـون بأنها كانت قـادرةً على تغييـر الوزارة بقوتهـا الاقتصاديـة والعُماليـة، وهـذا مـا صـار يُعـرف بـعُقدة الشـركة الخماسـية بدمشـق. وطبعًـا، كانـت سياسـة تقزيـم القطـاع الصناعـي تسـتند إلـى وضـع العراقيـل أمـام توسُّـع القطـاع الخـاص الصناعـي عبـر سَـنِّ قوانيـن لا يمكـن تطبيقهـا، مـا يجعـل إقامـة مُنشـآتٍ خاصَّـةٍ صناعيـة كبيـرة أو توسـيع نطـاق العمـل الصناعـي القديـم غيـر ممكـن، أو يُرتِّـب أعبـاء علـى الصناعـي يصعـب تحملهـا، مـا يُكرِهـه علـى القيـام

(١) ريـاض سـيف، «تطـوُّر القطـاع الخـاص فـي سـورية وتحديـات المسـتقبل»، محاضـرة أُلقيَـتْ فـي المركـز الثقافـي الألمانـي بدمشـق، ١٨ نيسـان/أبريل ١٩٩٩، لا ذكـر لناشـر. https://bit.ly/3klpENf

بمخالفات عديدة تضعه دائمًا في دائرة الحساب والعقاب. فخلال عهد حافظ الأسد وحتى عام ١٩٩١ لم تُبْنَ في سورية أي منطقة صناعية نظامية على الإطلاق، أي قبل صدور قانون الاستثمار رقم ١٠ لعام ١٩٩١، أي أنَّ كل المنشآت الصناعية كانت تُقام بأماكن مخالفة، وبهذا هي غير قادرة على الحصول على ترخيصٍ إداريٍّ يسمح لها ببَدء الإنتاج بشكل نظامي. ثم تأتي عقبة حصول المنشأة الصناعية على الكهرباء الضروري (تري فاز) وهنا يلجأ الصناعي لمخالفةٍ أخرى، يليها أعباء امتلاك الآلات التي توجب على الصناعي دفع ضريبةٍ عليها تستمر حتى يأتي الصناعي بوثيقةٍ تُثبت صَهر الآلة بمعمل حديد حماة. وقد قدَّم لي أحد المواطنين كوني عضوًا في مجلس الشعب شكوى أنه مُطالَبٌ بدفع مبالغَ كبيرة كضريبةِ آلاتٍ على منشرةِ جدِّه التي لم تعد موجودةً منذ عشرين عامًا!

ثم تأتي مشكلة العِمالة، إذ يُلزم القانون صاحب العمل بدفع ٣٪ من راتب العامل إصابات عمل، إذا كانت مُنشأته تحوي ٥ عمال فما دون، وعند زيادة عدد العُمال عن الخمسة يُلزَم صاحب المصنع بدفع ١٤٪ من الراتب تأميناتٍ اجتماعية مع ٣٪ إصابات عمل، إضافةً إلى ٧٪ يدفعها العامل، لذا يلجأ معظم أصحاب العمل لعدم تسجيل عُمالهم في التأمينات الاجتماعية ويُصبِحون بذلك تحت رحمة موظفي التأمينات الاجتماعية الذين يمكن أن ينقضُّوا في أيِّ لحظةٍ ويطالبوا بدفع المخالفات بشكلٍ رجعيّ، ما يُمكن أن يتسبَّب في إغلاق الشركة إذا لم يتمكن الصناعي من إرضاء موظف التأمينات بالرشوة.

أما الموادُّ الأولية ولوازم الإنتاج فأغلبها مُهرَّبٌ من لبنان أو الأردن لعدم السماح باستيرادها بشكلٍ نظامي، أو يتم إدخالها بأسعار غير

حقيقيـة بغـية دفـع رسـوم أقـلّ، وهنـا يقـع الصناعـي تحـت رحمـة مُفتِّشـي الجمـارك.

وعنـد تسـويق المُنتَـج، تُلـزَم المنشـأة بالتقـيُّد بأسـعار البيـع المفـرق التـي تفرضهـا وزارة التمويـن، وكثيـرًا مـا تكـون الأسـعار أقـل مـن سـعر التكلفـة ممـا يضطـرُّ البائـع للمخالفـة بأسـعار البيـع التـي تجعلـه بالتالـي أيضًـا تحـت رحمـة مراقبـي التمويـن. يُضـاف إلـى كل ذلـك منـع التعامـل بالقطـع الأجنبـي للأفـراد والمُنشـآت الصناعيـة ممـا يضـع الصناعـي والتاجـر تحـت رحمـة أجهـزة الأمـن المسـؤولة عـن مراقبـة تـداول العملـة الأجنبيـة. هـذا عداكـم عـن أنَّ نسـبة الضريبـة علـى الأربـاح المُقـدَّرة تصـل إلـى ٦٣٪، (علمًـا أنهـا تُـقدَّر أساسًـا بشـكلٍ عشـوائي مـن قِبَـلِ موظـف الضرائـب، إذ أنَّ الصناعـي غيـر قـادر علـى تقديـم فواتيـر نظاميـة لـكل مدفوعاتـه كونهـا تضـم مبالـغ الرشـوة والفسـاد وأثمـان السـكوت علـى المخالفـات المذكـورة أعـلاه، إضافـةً إلـى الاختـلاف بيـن سـعر الـدولار الرسـمي والأسـود)، يُضـاف إليهـا الفوائـد وغرامـات التأخيـر التـي ترفـع الضريبـة إلـى ١٠٠٪، والكثيـر غيرهـا مـن العقبـات التـي تجعـل الصناعـي مُجبَـرًا علـى مخالفـة كل القوانيـن ذات الصلـة، والتـي يبـدو أنهـا وُضِعَـتْ أساسًـا لـيتم مخالفتهـا بشـكلٍ جماعـي كـي يبقـى الصناعيـون دومًـا تحـت وطـأة المُسـاءلة وسـيف العقوبـات، مـا يحاصرهـم ويعيقهـم عـن تطويـر مُنشـآتهم وتاليًـا توسـيع القطـاع الخـاص الصناعـي.

لقـد أثـارتْ هـذه المحاضـرة غضـب القيـادة القطريـة لحـزب البعـث العربـي الاشـتراكي، واعتـبرتْها عمـلًا مُعاديًـا للنظـام، خاصَّـةً وأنهـا أُلقِيَـتْ فـي مركـز ثقافـي أجنبـي، ممـا دفعهـا إلـى إلغـاء محاضرتـي الأخـرى

بعنوان «التصدير بين الحلم والواقع»[٢] وكانت مُقرَّرةً في برنامج «ندوة الثلاثاء» الاقتصادي في المركز الثقافي بالمزة، وهي ندوة رسمية تُقيمها جمعية العلوم الاقتصادية، يحضرها عادةً عدد كبير من الرسميِّين والمختصين والأكاديميين.

والأمر الذي أكسبها أهميةً استثنائية، أنَّ بشار الأسد كان يحضر بعضًا من فعاليَّاتها. وبالفعل تم تبليغ المَدعُوِّين بإلغاء المحاضرة واستبدالها بمحاضرةٍ أخرى يُلقيها السيد سمير صارم في نفس التاريخ، أي ١٨ أيار/مايو ١٩٩٩.

وفي هذه الأثناء وللمفارقة، تلقَّيتُ هاتفًا من أحد القادة الأمنيِّين أبلغني فيه بإعجاب الدكتور بشار الشديد بمحاضرة «تطور القطاع الخاص الصناعي في سورية وتحديات المستقبل»، وطالبني بتوضيحات حول بعض النقاط التي وردت فيها.

في ٦ أيار/مايو ١٩٩٩ قدَّمتُ تلك التوضيحات، لأجد في صباح اليوم التالي تغيُّرًا في الموقف من مَنع محاضرتي في المزة، إذ تلقَّيتُ تأكيداتٍ من القيادة القطرية نفسها ومن وزارة الثقافة ومن المركز الثقافي في المزة بأنَّ محاضرتي «التصدير بين الحلم والواقع» لا تزال على برنامج نشاطات المركز، وستُقام في وقتها المحدَّد مع الترحيب الشديد. وقد علَّق وعقَّب على تلك المحاضرة الأستاذ حسين القاضي وزير الصناعة السابق، وأثنى عليها أيضًا الدكتور كمال شرف رئيس الجلسة وهو وزير سابق ورئيس جمعية العلوم الاقتصادية. لكنَّ حكومة محمود الزعبي لم تُعِرها أي اهتمام لتَلقى

(٢) رياض سيف، «التصدير بين الحلم والواقع»، محاضرة أُلقيَتْ في برنامج ندوة الثلاثاء الاقتصادي في المركز الثقافي بالمزة، بدمشق، ١٨ أيار/مايو ١٩٩٩، لا ذكر لناشر.
https://bit.ly/2ZFOks5

الإهمـال وعـدم الاكتـراث كغيرها مـن المحاضرات والمسـاهمات القَـيِّمة التـي كانـت تُقـدَّم فـي نـدوة الثلاثـاء الاقتصـادي.

(٣) دعوةُ وزير الاقتـصاد لِلقاء وفـدٍ من أحد البنوك الألمانية

فـي عـام ١٩٩٩ تمَّـتْ دعوتـي مـع مـا يُقـارب الـ٤٠ مـن رجـال الأعمـال السـوريين لحضـور اجتمـاعٍ فـي فنـدق الشـيراتون فـي دمشـق مـع رئيس وأعضـاء مجلـس إدارة البنـك الألمانـي بمناسـبة افتـتاح فـرعٍ لـه فـي بيـروت. وشـارك فـي الاجتمـاع وزيـر الاقتصـاد السـوري محمـد العمـادي الـذي خاطـب رجـال الأعمـال السـوريين، بعـد مقدمـةٍ دبلوماسـية كعادتـه قائـلًا: «والآن، وبعـد أن أصبـح أحـد أعضـاء مجلـس الإدارة الألمـان صِهرنـا، لزواجـه مـن سـيدةٍ سـوريةٍ، قـرَّر مجلـس إدارة البنـك افتـتاح فـرعٍ لـه فـي بيـروت يُمكنـه تقديـم خدمـات مُميَّـزة للصناعيين السـوريين. نحـن نعـرف الشـاردة والـواردة وكل دولار يخـرج وكل دولار يدخـل، أنتـم حوَّلتـم العـام الماضـي مبالـغَ ضخمـة! (وذكـر الرقـم)».

وردًّا علـى ذلـك، طلبـتُ إذنًـا للحديـث وَوَجَّهْـتُ كلامـي للعمـادي: «هـا أنـت تقـول لنـا: اذهبـوا إلـى بيـروت لإجـراء عملياتكـم المصرفيـة، أي خالفـوا القانـون السـوري.. قومـوا بعملياتكـم المصرفيـة تهريبًـا. فمـا الحـل، إن ضُبِـطَ صناعـي علـى الحـدود وهـو يحمـل مبالـغ كبيـرة بالعملـة الصعبـة؟ ألا يُعتـقل ويُسـجن ويُصـادر المبلغ الـذي يحمله؟ هل بوسـعك أن تمنـع المخابـرات مـن التعـرُّض للصناعييـن؟ ثـم هـذه ليسـت المخالفـة الوحيـدة المُجـبرين عليهـا: كل رجـل أعمـالٍ هنـا مُجبَـرٌ علـى مخالفـة عـدة قوانيـن يوميًّـا، ويعيـش فـي جـوٍّ مشـحون بالقلـق، عندمـا يغـادر بيـته صباحًـا يبقـى مُتحسِّـبًا لأنـه لا يعـرف إذا كان سـيعود إليـه أم سـيذهب إلـى السـجن. لقـد آن الأوان لتغييـر هـذا المنـاخ الكابوسـي،

فما الذي يمنع البنك من فَتح فرعٍ له هنا، في دمشق؟ كيف يستقيم الأمر وأنت وزير اقتصاد سورية؟ وأليس من حقي كعضو مجلس شعب وكرجل أعمالٍ المطالبة بوقف الابتزاز الذي يتعرَّض له رجال الأعمال والصناعة في سورية؟».

وقَع كلامي على الوزير العمادي كالصاعقة وفقد القدرة على الإجابة، فسارع رئيس غرفة تجارة دمشق راتب الشلاح إلى الكلام واستطاع بحِنكته ترطيب الأجواء وتخفيف التوتر أثناء الاجتماع. وفي اليوم التالي تلقَّيتُ في الثامنة صباحًا اتصالًا هاتفيًّا من مدير مكتب الوزير العمادي، وهو صديق لي، يُخبرني أنَّ: «الوزير في مكتبه ينتظرك ولن يبدأ عمله قبل أن يراك وهو حزين جدًّا فأرجوك ألا تتأخر». ذهبتُ فورًا فوجدتُّ الوزير يستقبلني على باب مكتبه قائلًا: «أهلًا أبو جواد»، وكان قبلها يدعوني السيد سيف. وبدلًا من جلوسه على كرسي مكتبه جلَس مُقابلي وبادرني سائلًا: «هل أنت شامي؟» فقلت مازحًا: «شامي وميداني كمان!»، فأجاب: «أنا أعرف أهل الشام شاطرين ويعرفون مصلحتهم، وأنت تحمل السلم بالعرض وتُقاتل الجميع... أنزل السلم واعتبرني أخوك. كل صلاحياتي كوزيرٍ للاقتصاد تحت تصرفك... وماذا تريد مني أنا جاهز». أجبتُه بأن لا مطلب خاص لدي. وتبادَر إلى ذهني طرح قضية القرض الذي قدَّمتْه حكومة الكويت لسورية بقيمة خمسين مليون دولار قابلةً للزيادة، لتمويل الموادِّ الأولية اللازمة للصناعيين بشروطٍ مُيسَّرة وفائدةٍ سنوية (٢,٥٪) وتاليًا لتشجيع حركة الصناعة والتصدير، على أن تستفيد الحكومة السورية بنسبةٍ مُماثلة (٢,٥٪) أيضًا. وقد مضى على هذا الأمر أكثر من ستة أشهر ولم يستفد منه أحد، الأمر الذي حدا بدولة الكويت إلى تجميد القرض تمهيدًا لإلغائه.

كنت أجد أنَّ مثل هذا القرض يُشكِّل فرصةً ذهبية للصناعيين السوريين ليُحسِّنوا صناعتهم، ويتمكنوا من المنافسة في الأسواق الخارجية، فطلبتُ من الوزير الاتصال بالجانب الكويتي وتفعيل هذا القرض لتمويل الصناعيين، خاصَّةً مَن هم في أمس الحاجة إلى المال لشراء مواد أولية أو وسيطة وتشغيل مصانعهم وعمالهم. ورغم أنَّ مدة القرض كانت قد انتهت، فقد تجاوب العمادي مع مطلبي واتَّصل فورًا بمدير صندوق الاستثمار الكويتي وطلب منه تمديد القرض لمدة ستة أشهر. ثم سألني عن سبب عدم استفادة الصناعيين من هذا القرض، فقلت هي كلمة واحدة وردتْ في شروط الاستفادة من القرض ولم يجرؤ أحدٌ على تجاوزها، إذ أنَّ الاستفادة منه حُصِرَتْ بالأشخاص غير المقيمين في سورية، عِلمًا بأنَّ كافة الصناعيين مقيمين بالقطر فلن تنطبق شروطُ القرض على أحد، فاستدعى مدير التجارة الخارجية وطلَب منه أن يدرس معي شروط عقد القرض الكويتي وأن نجد الحلَّ مُبدِيًا موافقته على بياض. وهذا ما حصل ومكَّن عددًا من الصناعيين من الاستفادة منه، وبعضهم لأكثر من مرة.

(٤) إثارةُ مسألة الاحتكار السياسي

عرضتُ بتاريخ ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ وبحضور رئيس وأعضاء مجلس الوزراء مُداخلةً[٣] أوضحتُ فيها عددًا من الشروط التي يجب توفُّرها لتحقيق الإصلاح الاقتصادي والإداري، وتابعتُ:

(٣) رياض سيف، مداخلةٌ حول مشروع موازنة ٢٠٠١، دمشق، مجلس الشعب، ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

https://bit.ly/2ZH3X2m

«إنـه مـن العبـث ومضيعـة الوقـت، أن نظـنَّ أنَّ تحقيـق ذلـك ممكـن بمعـزل عـن الإصـلاح السياسـي، لأنَّ كسـر الاحتـكار السياسـي هـو شـرطٌ لازم لتطبيـق مبـدأ الشـفافية وتكافـؤ الفـرص، ووضـع الإنسـان المناسـب فـي المـكان المناسـب، وأن يكـون القانـون فـوق الجميـع، وإيجـاد الآليـات الضروريـة للمراقبـة والمحاسـبة. ومـن البديهـي أنَّ أيَّ احتـكارٍ لا بـد أن يُولِّـد العقـم ويوقـف التطـور والنمـو. كمـا أنـه لا يمكـن فصـل الاقتصـاد عـن السياسـة، الاحتـكار السياسـي يُنـتج بالضـرورة الاحتـكارات الأخـرى الاقتصاديـة والثقافيـة والإعلاميـة، مـا يُـؤدي فـي النهايـة إلـى عـدم قـدرة المجتمـع ككل علـى تجديـد نفسـه بمـا يتوافـق مـع المعطيـات المتغيِّـرة التـي تفرضهـا التطـورات الداخليـة والخارجيـة. ولا بـد للنمـو الطبيعـي لأيِّ مجتمـعٍ مـن توفيـر التـوازن الـذي يضمـن عـدم طغيـان مصالـح أي فئـة علـى حسـاب الفئـات الأخـرى. ولقـد أثبـتَتْ تجـارب كل الـدول، علـى أنَّ تحقيق ذلك التـوازن مشـروطٌ بوجـود مؤسسـات المجتمـع المدنـي، المسـتقلة عـن مؤسسـات الدولـة والتـي تُكمِّـل دور تلـك المؤسسـات وتُحرِّضهـا علـى تحسـين أدائهـا، وتسـتطيع مـن خـلال الأنظمـة والقوانيـن والحـوار السِّـلمي، أن تدافـع عـن حقـوق المنتسـبين إليهـا».

وخـلال مُداخلتـي عـلا صـراخ عـددٍ مـن الأعضـاء البعثييـن وقاطعونـي أكثـر مـن مـرة، ولكنـي أصـررتُ علـى قراءتهـا كاملـة فصـار بعضهـم يلـوم رئيـس المجلـس علـى إتاحـة المجـال لتقديـم آرائـي كاملـةً، بينمـا وجَّـه بعضهـم الآخـر الشـتائم النابيـة، ليسـود القاعـة جـوٌّ مـن الفوضـى، خاصَّـةً عندمـا انبـرى أحـد زملائـي للدفـاع عنـي، فـي حيـن قـدَّم رئيـس مجلـس الـوزراء مصطفـى ميـرو اقتراحًـا بشَـطب كامـل المداخلـة مـن محضـر الجلسـة، وكانـت هـذه سـابقةً لـم تحصـل مـن قَبـل، مـا اضطـرَّ رئيـس المجلـس إلـى إيقـاف الجلسـة لمـدة ١٥ دقيقـة، ودعـا إلـى اجتمـاعٍ

حزبيٍّ في مكتبه، ثم عاد ليُبلغ المجلس بأنه قرَّر شخصيًّا وبحُكم صلاحيته بأن يشطب كامل المداخلة وكأنها لم تكن.

لكن كعادتي وزَّعتُ في اليوم التالي نُسخًا من المداخلة على جميع أعضاء المجلس، كما أوضحتُ حقيقة ما جرى في منتدى الحوار الوطني الذي كان قد انطلق في منزلي قبل حوالي الشهرين وأقيمت فيه عدة محاضرات.

(٥) مواجهة الفساد

أول الأمثلة كانت قضية الغزول الصناعية، حيث صدَر في منتصف تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ قرارٌ من رئيس مجلس الوزراء الجديد مصطفى ميرو[٤] يقضي بمُضاعفة الرسوم الجمركية على كل المستوردات من الخيوط الصناعية، وكانت تلك الرسوم قد تضاعفت قبل ذلك بتاريخ ٥ آب/أغسطس ١٩٩٩ أي إنها بعد الرفع الثاني أصبحت أربعة أضعاف ما كانت عليه. وتردَّدتْ شائعات بأنَّ رئيس الحكومة قد حصل على ٥٠ مليون ل.س من بعض كبار مصنعي الخيوط مقابل إصداره هذا القرار، وإشاعات أخرى تُفيد بأنَّ رئيس الوزراء شريكٌ في شركة لصُنع الخيوط هي الأكبر في سورية على الإطلاق، تُنتِج

(٤) شُكِّلتْ حكومة مصطفى ميرو الأولى في ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٠، بموجِب المرسوم رقم ٨ لعام ٢٠٠٠ القاضي بتشكيل حكومة الجمهورية العربية السورية برئاسة الدكتور محمد مصطفى ميرو، واستمرَّتْ حتى ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. هذه الحكومة هي الوزارة رقم ٩٣ منذ استقلال سورية عن الدولة العثمانية عام ١٩١٨، وهي عاشر وزارة في عهد الرئيس حافظ الأسد. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

مُداخلة رياض سيف حول مشروع موازنة ٢٠٠١، دمشق، مجلس الشعب في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠

https://bit.ly/2ZH3X2m

٥٠ طِنًّا في اليوم، إذ تقوم بعمليات تحويلية بسيطة على ما تستورده من مواد أولية، وهي الأكثر انتِفاعًا من هذا القرار.

وفي دراسة تفصيلية من ٢٦ صفحة[٥] وزَّعتُها في مجلس الشعب بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ أوردتُّ بالأرقام الدقيقة، والمأخوذة من إحصاءات وزارة الصناعة وغرفة صناعة دمشق وغرفة صناعة حلب، فَداحة الضرر الذي سوف يُسبِّبه ذلك القرار المُدمِّر، وبيَّنتُ أنَّ الأرباح الإضافية السنوية التي سوف تُجنيها هذه الشركة من انعكاسات القرار الجديد تصل إلى ١٥٧ مليون ل.س، ودخلًا إضافيًّا للمعامل المستفيدة الأخرى يصل إلى ما يُقارب مليار وثلاث مئة مليون ليرة، نتيجةَ رفع أسعار منتجاتها فور صدور القرار بنفس نسبة الرسوم الجمركية الإضافية والمماثلة لإنتاجها من الخيوط المستوردة. وطالبتُ بتشكيل لجنةٍ من المجلس لدراسة هذه المشكلة بشكلٍ ميداني، والوقوف على ما تُلحِقه من أذى بالاقتصاد السوري عمومًا والصناعة بشكلٍ خاصّ، حيث أتوقَّع، من خلال خبرتي أن يتم تسريح آلاف العُمال في الشركات التي تُصدِّر مثلًا «كنزات اكليريك» إلى دول المنطقة وشمال أفريقيا، والتي ستتحول إلى المُصنِّعين الأتراك نتيجةَ ارتفاع التكاليف في سورية وتراجع القدرة على المنافسة.

تمَّت الموافقة على تشكيل لجنة من سبعة أعضاء، كنت واحدًا منهم، أما الباقون فكلهم من البعثيِّين المقربين من رئيس المجلس ورئيس مجلس الوزراء. وبعد جولةٍ ميدانية شَكلية سلَّمني رئيس اللجنة تقريرها لأُوقِّعه قبل تقديمه إلى المجلس،

(٥) رياض سيف، «مُنعكَسات زراعة وتصنيع القطن السوري على الاقتصاد الوطني وتأثُّره باستيراد الخيوط الصنعية»، دمشق، مجلس الشعب، ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. https://bit.ly/3ms30EH

وليخبرني بأنه غير قادرٍ على تجاوز رئيس الوزارة، فسجَّلتُ على التقرير رفضي الكامل لكل ما جاء فيه، مما جعل عرضه على المجلس بهذا الشكل مُتعذِّرًا وموضع إشكال، وبقِيَ في حوزة رئيس المجلس عبد القادر قدورة دون أن يرى النور، ودون أن يُعرض على المجلس.

(٦) صفقة عقود الخلوي

كانت تلك الصفقة بمثابة أخطر وأكبر قضية فسادٍ في سورية في ذلك الوقت، حيث إنه وبعد خمسة أيام من توقيع العقود وبتاريخ ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠١، وجَّه الزميل مأمون الحمصي أسئلةً حول عقود الخلوي، وطلب حضور الحكومة للردِّ عليها. حضرت الحكومة في ٢٦ آذار/مارس ٢٠٠١ وقدَّم وزير المواصلات محمد رضوان مارتيني تقريرًا يؤكد نزاهة العقود وقانونيتها وفوائدها الكبيرة للمصلحة العامة، وأعلن رئيس المجلس إقفال باب النقاش وطَيِّ الملف، فقاطعتُه بصرخةٍ مُدوِّية: «إنَّ هذا سوف يُضيِّع على الشعب السوري مبلغ ٢٠٠ مليار ليرة سورية، وأنني أملك الوثائق التي تدعم ذلك ولا يُمكننا أن نسمح بإغلاق الملف». وهنا انضمَّ إليَّ عدد كبير من أعضاء المجلس حتى البعثيِّين منه مما اضطر رئيس المجلس لعدم إغلاق الملف.

بعدها زرتُ وزير المواصلات من أجل مساعدتي في الحصول على وثائق الخلوي، فنصحني بالابتعاد عن هذه القضية لخطورتها، وحذَّرني من وجود نيةٍ بسَجني وسَجن الدكتور عارف دليلة إذا ما أصرَرنا على متابعة الحديث عن هذا الموضوع.

وفي اليوم الأول من عودة المجلس للانعقاد، في ١٥ أيار/مايو ٢٠٠١،

طالبتُ بتشكيل لجنةٍ للتحقيق في هذا الموضوع، وأيَّدني في ذلك أكثرية أعضاء المجلس. وقدَّمتُ مذكرةً من ٦ صفحات تحت عنوان «لماذا التعتيم على عقود الخلوي»[٦] وزعتُها على كبار المسؤولين وعلى زملائي في مجلس الشعب، وطلبتُ نشرها في جريدة **تشرين**، لكنَّ ذلك لم يتحقَّق.

بتاريخ ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠١ حضر رئيس مجلس الوزراء للردِّ على سؤالي الخطِّي، وقدَّم اقتراحًا بإحالة الموضوع إلى لجان المجلس. وتم تكليف لَجنتَيِ القوانين المالية والخدمات بدراسة الموضوع. وبتاريخ ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠١ قبل أربعة أيام من انتهاء الدورة التشريعية اجتمعتِ اللجنة المشتركة وحضر المدير العام للمؤسسة العامة للاتصالات مُصطحِبًا نسخة من الوثائق المتعلقة بالعقود، تحوي مئات الصفحات ومعظمها باللغة الإنكليزية، سلَّمها لرئيس اللجنة مُؤكِّدًا على اعتبارها وثائق سرية يحظر تداولها. وتحت إصرار أعضاء اللجنة على توزيع نُسخ من الوثائق على أعضائها تمَّتِ الموافقة على ذلك.

لقد كان حِرص رئيس المجلس ووزير المواصلات على إنجاز تقرير اللجنة قبل العطلة واضحًا، وكان من أهم ما أكده الوزير، هو أنَّ التصديق النهائي للعقود لم يتم بعد. ونجحتِ اللجنة في تمديد المهلة الممنوحة لإنجاز عملها إلى الدورة التالية. وحاولتْ في تلك الفترة وسائل الإعلام الرسمية تكذيب ما كنتُ قد قدمتُه من معلومات وأرقام، وعندما طلبتُ من وسائل الإعلام نفسها نشر رَدِّي

(٦) «لماذا التعتيم على عقود الخلوي؟»، مداخلة رياض سيف، مجلس الشعب، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠١.

https://bit.ly/2FqHiR4

علـى مـا أوردَتْـه بهـذا الشـأن كان الجـواب بالرفـض دائمًـا. فـي منتصـف آب ٢٠٠١ أنجـزت دراسـةً شـاملة تحـت عنـوان «صفقـة عقـود الخلـوي» مُوجَّهـةً لأعضـاء مجلـس الشـعب، ووزعتُهـا علـى عناصـر الحكومـة، أبـرز نقاطهـا هـي:

إنَّ توقيـع عقـود الخلـوي، منَـح لشـركاتٍ أجنبيـة امتيـاز إدارة واسـتثمار مَرفَـقٍ عـامٍّ تملِكـه الدولـة يتمثـل فـي اسـتثمار التـردُّدات، وهـذا يتطلَّب إصـدار قانـونٍ خـاصٍّ حسـب المـادة ٧١ مـن الدسـتور،[٧] إلا أنَّ رغبـة المسـتفيدين مـن العقـود بإبـرام الصفقـة وسـعة نفوذهـم مكَّناهـم مـن الالتفـاف علـى الدسـتور، وإتمـام الصفقـة بسِـرية مطلقـة.

فـي البَـدء قدَّمـتْ شركـتان مغمورتـان هديـةً للحكومـة السـورية لتركيـب شـبكاتٍ تجريبيـة تخـدم ٢٠ ألـف خـط خلـوي مجانًـا، وتـم إجـراء الترتيبـات لصالـح الشـركتين المتبرعـتَين دون الحاجـة إلـى إعلان مناقصـة. وبتاريـخ ٢٦ نيسـان/أبريل ١٩٩٩ وافـق رئيـس مجلـس الـوزراء علـى إدخـال التجهيـزات المطلوبـة إدخـالًا مؤقتًـا علـى سـبيل الإعـارة، وينتـهي مفعـول الإدخـال بتاريخ ١٤ كانـون الأول/ديسـمبر ٢٠٠٠. أُبرِمَتْ عقـودٌ نهائيـة مكَّنـتِ الشـركتين «المتبرعتيـن» مـن احتـكار خدمـات الهاتـف الخلـوي لمـدة ١٥ عامًـا قبـل يوميـن فقـط مـن انتهـاء الفتـرة

(٧) وفـق المـادة ٧١ مـن دسـتور الجمهوريـة العربيـة السـورية لعـام ١٩٧٣: يتولَّـى مجلـس الشـعب الاختصاصـات التاليـة: (١) ترشـيح رئيـس الجمهوريـة، (٢) إقـرار القوانيـن، (٣) مناقشـة سياسـة الـوزارة، (٤) إقـرار الموازنـة العامـة وخطـط التنميـة، (٥) إقـرار المعاهـدات والاتفاقيـات الدوليـة التـي تتعلـق بسـلامة الدولـة وهـي معاهـدات الصلـح والتحالـف وجميـع المعاهـدات التـي تتعلـق بحقـوق السـيادة أو الاتفاقيـات التـي تَمنـح امتيـازات للشـركات أو المؤسسـات الأجنبيـة وكذلـك المعاهـدات والاتفاقيـات التـي تُحمِّـل خزانـة الدولـة نفقـات غيـر واردة فـي موازنتهـا أو التـي تخالـف أحـكام القوانيـن النافـذة أو التـي يتطلـب نفاذهـا إصـدار تشـريع جديـد، (٦) إقـرار العفـو العـام، (٧) قبـول اسـتقالة أحـد أعضـاء المجلـس أو رفضهـا، (٨) حجـب الثقـة عـن الـوزارة أو عـن أحـد الـوزراء.

التجريبيــة المذكــورة، قاطعــةً الطريــق أمــام الشــركات التــي يمكــن أن تدخــل المنافســة.

وبالعــودة إلــى وضــع الشــركتين المتعاقدتيــن بتاريــخ توقيــع العقــود، نتبيَّــن أنَّ الأولــى، هــي شــركة «دريكــس تكنولوجــي» المحــدودة المســؤولية، وهــي مســجلة فــي الجــزر العــذراء البريطانيــة بتاريــخ ٤ تموز/يوليــو ٢٠٠٠ أي قبــل أربعــة أيــام مــن تاريــخ طَــرح المناقصــة، وبرأســمالٍ قــدره ٥٠ ألــف دولار فقــط، مــع إغفــال اســم المســؤول والمديــر العــام.

أمــا الشــركة الثانيــة فهــي «أنفيســتكوم غلوبــال»، وهــي مســجلة أيضًــا فــي الجــزر العــذراء البريطانيــة وبرأســمالِ ٥٠ ألــف دولار. ومعــروفٌ أن الجــزر العــذراء البريطانيــة تســمى بالجنــة الضريبيــة وتســتقطب الشــركات الوهميــة والشــركات التــي تتعاطــى غســيل الأمــوال، حيــث تقتصــر الْتــزامات الشــركة علــى دفــع رســمٍ ســنويٍّ بســيط مقابل تســجيل عنــوان وصنــدوق بريــد، وهــذا يُبــيِّن أنَّ صاحــب الشــركتين هــو شــخصٌ واحــد يمكــن أن نطلــق عليــه لقــب: المُستــفيد.

وممــا أثــار الريبــة أكثــر هــو الخــوف الــذي كان يســيطر علــى رئيــس مجلــس الــوزارة محمــود الزعبــي فــي تلــك الفتــرة مــن تمريــر تلــك الصفقــة كمــا تــدل الوثائــق، إذ قــدَّم مديــر عــام المؤسســة مذكــرةً لرئاســة مجلــس الــوزراء بتاريــخ ٣ شــباط/فبراير ٢٠٠٠ تُرجِّــح اختيــار طريقــة الـ«بــي أو تــي» فــي التعاقــد؛ (أي بنــاء المشــروع واســتثماره لعــدد مــن الســنين ثــم إعادتــه للدولــة).[٨]

وبتاريــخ ١ آذار/مــارس ٢٠٠٠ عُقِــدَ اجتمــاع مُوسَّــع فــي رئاســة مجلــس

(٨) BOT: Build–Operate–Transfer

الـوزراء لـم يتوصَّـل إلـى قرار، تـلاه تقديـم مذكرة مـن المؤسسـة بتاريخ ٤ آذار/مـارس ٢٠٠٠ ثـم عقـد محمـود الزعبـي اجتماعًـا آخـر للـوزارة بتاريـخ ٦ آذار/مـارس ٢٠٠٠ برئاسـته طلَـب فيـه مـن المؤسسـة ووزارة المواصـلات إعـداد مذكـرةٍ شـاملة جديـدة، تتضمَّـن كافَّـة المُـداولات الوزاريـة حتـى تاريخـه، ووضـع ملحـقٍ لأهـم الشـروط التـي سـتتضمنها مشـاريع دفاتـر الشـروط الفنيـة والحقوقيـة، ليُصـار إلـى تدقيقهـا مـن قِبَـلِ وزارتَـيِ الاقتصـاد والماليـة. كمـا طلَـب تلخيصًـا لـكل المذكـرات التـي أعدَّتْهـا المؤسسـة، وتقديـم دراسـة مقارنـة تبيـن ميـزات ومسـاوئ الخيـارات الأربعـة المطروحـة وهـي: إمـا أن تكـون مؤسسـة الاتصـالات منفـذًا ومشـغلًا، وإمـا تلزيـم المشـروع عـن طريـق «بـي أو تـي»، وإمـا بيـع ترخيـص التـردُّدات عـن طريـق مُزايـدة علنيـة، أو إدارة قطـاع الخلـوي عبـر القطـاع المشـترك بيـن المؤسسـة والقطـاع الخاص.

يُلاحَـظ ممـا تقـدم هيمنـة قضيـة الخلـوي علـى اهتمامـات حكومـة الزعبـي فـي الأيـام الأخيـرة مـن حياتـه. كان مـن الطبيعـي أن يتطلَّـب تنفيـذ طلبـات رئيـس مجلـس الـوزراء فـي الأحـوال العاديـة فريقًـا كبيـرًا مـن المختصيـن وأسـابيع إن لـم تكـن شـهور مـن الدراسـة والتدقيـق، لكـنَّ معجـزةً قـد حصلـتْ هنـا، حيـث أنَّ كل الدراسـات المطلوبـة قـد أنجـزتْ خـلال سـاعات وأنَّ محمـود الزعبـي رئيـس الـوزارة قـد وافـق علـى خيـار الـ «بـي أو تـي»، كمـا تمَّـتْ إقالـة حكومتـه فـي نفـس اليـوم!

وبَقِـيَ رئيـس مجلـس الـوزراء الجديـد محمـد مصطفـى ميـرو والـوزراء ومؤسسـة المواصـلات مُصرِّيـن علـى أنَّ الزعبـي هـو مَـن وافـق علـى خيـار الـ «بـي أو تـي» قبـل إقالتـه بسـاعات، والحقيقـة التـي لا تقبـل

الشك أنَّ رفض الزعبي خيار الـ «بي أو تي» كان سبب إقالته. وقد كانت العداوة بين كلٍّ من محمود الزعبي وسليم ياسين، (نائب رئيس الوزراء لشؤون الاقتصاد)، مع محمد مخلوف معروفةً للجميع، وكانا يشتكيان دائمًا مِن تغوُّل محمد مخلوف على كل المشاريع الاقتصادية.

ومما حدثني به سليم ياسين عندما كنا معًا في سجن عدرا أنَّ محمد مخلوف تقدَّم بطلب إقامةِ صالةِ سوق حرة في مطار دمشق الدولي، الأمر الذي لم يوافق عليه سليم ياسين فانتظر ذهابه في إجازة طويلة ليحصل على الموافقة من وزير الاقتصاد محمد العمادي، وليُفاجأ سليم ياسين عند عودته ويجد أنَّ السوق الحرة قد أقيمَتْ.

وتبين الوثائق أنَّ مذكرة ٧ آذار/مارس ٢٠٠٠ بالإضافة إلى ترجيح اختيار نظام الـ «بي أو تي» أعطتِ المستفيد هدية ثمينة بتخفيض حصة الخزينة من العائدات من ٤٠٪ إلى ٣٠٪ في السنوات الثلاث الأولى من العقود، والأنكى أنَّ هذه الحكومة لم تكتف بذلك فوفَّرتْ للمستفيد أرباحًا إضافيةً على حساب خزينة الدولة بالطرق التالية:

بتاريخ ٤ آذار/مارس ٢٠٠١، أي بعد ثلاثة أسابيع من توقيع العقد، وافقتِ الحكومة على إعفاء الشركتين من دفع أيِّ رسوم جمركية على مستورداتهما التي تتعلق بالمشروع واعتبارها إدخالًا مؤقتًا، عِلمًا بأنَّ مذكرة المؤسسة بتاريخ ٧ آذار/مارس ٢٠٠٠ قدَّرتِ الرسوم الجمركية المتوجِّب دفعها بخمسة مليارات ل.س.

وبعد شهرٍ من تاريخ توقيع العقود، أي في ١٣ آذار/مارس ٢٠٠١، أصدَر مدير عام مؤسسة الاتصالات كتابًا يمنح فيه الشركتين

المتعاقدتيـن حسـومات فـي أجـور الـدارات، يصـل مجموعهـا إلـى أكثـر مـن ١٢ مليـار ل.س، خـلال فتـرة التعاقـد محسـوبة علـى العـدد المتعاقَـد عليـه أي مليـون وسـبعمائة ألـف خـطٍّ، وعنـد مضاعفـة عـدد الخطـوط كمـا يبيـن الواقـع فـإنَّ رقـم ١٢ مليـارًا سـوف يتضاعـف بنفـس النسـبة.

تـم تحديـد عـدد الخطـوط لـكل عقـد بـ ٨٥٠ ألـف مشـترك، بينمـا كانت كل التوقعـات تُشـير إلـى أنَّ احتياجـات السـوق تصـل إلـى أضعـاف هـذا العـدد، قبـل السـماح لمُشـغِّلٍ ثالـث بدخـول السـوق عـام ٢٠٠٨.

وللهـروب مـن دفـع أي أعبـاء ماليـة للخطـوط التـي تزيـد عـن ٨٥٠ ألـف، أرسـلتِ الشـركتان كتابًـا لمؤسسـة الاتصـالات يُبيِّـن أنَّ الشـركة ملتـزمةٌ بتركيـب ٨٥٠ ألـف خـط وحسـب الحاجـة.

وبمـا أنَّ المؤسسـة لـم تـردَّ علـى كتابهـا فاعتُـبِر بحُكـم الموافَـق عليـه، مانحًـا الشـركة المسـتثمرة فرصـةً لتوسـيع الخطوط حسـب حاجة السـوق دون أن يترتـب عليهـا أيـة الْتـزامات إضافيـة، وقـد وصَـل عـدد الخطـوط فعـلًا إلـى أضعـاف العـدد المُسـجَّل فـي العقـد.

لقـد قـدَّرت المؤسسـة العامـة للاتصـالات بتاريـخ ٧ آذار/مـارس ٢٠٠٠ رِبـح الشـركتين قبـل دفـع الضريبـة بـ ١٢١,٨١٥ مليـارًا عـن مليـون وسـبعمائة ألـف خـط كحـدٍّ أعلـى، يُحـوَّل منهـا ٣٦٪ للخزينـة كضرائـب، ليُصبـح الربـح الصافـي للمسـتفيد ٧٧ مليـارَ ل.س فقـط.

وإذا أخذنـا بعَيـن الاعتبـار عامـل تخفيـض الضريبـة مـن ٣٦٪ إلـى ١٨٪ وزيـادة عـدد الخطـوط لأكثـر مـن ثلاثـة أضعـافِ العـدد المتعاقَـد عليـه، وبإضافـة الأربـاح عبـر كل الطـرق الاحتياليـة التـي تطرَّقنـا إليهـا سـابقًا، نُـدرك أهميـة هـذه الصفقـة الاحتكاريـة التي تُدِرُّ مئـات مليـارات الليرات السـورية علـى المسـتفيد الأساسـي منهـا، أي علـى رامـي مخلـوف ابـن

خال بشار الأسد وأهم المُتربِّعين على قمة هرم المافيا الاقتصادية التي تحكم سورية.[٩]

بتاريخ ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠١ قُمتُ بتوزيع آلاف النسخ من كُتيِّبٍ صغير (٩٦ صفحة)[١٠] بعنوان «صفقة عقود الخلوي» والذي أعتقد أنه كان أحد أهم الأسباب الرئيسة في قرار السلطة باعتقالي، وذلك بعد فترة لا تتجاوز الشهر من فضح صفقة الخلوي، لتتمَّ محاكمتي وإيداعي السجن، على الرغم من كوني عضوًا في مجلس الشعب.

بتاريخ ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠١ علمتُ أنَّ المؤسسة العامة للاتصالات والشركات المُشغِّلة للخلوي دعتْ إلى مؤتمر صحافي في فندق الشيراتون على هامش مَعرضٍ حول «خدمة الخليوي في سورية»، فحضرتُ دون أن أكون من المَدعُوِّين. وكان على رأس الحاضرين

(٩) رامي مخلوف، ابن خال بشار الأسد، يُعتَبر المثال الأبلغ على زواج السلطة المُستبِدَّة برأس المال المنهوب، كما يُعتَبر أقوى شخصية اقتصادية في سورية، فهو يملك إمبراطوريةً مالية احتكارية على رأسها شركة سيرايتل للاتصالات فضلًا عن تعاونه مع أجهزة الأمن لترويع خصومه من رجال الأعمال، بالإضافة إلى تسخير الكثير من القضاء لصالحه، بحيث لا يمكن لأي شركة أجنبية أن تقوم باستثمارات أو أعمال تجارية في سورية من دون موافقته ومشاركته. ولا يُجانب الصواب مَن يعتبر أنَّ فضح رياض سيف لصفقة الخلوي كان من الأسباب الرئيسة لاعتقاله عام ٢٠٠١، وربما شكَّلتْ مواجهته لهذه الإمبراطورية الفاسدة سببًا خفيًّا في فقدان ابنه إياد. وقد وصفتْ وزارة الخزانة الأميركية رامي مخلوف بأنه «المستفيد من الفساد العام في سوريا والمسؤول عنه، وإنَّ نفوذه واتصالاته داخل النظام سمحتْ له بالسيطرة على صفقاتٍ مربحة لأنواع محددة من السلع». كذلك فرضتْ هذه الوزارة عقوبات اقتصادية عليه في ٢١ شباط/فبراير ٢٠٠٨، ضِمن مساعيها لمعاقبة مسؤولين سوريين قالت إنهم على صلة بمحاولات تقويض الحكم في العراق ولبنان. وفي ١٠ تموز/يوليو ٢٠١١ أدرجتْ وزارة الخزانة الأميركية عددًا من الشركات التي يمتلكها مخلوف كليًّا أو جزئيًّا على لائحة عقوباتها.

(١٠) رياض سيف، «صفقة عقود الخليوي»، دمشق، ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠١، لا ذكر لناشر، ٩٦ صفحة.

https://bit.ly/33zM46L

تسعة من زملائي في المجلس، جاؤوا لدَحض كل ما قدَّمتُه من معلومات حول موضوع الخلوي.

بعد سماع كلمات مدير مؤسسة الاتصالات ومديري الشركتين، عدتُّ فأكَّدتُّ ثِقتي بصحة ودقة ما ورد في الدراسة من أرقام، وعند خروجي من باب الفندق كانت وسائل الإعلام العربية بانتظاري، وكان رامي مخلوف شخصيًّا مع أربعة من مُرافقيه موجودًا وينظر نظراتِ تهديدٍ ووَعيد. وأعدتُّ بمقابلةٍ مع «قناة الجزيرة» المعلومات التي طرحتُها بمُداخلتي، وما أن ابتعدت قليلًا عن طاقم الجزيرة حتى انقضَّ مُرافقو مخلوف، (البادي غارد)، وصادروا الشريط المُسجَّل من قِبَلِ «قناة الجزيرة».

في اليوم التالي زرتُ المعرض فالْتقيتُ بمدير عام شركة «٩٤»، وبعد حديثٍ مُطوَّلٍ بيننا سألتُه إن كان يجد في الأرقام الواردة في الدراسة أيَّ خطأ أو مبالغة؟ فأكَّد لي أنَّ الأرقام دقيقةٌ، وطلب مني أن أزوره في مكتبه، وهذا لم يحصل لأنني أعرف أنه يفكر بعَقد صفقةٍ مقابل التراجع عن الدراسة.

وفي نفس هذه الفترة، أيْ قبل ثلاثة أسابيع من دخولي الأول للسجن، زارني أحد الأصدقاء الذي أكِنُّ له كل احترام، وهو من حاملي الدكتوراه في الاقتصاد، ليُصارحني بأنه مُرسَلٌ من قِبَلِ محمد مخلوف ليَسأل عن مطالبي مقابل التوقف عن التطرُّق إلى صفقة الخلوي، وهو يعلم أنني قدَّمتُ لرئيس الجمهورية بِناءً على طلبه قائمةً بالمبالغ التي خسرتها من جرَّاء كيديَّة رئيس الوزارة محمود الزعبي (حسب وصفهم)، وكان مجموع المبالغ ٣٥٠ مليون ليرة سورية، واقترح أن يُضاف للمبلغ ما سمَّاه فوات الربح ويُقدِّره بـ ١٥٠ مليون ليرة ليصل المجموع إلى ٥٠٠

مليـون ليـرة أي مـا يعـادل وقتهـا ١٠ مليـون دولار. وأسـرَّ لـي بأنـه يُمكننـي اسـتلامها فـي أيِّ مـكانٍ أرغبـه مـع حِفـظ مـاء الوجـه. وعندمـا سـألتُه مـا يقصـد بحِفـظ مـاء الوجـه؟ أجـاب بأنـه يُمكننـي أن أبقـى معارضًـا دون أن أمـسَّ محمـد مخلـوف شـخصيًّا. وفهمـتُ مـن صديقـي أنـه يتوقَّـع الحصـول، فـي حـال نجحـتْ مسـاعيه معـي، علـى منصـب وزيـر الاقتصـاد. طلبـتُ منـه أن يُمهِلَنـي بضعـة أيـام، حيـث كانـت آلاف النسـخ مـن دراسـتي حـول صفقـة الخلـوي قيـد الطباعـة، وبعـد يوميـن تـمَّ توزيـع الكُتـيِّب علـى نطـاقٍ واسـع، وهـو مـا يُعتـبر جوابي علـى الصفقـة.

بيضاء في الأصل

الفصل السَّادس

ربيـــــــــع دمـــشـــق

بيضاء في الأصل

(١) مـخـاضُ الحـراك المدني

يَصِحُّ القـول إنَّ المجتمـع السـوري وخاصَّـةً نُخـبَه الثقافيـة والسياسـية عاشـا ورشـةً جدِّيـةً مـن النقـاش حـول مختلـف القضايـا العامـة، لـم يشـهد لهـا تاريـخ المجتمـع مثيـلًا، وهـذا مـا درجـتْ تسـميته بمنـاخ أو مخـاض ربيـع دمشـق، والاسـم جـاء ربمـا تيمُّنًـا بأجـواءِ تفتُّـح الأزهـار فـي فصـل الربيـع، بعـد شـتاء قـارصٍ وطويـل عاشـته البـلاد، وربمـا تشـبُّهًا بمـا سُـمِّيَ ربيـع بـراغ الـذي كان عنوانًـا للتغييـر الديمقراطـي فـي تشيكوسـلوفاكيا فـي مواجهـة الاسـتبداد والوصايـة الشـيوعيين.

لقـد بـدأتْ معالـم هـذا المنـاخ الربيعـي تتنامـى وتتكشَّـف بعـد انتخابـات المجلـس التشـريعي السـابع، ومـوت حافـظ الأسـد، لتأخـذ بعـض الاسـتقرار والدَّيمومـة خـلال عامـي ٢٠٠٠ و٢٠٠١. ويتفـق الكثيرون علـى أنَّ الدافـع وراء مبـادرة السـلطة لتمريـر هـذا المنـاخ هـو محاولـة الأسـد الأب التمهيـد لوصـول ابنـه وخليفتـه إلـى سُـدَّة الحكـم بأقـلِّ ردود أفعـال شـعبية وثقافيـة وسياسـية، بمـا فـي ذلـك تفكيـك مراكـز القـوى التـي تُعـارض ضِمنًـا هـذا الخيـار.

ولعـل الطريـق المُجَرَّبَـة لإضفـاء المشـروعية علـى انتـقال السـلطة، هـي توسـيع بعـض هوامـش النقـد والاعتـراض، وإن مؤقَّـتًا، علـى الواقع

القائم الذي بات مَحطَّ رفضِ غالبية الشعب جراء تفشِّي ظواهر الفقر والتمييز والفساد والمحسوبية، ما يفسر التركيز السلطويَّ على طرح شعار التحديث والتطوير خلال هذه الفترة، والترويج الممنهج لرواياتٍ وقصصٍ عن دور بشار الأسد في تنمية سورية وتطهيرها من الفاسدين وتحديثها وتهيئتها للتوافق مع تطور الحضارة العالمية.

ولكن ما عزَّز هذا المناخ هو تسارع الأحداث السياسية مع بداية عام ٢٠٠٠.

فبعد فشل المفاوضات السورية/الإسرائيلية فيما يتعلق بالحدود والأمن والمياه والتطبيع الدبلوماسي، وإعلان استقالة حكومة محمود الزعبي في آذار ٢٠٠٠ بعد ١٣ عامًا من تشكيلها، واتهام رئيسها مع نائبه سليم ياسين ووزير المواصلات مفيد عبد الكريم بالفساد، وطرد الزعبي نفسه من الحزب ثم انتحاره بحسب الرواية الرسمية، كان تشكيل حكومة جديدة في ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٠ برئاسة محافظ حلب السابق مصطفى ميرو، الذي جاهر ببرنامجٍ يدعو بصورة رئيسية إلى إصلاح القوانين وتحديث المؤسسات وتحسين شروط حياة المواطنين المعيشية والاقتصادية.[١]

وهذا، بالمناسبة، على الرغم من أنَّ مصطفى ميرو كان محافظًا لمدينة الحسكة عندما تمَّ حفر آلاف الآبار الارتوازية، بمُوافقته، في حوض الخابور مما أدَّى إلى جفاف نبع الخابور!

---

(١) رياض سيف، مداخلة حول مشروع موازنة ٢٠٠١، دمشق، مجلس الشعب ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠.

https://bit.ly/3iyIsIz

كالعـادة بَقِـيَ هـذا البرنامـج الـذي أعلـن عنـه مصطفـى ميـرو طـيَّ الأدراج وحبـرًا علـى ورق، ولـم تُبـادر الحكومـة إلـى إصـدار أيـة قوانيـن مـن شـأنها تشـريع حريـة الـرأي والتعبيـر، كقانـونٍ للمطبوعـات وآخـر لتشـريع الأحـزاب السياسـية. والأنكـى أنـه لـم تظهـر أيُّ دلائـل علـى الرغبـة فـي الإصـلاح والانفتـاح علـى الآخَـر المختلـف، سـواء فـي العلاقـة بيـن السـلطة والنُّخَـب السياسـية والثقافيـة، أو فـي وسـائل الإعـلام الرسـمية.

ورغـم ذلـك، فقـد تـرَك كل ذلـك أثـرًا مُشـجِّعًا للسـوريين كـي يبـدؤوا بتلمُّـس دورهـم الغائـب، فبـادَر الكثيـرون منهـم لتحويـل سـهراتهم الخاصَّـة إلـى جلسـات حـوارٍ تتنـاول واقـع بلدهـم والسياسـات المُتَّـبعة فيـه وتأثيرهـا علـى مسـتقبلهم ومسـتقبل أطفالهـم، سـاخرين ومُتحرِّريـن مـن العديـد مـن الأمثـال الشـعبية التـي رسَّـخها الاسـتبداد فـي وعيهـم منـذ الطفولـة، أهمهـا: «لعـن اللـه السياسـة ومَـن يتحـدَّث بهـا»، «العيـن لا تـقاوم المخـرز»، «مالنـا ومـال السياسـة، ليـس وراءهـا إلا وجـع الـرأس»... إلـخ.

وربمـا مـا شـجَّع النـاس أكثـر للاهتمـام بالشـأن العـام، هـو المسـرحية المكشـوفة لتَسـارع عمليـة انتقـال السـلطة بعـد مـوت حافـظ الأسـد، حيـث انعقـد مؤتمـرُ حـزب البعـث العربـي الاشـتراكي علـى عجـلٍ فـي الفتـرة ١٧-٢١ حزيران/يونيـو ٢٠٠٠ وأعلـن عـن قيـادةٍ قطريـة جديـدة انتخبـتْ بشـار الأسـد أمينًـا عامًّـا لهـا ورَشَّـحَته، وفقًـا للدسـتور، لمنصـب الرئاسـة.

تـلا ذلـك انعقـاد جلسـةٍ طارئـة لمجلـس الشـعب عدَّلـت الدسـتور بمـا يُناسـب عُمـر المرشـح الرئاسـي وتـم التصويـت بالإجمـاع علـى هـذا

الترشيح،[٢] وتحديد موعد الاستفتاء، الذي أُعلِنَتْ نتائجه في ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠ بفوز بشار الأسد بنسبة ٩٧,٣ في المائة من أصوات المقترعين.[٣] ولعل ما زاد الناس شجاعة، خطاب القَسَم الذي ألقاه الرئيس الجديد أمام مجلس الشعب في ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠ وروَّج فيه للإصلاح الديمقراطي، حيث قال: «إنَّ الفكر الديمقراطي يستند إلى أساس قبول الرأي وهو طريق ذو اتجاهين» مشيرًا إلى أنه «لا يجوز تطبيق ديمقراطية الآخرين على أنفسنا» بل يجب «أن تكون لنا تجربتنا الديمقراطية الخاصَّة بنا المنبثقة من تاريخنا وثقافتنا وشخصيتنا الحضارية».[٤]

وبالفعل استثمر المثقفون والناشطون السوريون هذا المناخ وما ورد في خطاب القَسَم، للدَّفع باتجاه خلق فضاءاتٍ للتعبير الحر والمسؤول، وذلك على الرغم من امتعاض بعضهم من آلية انتقال السلطة، حيث لا يزال في ذاكرتي ما نشره رياض الترك في ملحق **النهار** بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٠، عن أنه «من غير الممكن أن تظل

---

(٢) في استلام بشار الأسد للسلطة: «مع وفاة والده في ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠ رُفع بشار وعمره ٣٤ عامًا و١٠ أشهر إلى رتبة فريق أول ركن حينما عدَّل مجلس الشعب السوري الدستور بإجماع أعضائه لخفض الحدِّ الأدنى لعُمر الرئيس من ٤٠ عامًا إلى ٣٤ عامًا، لتمكينه، (تمكين بشار)، كقياديٍّ في حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم من عرض ترشيحه على مجلس الشعب لمنصب الرئاسة. وأصبح بذلك أول رئيس عربي يرِث والده في حكم جمهورية. انتُخِبَ بعدها أمينًا قطريًّا للقطر السوري لحزب البعث الحاكم (حسب المصطلحات المستخدمة) في المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم، في ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وانتُخِبَ رئيسًا للجمهورية في ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠ عبر استفتاءٍ صُوريٍّ كان المرشح الوحيد فيه»، المصدر: مدخل «بشار الأسد» في **المعرفة دوت أورغ**.

(٣) مدخل «بشار الأسد» في **ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة**.

(٤) بشار الأسد، خطاب القَسَم أمام مجلس الشعب، دمشق، ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

سوريا مملكة الصمت»[٥] وأيضًا ما كتبه أنطون مقدسي في ١٣ آب/ أغسطس ٢٠٠٠ على صفحات جريدة **الحياة** من خلال رسالةٍ مفتوحة إلى بشار الأسد، هنَّأه فيها بمنصبه الجديد وأوضح بكل جرأة حقيقةَ ما نعيشه، قائلًا أنَّ: «الوضع العامَّ، باختصار يا سيدي: انهيارٌ عامّ، سياسي واقتصادي وأيضًا ثقافي وإنساني» وطالَب «بنَقل البلاد من وضع الرَّعِيَّة إلى المواطنة».[٦] وقد أثارت هذه الرسالة حفيظةَ السلطة ولاقى صاحبها، بدلًا من الشكر على صراحته وجرأته، قرارًا بفصله من موقعه، كمديرٍ لمديرية التأليف والترجمة والنشر في وزارة الثقافة التي أشرف عليها على مدى سنواتٍ طويلة، أصدرتْه، بلا حياءٍ، وبأوامر من السلطة الأعلى على الأرجح، الوزيرة مها قنوت.

(٢) جمعية أصدقاء المجتمع المدني

كان السوريون قبل مخاض ربيع دمشق، يعيشون فترةً من العزلة واللَّافاعلِيَّة والخوف من المبادرة، وكانت المعارضة تتوزع بين المنافي والسجون وأقبِيَة العمل السري، عاجزةً عن مُراجعة أطروحاتها الأيديولوجية وبرامجها السياسية التي لم تَعُدْ مغريةً لأعضائها ومُناصريها، فكيف الحال بالنسبة للمواطن العادي؟

وظهر أنَّ السلطة بمؤسساتها جميعها، الحزب والمنظمات الشعبية والجبهة الوطنية والمؤسستَين العسكرية والأمنية، قد بدأتْ تتراجع

---

(٥) اطلب مقالة رياض الترك على موقع الحوار المتمدن أدناه:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=1491&r=0

(٦) أنطون مقدسي، «رسالةٌ إلى الرئيس السوري: من الرعية إلى المواطنة»، **الحياة**، ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

https://bit.ly/2Fo13Zv

مـن حيـث فاعلِيَّـتها وقدرتهـا علـى التحكـم بمفاصـل حيـاة المجتمـع، وعاجـزة عـن اتخـاذ القـرارات الحيويـة الكفيلـة بتخفيـف مـا يعترضـه من مشـاكل وأزمـات، ليغـدو همَّهـا الرئيـس الحفـاظُ علـى اسـتمرارها وعلـى مقومـات وركائـز الوضـع القائـم.

فـي ظـل هـذا الاسـتِعصاء، حـاول بعـض المثقفيـن السـوريين تفعيـل دورهـم وفتـح أبـواب جديـدة، ومنهـا اللقـاء الـذي حضرتُـه فـي ٢٨ أيار/مايـو ٢٠٠٠ فـي بيـت المخـرج نبيـل المالـح بمشـاركة مجموعـةٍ مـن المثقفيـن والسياسـيين، أذكـر منهـم فـي مـن أذكـر: ميشـيل كيلـو، وهالـة محمـد، وياسـين شـكر، ورفعـت السـيوفي، وعـادل محمـود، ويوسـف سـلمان، وعـارف دليلـة، ووليـد البني، ونبيـل المالـح، وهناك دار الحديـث حـول أفضـل صيغـةٍ للمسـاهمة فـي عملية إصـلاحٍ سياسـي كان الجميـع مُقتـنِعًا بأنهـا باتـت ضـرورةً مُلِحَّـة، بمـا يعيـد النـاس للمشـاركة بالسياسـة وتقريـر مصيرهـم، ويُمكِّنهـم مـن التعاضـد للتغلـب علـى مـا يعانيـه المجتمـع السـوري مـن أزَمـات. وبعـد الاجتمـاع الثالـث وبَـدء إرسـاء بعـض التوافقـات، وتوخِّيًـا لتغطـيتها، تـم نقـل اجتماعاتنـا، فـي حزيـران عـام ٢٠٠٠ إلـى مكتبـي المُخصَّـص لشـؤون مجلـس الشـعب، لتُعقَـد بشـكلٍ دوريٍّ كل يـوم أحـد. وكانـت مـن أهـم التوافقـات الدعـوة والعمـل علـى تعزيـز ثقافـة المجتمـع المدنـي بصِفتهـا بوابـة الإصـلاح السياسـي، ثـم التوافـق علـى ضـرورة تأسـيس حالـةٍ تنظيميـة تُشـكِّل حمايـةً وتطويـرًا لهـذا الخيـار، وقـد ارتـأى الجميـع أن يكـون اسـمها «جمعيـة أصدقـاء المجتمـع المدنـي»، وجـاء فـي بيانهـا التأسيسـي:

«إنَّ المجتمـع المدنـي كمـا نـراه هـو مجمـوع التنظيمـات المجتمعيـة غيـر الحكوميـة مـن جمعيـاتٍ ونقابـات وهيئـات ومنظمـات وأحـزاب ووسـائل إعـلام حـرَّة ومتعددة

ونَـوادٍ ومؤسسـات، وجوهـره الخيـار الديمقراطـي، ولا يمكـن للديمقراطيـة أن تتجسَّـد إلا عبـر نهـوض المجتمـع المدنـي بأنظِـمته ومؤسسـاته، وخلـق حالـة حـوارٍ نَقـديٍّ بيـن المجتمـع والدولـة مـن أجـل مصلحـة الوطـن، كمـا أنَّ تفعيـل مؤسسـات المجتمـع المدنـي يُعتبـر السـبيل الوحيـد لبنـاء دولـةٍ للجميـع وتحقيـق حـراكٍ اجتماعـي فاعـل وصـولًا إلـى الدعـوة إلـى تأسـيس جمعيـة أصدقـاء المجتمـع المدنـي فـي سـوريا علَّنـا نقـدم جهـدًا يُسـهِم فـي بنـاء مجتمـع ديمقراطـي مُتطـوِّر».[٧]

كانـت اجتماعـات «جمعيـة أصدقـاء المجتمـع المدنـي» علَنِيَّـة ومفتوحة مـا يجعلهـا مكشـوفةً للأجهـزة الأمنيـة، وتـم الاتفـاق علـى تقديـم طلـب تسـجيل الجمعيـة بعـد إنجـاز الصياغـة النهائيـة لبيـان التأسـيس، ولكـن قبـل أربعـة أيـام مـن موعـد الاجتمـاع المُخصَّـص لإقـرار البيـان التأسيسـي، تلقَّيـتُ دعـوة فـي ٣٠ آب/أغسـطس ٢٠٠٠ لزيـارة نائـب رئيـس الجمهوريـة عبـد الحليـم خـدام فـي منزلـه، دام اللقـاء أكثـر مـن ثـلاث سـاعات، وعلـى الرغـم مـن أنَّ لقاءاتـي السـابقة بالسـيد خـدام كانـت قليلـة، وتتـم بشـكلٍ رسـميٍّ فـي مكتبـه لمعالجـة قضايـا عامَّـة، إلا أنَّ هـذا اللقـاء كان مختلفًـا جـدًّا، وفاجأنـي بإبـداء إعجابـه الشـديد بـي وبالنجاحـات التـي حققتُهـا فـي عملـي، وخاصَّـةً مـن النواحـي الإنسـانية والأخلاقيـة، ثـم أبلغنـي عـن لقـاءٍ كان لـه مـع رئيـس الجمهوريـة فـي

(٧) «مشـروع تأسـيس جمعيـة أصدقـاء المجتمـع المدنـي فـي سـورية»، **مـن أجـل مجتمـعٍ مدنـي فـي سـورية: حـوارات «منتـدى الحـوار الوطنـي»**، تحريـر وتقديـم رضـوان زيـادة، الناشـر: اللجنـة العربيـة لحقـوق الإنسـان والمؤسسـة العربيـة الأوروبيـة للنشـر، ٢٠٠٤، ١٣٦ صفحـة. https://bit.ly/2ZGf0bW

صباح اليوم ذاته، دار فيه الحديث عما لقِيتُه من معاملةٍ كيدية ظالمة من قِبَلِ محمود الزعبي وحكومته، وأنه، أيْ خدام، قال: «لو أنَّ الرئيس حافظ الأسد عَلِمَ بذلك في حياته لقطع أياديهم على ما فعلوا». ثم نقل لي رغبة رئيس الجمهورية بأنْ أستعيد أمجادي الصناعية وأعود أكثر مما كنت عليه بعشرة أضعاف، كما أبلغني طلبَ الرئيس تزويده بتقريرٍ مُفصَّل من قِبَلِي يبين حجم الخسائر التي تكبدتُّها نتيجة تلك المعاملة الكيدية، وإيصاله له عن طريق السيد خدام نفسه.

سار اجتماع ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ كما كان مُقرَّرًا له وتمت الموافقة على الصياغة النهائية لبيان «جمعية أصدقاء المجتمع المدني»[٨] وعندها، وفي ضوء ما ذكرتُه أمام المجتمعِين عن لقائي مع عبد الحليم خدام، اتفقوا على تكليفي بإعلام كلٍّ من نائب رئيس الجمهورية واللواء بهجت سليمان بهذا البيان، كي أطلب منهما مساعدتنا للحصول على ترخيصٍ لهذه الجمعية. وعلى هذا الْتقيتُ في صباح اليوم التالي باللواء بهجت سليمان في مكتبه بحضور الدكتور إلياس نجمة سفير سورية في فرنسا وزميلي السابق في مجلس الشعب، وأدركتُ بعد حوارٍ دام أكثر من ساعتين أنَّ اللواء بهجت كان على عِلمٍ كامل بكل ما كان يدور في اجتماعاتنا وأنه كان يتوقع زيارتي، ليتمحور حديثه وحديث الدكتور نجمة على محاولة إقناعي بأنَّ غالبية ما يُسمَّى منظمات المجتمع المدني ما هي إلا وسيلة وغطاء لأنشطةِ المنظمات الماسونية العالمية أو مرتبطة بأندية الروتاري، التي يتحكم بها اليهود بقصد السيطرة على العالم، مُعلِنًا رفضه القاطع لقيام مثل هذه الجمعية.

---

(٨) المرجع السابق.

تـلا ذلـك فـي مسـاء اليـوم ذاتـه لقـاء مـع عبـد الحليـم خـدام فـي منزلـه، وكان يتوقَّـع أن أقـدِّم لـه تقريـر الخسـائر الـذي طلبـه رئيـس الجمهوريـة، لكنـه تفاجـأ عندمـا قدَّمـتُ لـه طلَبًـا لتسـجيل الجمعيـة وتشـريعها قانونيًّـا، فامتقـع لونـه وقـال: «هـذه ليسـت جمعيـة، هـذا بـلاغ رقـم واحـد لانقـلابٍ تُخطِّطـون لـه تحـت يافطـة المجتمـع المدنـي وهـو أمـرٌ لا يمكـن أن يتـمّ» وتابـع قائـلًا: «لمـاذا لا تدخلـون مـن البـاب وتنـتظرون بعـض الوقـت ريثمـا يصـدر قانـونٌ جديـد للأحزاب، فتؤسسـوا حزبًـا سياسـيًّا يمكنـه دخـول الجبهـة أو ممارسـة نشـاطه كمعارضـةٍ بشـكل نظامـي».

وعلـى وَقـع هـذه العبـارة التحذيريـة انتـهى اجتماعـي بالسـيد خـدام ولقاءاتـي بـه، وعندمـا هممـتُ بالخـروج مـن منزلـه حاولـتُ تلمُّـس جديـة حديـثه عـن رفـع المظالـم التـي وقعـتْ علـيَّ، بالقـول: «إننـي سـأوافيك خـلال أسـبوعٍ بالتقريـر الـذي طلبـه رئيـس الجمهوريـة» فـردَّ بفتـور بأنـه يفضـل أن أقدِّمـه إلـى مديـر مكتـب رئيـس الجمهوريـة مباشـرة، وهـو مـا حصـل بعـد أسـبوع، فسـلَّمتُ تقريـرًا مـن ١٦ صفحـة، يحـوي كل الوثائـق الضروريـة وحجـم الأضـرار التـي تكبدتُّهـا، والتـي وصلـتْ إلـى ٣٥٠ مليـون ل.س[٩] وأعتـقد أنـه، وفـي ضـوء عجزهـم عـن تطويـع مَواقفـي، لـم يلـقَ هـذا التقريـر أي اهتمـام، حيـث لـم أتلـقَّ أيَّ جـوابٍ أو ردّ.

فـي اجتمـاع الأحـد ١٠ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠٠ أطلعـتُ زملائـي علـى مـا حصـل، وبعـد حـوارٍ مسـتفيض، رأى البعـض ضـرورة أن تُتابِـع الجمعيـة

(٩) ريـاض سـيف، «تجربتـي فـي مجلـس الشـعب: أوهـام الديمقراطيـة فـي ظـل الاستبداد (٢)»، **السفير**، ١٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٧.

https://bit.ly/2ZFZptc

نشـاطاتها مـن دون ترخيـص، لكننـي ارتأيـتُ، مـع عـددٍ مـن الزمـلاء، أمـام شـعوري بانسـداد الأفـق لأيِّ دورٍ مؤثِّـرٍ لـي فـي مجلـس الشـعب، افتـتاحَ منتـدى للحـوار الوطنـي في منزلـي أسـوة بالتجربـة الناجحة التي خُضتهـا فـي جلسـات حـوار الحملـة الانتخابيـة قبـل عاميـن، واقـترحتُ أن تقـام جلسـات حـوارٍ أسـبوعية تبـدأ بطـرح موضوعـاتٍ خاصَّـة بثقافـة المجتمـع المدنـي، والإفـادة مـن تمتُّعـي بالحصانـة البرلمانيـة التـي يمكـن أن تسـاعد فـي إنجـاح المشـروع وتخطـي الممانعـة الأمنيـة.

رحَّـب أغلـب المجتمعيـن بالفكـرة وطلَـب ميشـيل كيلـو أن تتـم إدارة المنتـدى مـن قِبَـلِ لجنـةٍ منتخبـة أو مختـارة مـن المثقفيـن، فاشـترطتُّ أن أحتفـظ بحـق الاعتـراض (الفيتـو) علـى شـخصية المُحاضـر وعلـى موضـوع المحاضـرة، مُعلِّـلًا ذلـك بـأنَّ جلسـات هـذا الحـوار سـوف تُعقَـد فـي منزلـي وأنـا الـذي أتحمـل مسـؤوليتها السياسـية والأمنيـة. وللأسـف فقـد أفضـى هـذا الخـلاف فـي الـرأي إلـى حصـول تفـارُقٍ أولـيٍّ مـع ميشـيل كيلـو الـذي بـدا راغِبًـا فـي تحريـر هـذا العمـل المشـترَك مـن أيَّـة ضوابـط، قائـلًا: «مـا بدنـا ريـاض سـيف يسـقفنا (أي يضـع علينـا سـقفًا)».

ومـع ذلـك فقـد كان ميشـيل مـن أوائـل المشـاركين فـي الجلسـة الأولـى مـن المنتـدى وحضَـر بصحبـة أنطـون مقدسـي، بينمـا حرِصـتُ مـن جهتـي علـى تقبُّـل هـذا الافتـراق برَحابـة صـدر، وبذلـتُ مـا أمكننـي مـن جهـدٍ كـي لا تؤثـر قضايـا الخـلاف فـي الـرأي علـى العلاقـة الشـخصية، خاصَّـةً أنـي لـم أكـن أتطلَّـع لمنافسـة أحـد، مُقتـنِعًا بـأنَّ لـكل شـخص دوره فـي المجتمـع، وأنَّ المسـؤولية التـي تقـع علـى عاتـق أي واحـد منـا ليسـت متماثلـة بـل متباينـة وخاصَّـةً باعتِبـار تفـاوت إمكانيَّـات كل شـخصٍ وقدراتـه علـى المشـاركة فـي مسـار الإصـلاح السياسـي الـذي

صار هَمِّيَ الأول بعد أن وصل عمليًّا انشغالي وتركيزي على الإصلاح الاقتصادي إلى طريقٍ مسدود.

والحال هذه، فقد تمايزتْ «جمعية أصدقاء المجتمع المدني» في اتجاهين: الأول، أصدرت «بيان المثقفين الـ٩٩»[١٠] في ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ ثم «بيان الألف»[١١] في بداية عام ٢٠٠١، اللذَيْن وقفا مُنتقدين الوضع القائم ودعَيا إلى التغيير الديمقراطي، ليُشكِّل «بيان الألف» جوهرَ الوثيقة التأسيسية لما عُرِفَ بعد ذلك بـ«لجان إحياء المجتمع المدني». والاتجاه الثاني، تمسَّك بـ«منتدى الحوار الوطني» كإطارٍ لنشاطاته، مُتطلِّعًا لتحويل المنتدى إلى ساحة حوارٍ بين المواطنين تُشجِّعهم على المشاركة في مناقشة شؤونهم فيما يُشبِه «برلمانًا شعبيًّا غير رسميّ». واللافت أنَّ الطرفين حرِصَا كل الحرص على إظهار وحدة همومهما الديمقراطية وأولوية التركيز على نشر ثقافة المجتمع المدني في سورية واعتبارها قاعدة انطلاقٍ لمسار التغيير، حتى أنَّ العديد من الناشطين والمثقفين لم يلمسوا أي فوارق جوهرية أو تناقضٍ بين «جمعية أصدقاء المجتمع المدني» غير المُرخَّصة، والتي كانت تخاطب الناس عبر البيانات

---

(١٠) بيان الـ ٩٩ مثقفًا هو البيان الذي صدر في ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، ووقَّع عليه العديد من الشخصيات المعروفة والمؤثرة، كأنطون مقدسي وبرهان غليون وصادق جلال العظم، والذي دعا إلى «إلغاء حالة الطوارئ والأحكام العُرفية المطبَّقة في سوريا من عام ١٩٦٣، وإصدار عفو عام عن كافة المعتقلين السياسيين والسماح بعودة المنفِيِّين وإرساء دولة القانون وإطلاق الحريات العامة والاعتراف بالتعدُّدية السياسية والفِكرية وحرية الاجتماع والصحافة والتعبير عن الرأي»، لم يُواجِه موقِّعو هذا البيان أية ضغوط أمنية، كما كان من المتوقع، بل استجاب الرئيس بشار الأسد له بالإفراج عن نحو ٦٠٠ معتقل سياسي في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ وأعلنتِ الخبرَ الصحف السورية الرسمية نفسها.

https://bit.ly/2E7woyW

(١١) https://bit.ly/3ckk62V

أو تصريحـات زعمائهـا، وبيـن إنشـاء المنتـدى ودوره فـي خلـق منـاخٍ للحـوار والتفاعـل المباشـر بيـن النـاس.

(٣) منـتـدى الحـوار الوطني

أعلنـتُ عـن تأسـيس «منتـدى الحـوار الوطنـي» فـي ١٣ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠٠. واسـتقوَيتُ مـن أجـل تمريـر هـذه الخطـوة، بعبـارةٍ مـن خطـاب القَسَـم لبشـار الأسـد: «لا يُبنَـى المجتمـع ولا يتطـور ولا يزدهـر بالاعتمـاد علـى شـريحة أو جهـة أو مجموعـة، بـل يعتمـد علـى تكامـل عمَـل الـكلِّ فـي المجتمـع الواحـد». وأضفـتُ إليهـا دعـوةً واضحـة للجميـع كـي يُسـهِموا فـي «الحـوار السـلمي والعلنـي والصريـح» الـذي يسـعى إلـى «الاقـتراب مـا أمكـن مـن الحقيقـة، التـي سـتُنير لنـا الطريـق فـي مسـيرتنا لبِنـاء وطـن القـوة والمنعـة والرفـاه».[١٢]

حظِـيَ افتـتاح المنتـدى باهتمـامٍ سياسـيٍّ واجتماعـي وإعلامـي كبيـر لعِـدَّة اعتبـارات منهـا حداثـة الفكـرة وجديتهـا ربطًـا بجـوع السـوريين للحـوار وتنامـي تَوقِـهم للمشـاركة في معالجة مشـكلاتهم وبناء مسـتقبلٍ أفضـل لبلدهـم، ومنهـا شـخصية المُحاضـر وموضـوع المحاضـرة، حيـث كنـتُ قـد دعـوتُ شـيخ المثقفيـن السـوريين أنطـون مقدسـي، لتقديـم المحاضـرة الأولـى عـن «المجتمـع المدنـي فـي سـورية» ليغـدو هـذا الاختيـار بمثابـة دعايـةٍ إعلاميـةٍ قويـة للمنتـدى.

زاد هـذه الدعايـة قـوة، الرسـائل التحذيريـة التـي وجَّهـتْها السـلطات

(١٢) بشـار الأسـد، خطـاب القَسَـم أمـام مجلـس الشـعب، دمشـق ١٧ تشـرين الأول/أكتوبـر ٢٠٠٠.

السـورية، عبـر صحيفـةٍ لبنانيـة،[١٣] قبـل موعـد الافتتـاح، تتَّـهم فيهـا «دُعـاة المجتمـع المدنـي فـي سـوريا باقتبـاس تجربـة أوروبـا الشـرقية فـي الإطاحـة بأنظمتهـا الحاكمـة» وتسـاءل «مصـدرٌ وثيق الصلـة بالنظام» علـى حـدٍّ وصـف الصحيفـة عـن «الهـدف الحقيقـي الكامـن وراء نيـة تأسـيس "جمعيـة أصدقـاء المجتمـع المدنـي" إذ يَسـعى أصحابهـا علـى حـدٍّ قولـه إلـى «إقامـة منتديـات ثقافيـة وسياسـية غيـر مُعلَنـة، ومـن المُرجَّـح أن تكـون أنديـةُ الروتـاري الماسـونية بينهـا».

بـدأ المُحاضـر المقدسـي حديثـه[١٤] بالسـؤال «هـل دمشـق مجتمـع مدنـي؟ ومَـن يحكـم مدينـة دمشـق؟» واسـتدرك واصفًـا: «إذا كانـت كل فئـة اجتماعيـة تعتبـر نفسـها أمـةً أو قـوة سـواء أكانـت حزبًـا أم منظمـةً سياسـية أو اجتماعيـة، لـكان الحكـم الراشـد هـو إدارة هـذه القـوى، عبـر مـا يُعـرف بتـوزع السـلطات» وأضـاف أنَّ «السـلطة المدنيـة ــ هـي المدينـة التـي تنتخـب حُكامهـا، وليـس مجمـوع الموظفيـن الذيـن يتـم تعيينهـم فـي الـوزارة والمحافظـة والبلديـة» ليَخلـص إلـى أنَّ «السـلطة التـي تحكـم دمشـق هـي عُرفيـة انقلابية، سـلطة دينية، سـلطة عشـائرية، سـلطة ثقافيـة، أمـا السـلطة المدنيـة فغائبة» ثـم خـتَم محاضرتـه مُحذِّرًا «طالمـا الشـعب تحـت الوصايـة، فالحاكـم يَعتـبر الشـعب قاصـرًا وعليـه أن يُلقِّـنه مـا يقـول، ومـن جُملـة مـا يُلقِّـنه، لا فصـول عـن المجتمـع

(١٣) «مصـدرٌ سـوريٌّ وثيـق الصلـة بالنظـام يـردُّ علـى دعـاة المجتمـع المدنـي فـي سـورية وجمعيـات الصداقـة والأصدقـاء»، المحـرر نيـوز، (بيـروت)، العـدد ٢٦٠، ٨-١٤ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠٠.

(١٤) أنطـون مقدسـي: «ضـرورة المجتمـع المدنـي»، المحاضـرة الافتتاحيـة فـي منتـدى الحـوار الوطنـي بتاريـخ ١٣ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠٠، **مـن أجـل مجتمـع مدنـي فـي سـورية، حـوارات «منتـدى الحـوار الوطنـي»**، مرجـع سـبق ذكـره.

https://bit.ly/2ZGf0bW

أنطـوان مقدسـي: مُفكـر سـوري، ومديـر مديريـة التأليـف والترجمـة والنشـر فـي وزارة الثـقافة السـورية سـابقًا.

المدنـي ولا المعلومـات الأدبيـة، بـل الأيديولوجيـة التـي يعتـقد أنـه يحكـم بهـا أو التـي تُوفِّـر لـه المسـوغات العقليـة والفكريـة والأخلاقيـة حتـى يحكـم، وطالمـا أنَّ الحُكـم علـى هـذه الشـاكلة، وطالمـا أنَّ الشـعب يُعتَـبر قاصـرًا، فـإنَّ بدايـة كل شـيء وكل عمـل يجـب أن يقـوم علـى تحريـر الشـعب والمجتمـع المدنـي، فالمجتمـع المدنـي هـو خيـر وسـيلة مـن جملـة وسـائل التغييـر الحقيقـي» وأشـار مُشـدِّدًا «إنَّ البعـض يعتبـرون المجتمـع المدنـي كأنـه حصـان طـروادة لقلـب نظـام الحكـم، لا، فنحـن نطلـب أقـل مـن ذلـك بكثيـر، أن نُنهِـيَ عهـد التهديـد وندخـل فـي حـوار، وهـذا مـا نطلبه، وهـذا باعتقـادي يكـون إذا امتـلك المثقفون الجـرأة فـي الحديـث، لأن نقطـة الضعـف هـي سـكوت المثقـف عـن الـكلام حتـى لا يُثيـر ردةَ فعـل السـلطة، والأفضـل أنَّ علـى المثقـف إذا تكلـم فـي دائـرة محـدودةٍ أن لا يمـدح ولا يـردح».

واللافـت أنـه وبقـدر مـا كان خطـاب المحاضـر أنطـون مقدسـي مُعتـدِلًا، بقـدر مـا عبَّـرتْ مداخـلات المشـاركين، بعـد تغييـب دورهـم طويـلًا، عـن مواقـف أكثـر حِـدَّة وعـن رغبـة عميقـة وحقيقيـة فـي وضـع المِلـح علـى الجـرح، وفـي ممارسـة نقـدٍ جـديٍّ وجـذري للأوضـاع السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة السـورية.

اسـتمرَّتْ جلسـات المنتـدى علـى مـدى أسـابيع، وكان محـور «إحيـاء المجتمـع المدنـي» أول المحـاور الأربعـة التـي تـم طرحهـا فـي المنتدى. وقـد ألقـى فـي هـذا الصـدد أسـتاذ الفلسـفة فـي جامعـة دمشـق أحمـد برقـاوي محاضـرةً جديـدة[١٥] بعـد محاضـرة مقدسـي، عنوانهـا «المجتمـع المدنـي فـي إطـار تطـور الدولـة والمجتمـع» أوضـح فيهـا «أنَّ الدولـة

(١٥) د. أحمـد برقـاوي، «المجتمـع المدنـي فـي إطـار تطـور الدولـة والمجتمـع»، **المصـدر السـابق**، ص ١٨.

فـي الوطـن العربـي تقـع فـي تضـادٍّ مـع المجتمـع، أو أنَّ تطـور المجتمع العربـي فـي مُجمـل بنـاه الاقتصاديـة والثقافيـة والاجتماعيـة صـار أكثـر تقدمًـا مـن بِنـية الدولـة نفسـها، وبالتالـي صـارت الدولـة قميصًـا أضيـق بكثيـر مـن المجتمـع. يُضـاف إلـى ذلـك أنَّ هنـاك واقعـةٌ مسـتمرة حتـى أوائـل القـرن العشـرين، ألا وهـي أنَّ الأمـة الواحـدة غـدت مجموعـة مـن "الـدول" أو "السـلطات"، ومـع أنَّ كل دولـة تفـرض سـلطة، لكـن ليـس بالضـرورة أنَّ كل سـلطة هـي دولـة، فالسـلطة المتناقضـة مع تغير البُنـى الاجتماعيـة لا يمكنهـا أن تسـتمر إلا بآليـاتِ قهـرٍ واسـتبداد حتـى حـدود القهـر والاسـتبداد القصـوى». وخلَـص برقـاوي إلـى نتيجـة أنـه «كلمـا ازدادت حركـة المجتمـع نحـو الأعلـى، أي نحـو التقـدم، ازداد تعسُّـف الدولـة ذات البنيـة المتخلفـة بسـبب خشـيتها مـن الجديـد، وأنَّ طـرح المجتمـع المدنـي الآن فـي الوطـن العربـي بمضمونـه هـو تعبيـرٌ عـن احتجـاجٍ علـى بنيـة الدولـة».

وجـاءت المحاضـرة الثالثـة للباحث محمد سـعيد الحلبـي[١٦] بعنوان «دور الجمعيـات الأهليـة فـي التنميـة» مُحـاولًا التأكيـد علـى أهميـة الترابـط الصحـي بيـن المشـاركة الشـعبية ونجـاح خطـط التنميـة، ومُعلِنًـا «إيمانًـا راسـخًا بأهميـة دور المشـاركة المجتمعيـة للجمعيـات والهيئـات الأهليـة التطوعيـة فـي تنفيـذ أهـداف وبرامـج التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة، والتـي يتطلـب نجاحهـا وجدواهـا، تحقيـق شـرطَين أساسـيين، أولهمـا، المشـاركة الشـعبية لمختلـف شـرائح المجتمـع، وثانيهمـا، الشـفافية بيـن أجهـزة ومؤسسـات الدولـة والجمعيـات والهيئـات الأهليـة التطوعيـة».

وأضـاف بأنـه «يجـب ألا يغيـب عـن ذهننـا أننـا فـي سـورية ومنـذ

(١٦) الدكتـور محمـد سـعيد الحلبـي، «دور الجمعيـات الأهليـة فـي التنميـة»، **المصـدر السـابق**، ص ٢٩.

عـام ١٩٦٣ اتخذنـا نظامًـا هيكليًّـا يَعتــبر أنَّ الدولـة هــي كل شــيء فــي حيـاة النـاس، وذلـك لأسـباب ومعاييـر وفلسـفات وتقاليـد ننتــهجها الآن، ثـم ظهـرتِ الحاجـة لمشـاركة المجتمـع. فالنظـام الشـمولي لا يعتـرف بأهميـة الجمعيـات المسـتقلة والمدنيـة، ومـن هنـا جـاءت المنظمـات الشـعبية كبديـلٍ لهـذه التشـكيلات التـي نُحيِـي ذكرهـا الآن».

وتــلا ذلــك، محاضــرة أخيــرة فــي هــذا المحــور،[١٧] للباحــث محمــد جمــال بــاروت، بعنــوان «مشــكلات الجمعيــات الأهليــة العربيــة فــي إطـار العَولَمـة» عـرَّج فيهـا علـى مـا سـمَّاه «تعقيـدات تُواجـه عمـل المنظمـات العربيـة فـي إطـار تعقيـدات العَولَمـة ونتائجهـا» فالموقـف برأيـه «ليـس فـي أن نكـون مـع أو ضـد أو مـا بيـن، بـل أن نفكـر بالفُـرص والمخاطـر التـي تُتيحهـا عمليـة العَولَمـة باعتبارهـا صيـرورةً موضوعيـة». وخلـص إلـى التنبيـه مـن «مشـكلة التنميـط، أي محاولـة تنميـط عمـل الجمعيـات غيـر الحكوميـة، ليـس العربيـة فقـط وإنمـا العالميـة، وفـق وَصفـة الليبراليـة الجديـدة».

ولعــلَّ تبايــن قــراءات هــؤلاء المحاضريــن لمفهــوم المجتمــع المدنــي وحـدود دوره فـي عمليـة التغييـر، زاد فـي اتسـاع واحتـدام الجـدل الدائر فـي الأوسـاط السياسـية والثقافيـة السـورية حـول أصـول هـذا المفهـوم وحقيقتـه، حيـث بَقِـيَ هـذا المحـور فـي الموقـع الأكثـر تميُّــزًا وأهميـةً علــى الرغــم مــن انطــلاق المحــور الثانــي لأعمــال المنتــدى والــذي تخصَّـص بقـراءةٍ نقديـة للاقتصـاد القائـم وسُـبل معالجـة مشـكلاته.

شــملت المحاضــرات الاقتصاديــة دراســات، قدَّمــتُ أنــا إحداهــا، وقــدَّم

(١٧) محمـد جمـال بـاروت، «مشـكلات الجمعيـات الأهليـة العربيـة فـي إطـار العولمـة»، **المصـدر السـابق**، ص ٣٧.

الثلاثَ الأخريات كلٌّ من الدكتور نبيل مرزوق، والدكتور رياض الأبرش بعنوان «محاولات الإصلاح الاقتصادي في سورية، الحقيقة الضائعة بين الحلم والوهم»،[١٨] والدكتور عارف دليلة بعنوان «متطلبات الإصلاح التي يطرحها واقع ومشكلات قطاع التجارة الخارجية».[١٩] وكانت محاضرتي بعنوان «كيف نبني اقتصادًا وطنيًّا؟».[٢٠] وقد حرصنا جميعنا على إظهار التنوع القائم في وجهات نظرنا ومرجعياتها تجاه هذه المسألة، بين اليسارية والراديكالية والليبرالية... إلخ.

في أواخر عام ٢٠٠٠ ومطلع عام ٢٠٠١ تم تأسيس «لجنة منتدى الحوار الوطني»[٢١] لإدارة شؤون المنتدى، وقد تألَّفتْ من ١٤ عضوًا من مختلف التكوينات الفكرية والسياسية منهم: رياض سيف، وليد البني، محمد كمال اللبواني، رضوان زيادة، يوسف سلمان، محمد سامر عطري، حسن سعدون، محمد ماهر ظاظا، غالب إبراهيم، يوسف مريش، فواز تللو، المحامية تيماء الجيوش، منير درويش، عز الدين جوني.

كان الجو في مجلس الإدارة ديمقراطيًّا ومُنسجمًا كفريق عمل، رغم

---

(١٨) الدكتور محمد رياض الأبرش، «محاولات الإصلاح الاقتصادي في سورية: الحقيقة الضائعة ما بين الحلم والوهم»، **المصدر السابق**، ص ٤٥.

(١٩) الدكتور عارف دليلة، «متطلبات الإصلاح التي يطرحها واقع ومشكلات قطاع التجارة الخارجية»، **المصدر السابق**، ص ٥٤.

(٢٠) رياض سيف، «كيف نبني اقتصادًا وطنيًّا؟»، **المصدر السابق**، ص ٥٨.

(٢١) هم: رياض سيف (عضو في مجلس الشعب، دمشق)؛ وليد البني (طبيب، التل)؛ محمد كمال اللبواني (طبيب، الزبداني)؛ رضوان زيادة (طبيب وكاتب وباحث، داريا)؛ يوسف سلمان (أستاذ جامعي ومترجم وشيوعي، اللاذقية)؛ محمد سامر عطري (باحث في العلوم السياسية، دمشق)؛ حسن سعدون (ناشط، الحسكة)؛ محمد ماهر ظاظا (محامي، دمشق)؛ غالب إبراهيم (كاتب وناشط، السويداء)؛ يوسف مريش (ناشط مسيحي)؛ فواز تللو (مهندس وناشط، دمشق)؛ تيماء الجيوش (محامية وناشطة)؛ منير درويش (كاتب وناشط)؛ عز الدين جوني (أستاذ جامعي واقتصادي)، **المصدر السابق**، ص ١٤٦.

تنـوع وتعـدد انتمـاءات أعضائـه. وكانـت القـرارات تُـتَّـخذ بمـا يُشـبه التوافـق الجماعـي، سـواء فـي اختيـار المحاضـر أو موضـوع المحاضـرة، ولـم أبـادر أبـدًا إلـى اتخـاذ أيِّ قـرارٍ بمُفـردي، هـذا إذا اسـتثنينا مـا كانت تُسَـبِّبه عقليـة كمـال اللبوانـي مـن إربـاكات، بسـبب مَيلـه للتشـكيك بـكل النـاس واستسـهال وصفهـم بعمـلاء للمخابـرات وأحيانًـا منحهم رتـبًا عسـكرية أمنيـة.

اتجهـتْ «لجنـة منتـدى الحـوار الوطنـي» نحـو فتـح محـورٍ ثالـث يتنـاول قضايـا سياسـية مُحـدَّدة، مثـل «محـور الحقـوق» الـذي افتُـتح بمحاضـرة للدكتـور شـبلي الشـامي،[٢٢] وكانـت بعنـوان «حـق القـول»، وقـد حظِيَـتْ باهتمـام إعلامـي متميـز، مـن قِبَـلِ وكالات الأنبـاء العالميـة، والفضائيـات العربيـة والأجنبيـة التـي قامـتْ بتغطيـةٍ مباشـرة لهـا ومـن قِبَـلِ الصحـف العربيـة والأجنبيـة، مـا شـكَّل دعمًـا للمنتـدى، عـزَّز حضـوره داخليًّـا وعربيًّـا وعالميًّـا، ليغـدو أشـبه ببوابـةٍ لمخاطبـة الـرأي العـام المحلـي والعربـي.

تلـتْ محاضـرة الشـامي محاضـرةَ أسـتاذ الفلسـفة فـي جامعـة دمشـق الدكتـور يوسـف سـلامة بعنـوان «الإصـلاح السياسـي: معناه وحـدوده»[٢٣] مـا جعـل النقـاش فـي المنتـدى يتحـول شـيئًا فشـيئًا نحـو الحقـل العملي والملمـوس، ونحـو تقديـم أفـكارٍ وحلـول، ليسـت نظريـةً فقـط، بـل وتطبيـقيَّةً أيضًـا لدَفـع مسـار الإصـلاح السياسـي والاقتصـادي قُدمًـا إلـى الأمـام، ولتتحـوَّل تاليًـا الحاجـةُ للإصـلاح فـي سـورية مـن فكـرةٍ وشـعارٍ دعائـيٍّ إلـى قضيـة حيويـة وسـاخنة.

---

(٢٢) الدكتور شـبلي الشـامي، «حـق القـول»، **المصدر السابق**، ص ٦٨.

(٢٣) أ.د. يوسف سلامة، «الإصلاح السياسي: معناه وحدوده»، **المصدر السابق**، ص ٨٣.

(٤) حركة السِّلم الاجتماعي

وصفت مجلة **نيوزويك** الأمريكية «منتدى الحوار الوطني» بأنه «بداية حركة التغيير القادمة في سورية»، وقال كاتب المقال روي غوتمان[٢٤] إنَّ «رياض سيف أصبح يُشكِّل تحديًا للسلطات السورية، إذ يمكنه أن يُسرِّع الإصلاحات وبإمكانه هو أن يدفعها إلى توقفٍ مُثير». وغدا «منتدى الحوار الوطني» ملتقى لكل السياسيين السوريين من كل ألوان الطيف، بل إنه بات مُتنفَّسًا بعد سنوات وعقود من الصمت، كما ازداد أعداد الحاضرين وجرأتهم في المنتديات الجديدة، كـ«منتدى جمال الأتاسي»، و«منتدى حقوق الإنسان» الذي أداره خليل معتوق، لنشهد انتِعاشًا غير مسبوق لنوى تجمُّعاتٍ ثقافية أو لمنتديات قديمة مثل «المنتدى الحضاري»، و«منتدى الحوار الثقافي»، ثم انتشارًا هائلًا لظاهرة المنتديات في سورية، ويُقال أنَّ عددها قد تجاوز في نهاية العام ٢٠٠٠ مئة وسبعين منتدى في كل أرجاء البلاد.[٢٥]

بدأت الأحداث تتسارع في بداية الألفية الجديدة، ربطًا بتواتُر ظهور المنتديات وانتشارها في مختلف المدن السورية، إذ صدَر بيان عن المحامين السوريين ١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ يُطالب بمراجعةٍ دستورية شاملة وبإلغاء القوانين والمحاكم الاستثنائية وإطلاق الحريات العامة. تلاه في ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ تسرُّب الوثيقة

---

(٢٤) Roy Gutnan, "Waiting for his moment", *Newsweek*, April 23, 2001

المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٢٥) وائل السواح، «مقدمات الثورة السورية (٥) ـ جدل السياسة والثقافة: لمَنِ الأولوية؟»، **صفحات سورية**.

http://ixiria.alsafahat.net/2018/08/10/

الأساسية لـ«لِجان المجتمع المدني» إلى الصحف ووسائل الإعلام،[٢٦] تحت اسم «بيان الألف»، وكان من أبرز المُوقِّعين عليها والدَّاعين إليها ميشال كيلو وعبد الرزاق عيد وصادق جلال العظم وعارف دليلة. وتلاه أيضًا إعلان منتدى جمال الأتاسي في ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ بأنه منتدى مستقل عن الأحزاب وعُيِّنَ المحامي حبيب عيسى ناطقًا باسمه. وتُوِّجَ الأمر في ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ بإصدار عفوٍ عامٍّ وواسع من بشار الأسد، شمل مئات المعتقلين السياسيين من جميع التيارات الإسلامية واليسارية.[٢٧]

وبينما الحال كذلك، فقد بدأ الكثير من المهتمين بالشأن العام يُعوِّلون على «منتدى الحوار الوطني»، ليس فقط من أجل حراكٍ مدني ولكن كحراك سياسي أيضًا، خاصَّةً بعد اتخاذه شكلًا مؤسساتِيًّا وتشكيل «لجنة منتدى الحوار الوطني» لإدارة شؤونه.

وقد زاد الأمر وضوحًا الإعلانُ عن تشكيل أحزاب سياسية جديدة، كحزب «التجمع من أجل الديمقراطية والوحدة» الناصري، و«الحزب الوطني الديمقراطي» الذي أسَّسه كريم الشيباني المقرب من السلطة، عبر مؤتمرٍ صحفي عُقِدَ في ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، ليُعطي كل ما سبق مُؤشِّرًا على أنَّ القيادة السياسية السورية قد قرَّرتْ توسيع هامش النقد السياسي والحزبي، ربطًا بترويج شائعات من نوع اقتراب إصدار قانون للأحزاب، ما شجَّعني على إثارة

---

(٢٦) روزنامة الأحداث السورية في عهد بشار.

https://bit.ly/2Rwnii5

(٢٧) **من أجل مجتمع مدني في سورية ـ حوارات «منتدى الحوار الوطني»**، مصدر سبق ذكره، ٢٠٠٤، ص ٥.

https://bit.ly/2ZGf0bW

فكـرة الاسـتعداد للتعاطـي مـع هـذا المسـتوى مـن النشـاط، فأعلنـتُ أمـام المجتمعيـن بأنـي سـأقدم بعـد أسـبوعين، مشـروعًا للمناقشـة حـول تأسـيس حـزب سياسـي، بمـا فـي ذلـك تصـور عـن برنامـج الحـزب والتفاصيـل التنظيميـة. وقـد اعتقـدتُّ أنَّ عـددًا مـن المثقفيـن وأسـاتذة الجامعـة والسياسـيين المُخضرَميـن سـيكون متحمسًـا للفكـرة وسـوف يسـاعدونني فـي إنجـاز هـذا المشـروع، لكـن أملـي خـاب ومحاولاتـي تحفيـز يوسـف سـلامة ورضـوان زيـادة وأحمـد برقـاوي بـاءتْ بالفشـل، ولـم أتلـقَّ منهـم التجـاوب الـذي كنـت أتوقعـه.

وعندمـا اقـترب الموعـد الـذي حدَّدتُـه ولـم يكـن عنـدي، لا التصـور الكامـل لوضـع المشـروع بأفـكارٍ واضحـة، ولا الجـرأة لخـوض غمـار هـذه التجربـة مُنفـردًا، فقـد أصابنـي هـذا الإربـاك فـي صحتـي حيـث عانيـتُ لمـدة ثلاثـة أيـام مـن حُمَّـى غيـر معروفـةِ الأسـباب، لكـنَّ تراجعهـا أنعـش هِمَّـتي وانعكـس بشـحناتٍ مـن القـوة والثقـة بالنفـس، فاجتهـدتُّ قبـل الموعـد بقليـل لإنجـاز هـذا المشـروع، مُعتمِـدًا علـى نفسـي أساسًـا وبنسـبة كبيـرة، حتـى يمكـن اعتبـار الفكـرة والمشـروع، مـع ورقـة مبـادئ أوليـة تتَّـجه نحـو تأسـيس حـزبٍ سياسـيٍّ جديـد ــ هـي بمثابـة مُنجَـزٍ شـخصيّ، حمَـل اسـم «حركـة السِّـلم الاجتماعـي» عرضتُهـا أمـام الحاضريـن فـي جلسـة «منتـدى الحـوار الوطنـي» يـوم الأربعـاء بتاريـخ ٣١ كانـون الثاني/ينايـر ٢٠٠١ واسـتمرَّت النقاشـات الجـادَّة والحـادَّة حولهـا علـى مـدى يوميـن، وكان محورهـا الربـط بيـن السـلام الاجتماعـي والتغييـر الاقتصـادي والسياسـي، والتأكيـد علـى أنـه لا يمكـن تحقيـق نهـوض اقتصـادي أو تنميـة اجتماعيـة أو ديمقراطيـة سياسـية دون اسـتعادة السـلم الاجتماعـي المَبنـيِّ علـى إعـادة التـوازن بيـن الفئـات العِرقيـة والدينيـة، وبيـن المواطنيـن ومؤسسـات الدولـة، وبيـن الأجيـال فـي علاقـات الحيـاة اليوميـة، وذلـك اسـتنادًا إلـى ثلاثـة

مُرتكَزات ومفاهيم أساسية، تبدأ بمفهوم المواطنة والانتماء الوطني، ثم مفهوم حقوق الإنسان، ثم مفهوم المجتمع المدني.

وقد طلَب ما يقرب من الخمسين شخصًا دَورًا للتعليق والنقاش حول هذا المشروع، ليستمر الحوار حتى وقت متأخر من الليل ما اضطرنا لإكماله في اليوم التالي.

قرَأ النظام مشروع تشكيل «حركة السِّلم الأهلي»، وازدِياد نشاطي الدعاوي والإعلامي والحركي بمُتواليةٍ هندسية تُشير إلى أنَّ ما أتوخَّاه قد يُولِّد قوةً اجتماعية يُحسَب حسابها، وغالبًا ما ذهب هؤلاء إلى الاعتقاد بأنَّ هذه القوة ستكون في موقع المعارضة للنظام السياسي القائم، ليذهب آخرون إلى حدِّ القول بأنَّ ذلك سوف يُكرِّر تجربة فاليسا البولونية. وفي ظِل هذه الأجواء لم أُفاجَأ أبدًا عند استِدعائي بعد عشرة أيام، أي في صبيحة يوم ١٠ شباط/فبراير ٢٠٠١ من قِبَلِ رئيس مجلس الشعب للاستفسار عن بعض الجُمل والعبارات الواردة في ورقة السِّلم الاجتماعي، مُشدِّدًا على ضرورة تقديم توضيحٍ خطيٍّ بهذا الشأن، قدمتُه له في اليوم التالي.[٢٨]

بعد ثلاثة أيامٍ من تقديم التوضيح، طلَب المحامي العام في دمشق من رئيس مجلس الشعب اتخاذ الإجراءات اللازمة لمَنحه الإذن بمُلاحقتي أصولًا، بِناءً على الأمر العُرفي رقم ٣٠ بتاريخ ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠١ الصادر عن نائب الحاكم العرفي.[٢٩] وقد لاحظتُ هنا

---

(٢٨) رياض سيف، «تجربتي في مجلس الشعب: أوهام الديمقراطية في ظل الاستبداد (٣)»، **السفير**، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٧.

https://bit.ly/3iMDhVz

(٢٩) تسلسلت الوقائع على النحو التالي:

(١) توجيه كتاب من المحامي العام الأول عن طريق وزير العدل إلى وزير الداخلية مؤرخ في

توخِّي السرعة والتعجُّل في اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة لرفع الحصانة عني قبل يومٍ واحد من افتتاح الدورة التشريعية للمجلس، وطبعًا يحِقُّ لرئيس المجلس، حسب المادة ٢١ أ، رَفع الحصانة في فترة عدم انعقاد دورات المجلس في حال الجُرم المشهود.[٣٠] هذا وعلى الرغم من عدم توفُّر حالة الجُرم المشهود، وأيضًا عدم الحاجة والضرورة للاستعجال في اتخاذ هذا القرار ما دامتْ دورة المجلس ستنعقد في اليوم التالي، فقد بدا لي أنَّ السلطة كانت

---

١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٢ يتضمن ورود مذكرة مؤرخة في ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ صادرة عن عضو مجلس الشعب رياض سيف المؤرخة (بالبريد المغفل) ويطلب إعمال أحكام المادة ٨ من قانون حالة الطوارئ رقم ١ لعام ١٩٦٢ وتعديلاته، وإحالة وزير العدل إلى وزير الداخلية المؤرخة في ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٢) الأمر العرفي رقم ٢/٩٣٠ تاريخ ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠١ الصادر عن نائب الحاكم العرفي وزير الداخلية المتضمن أنَّ قضية رياض سيف والأفعال المنسوبة إليه تُستَثنى من اختصاص القضاء العسكري.

(٣) كتاب رئيس مجلس الشعب المؤرخ في ١٥ شباط/فبراير ٢٠٠١ بالموافقة على تحريك الدعوى العامة بحق رياض سيف بدون توقيف.

(٤) استجواب رياض سيف من قِبَلِ قاضي التحقيق بتاريخ ٣ آذار/مارس ٢٠٠١ حول الأفعال المنسوبة إليه بادعاء النيابة العامة تركه، وبقاء الدعوى مفتوحة ستة أشهر دون أن تُفصَل، كسيف مُسلَّطٍ يمكن استعماله في الوقت المناسب.

المصدر: حسن عبد العظيم، مذكرة بالدفاع الشفوي عن المتهم رياض سيف، من وكلاء الدفاع، أحكام المادة ٨ من قانون حالة الطوارئ رقم ١ لعام ١٩٦٢ وتعديلاته وإحالة وزير العدل إلى وزير الداخلية المؤرخة في ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠١.

https://bit.ly/2ROYzG2

(٣٠) «فالجُرم المشهود عرَّفته المادة ٢٨ أصول جزائية بأنه الجرم الذي يُشاهَد حال ارتكابه أو عند الانتهاء من ارتكابه، ويلحق به الجرائم التي يُقبض على مرتكبيها بناءً على صراخ الناس أو يضبط معهم أشياء أو أسلحة أو أوراق يُستدل منها أنهم فاعلو الجرم خلال ٢٤ ساعة من وقوعه ولا بد أن يتم تنظيم ضبط أصولي من قِبَلِ الضابطة وتقديم إخبار يحرره صاحبه ويوقع على كل صفحة منه كما تنص على ذلك المواد ٢٥ و٢٦ و٢٧ أصول جزائية. وفي حالة الموكل، لم ينظم ضبط بالفعل المنسوب إليه ولم يقدم إخبار خطي موقع من شخص معروف، كما لم تتوفر حالة الجرم المشهود أصلًا حسب تعريفه»، **المصدر السابق**.

https://bit.ly/2ROYzG2

متعمـدةً هـذه السـرعة والعجلـة لعـدم إعطـاء فرصـةِ مناقشـة طلـب رفـع الحصانـة خـلال جلسـات المجلـس، ولإنجـاز كل الترتيبـات قبـل ذلك وهـذا مـا حصـل فعـلًا، حيـن تـلا رئيـس المجلـس قـراره بالموافقـة علـى رفـع الحصانـة عنـي، قُبَيـلَ انتهـاء الجلسـة، مـن دون إفسـاح المجـال لأي اعتـراضٍ أو نقـاش.[٣١]

مثلـتُ أمـام قاضي التحقيق الأول بدمشـق، بالدعوة رقـم ٢٠٠١/٩٧١، وقد أبلغنـي أنـه اسـتنادًا إلـى مـا ورد فـي ورقـة «حركـة السِّـلم الاجتماعـي»، وجَّـه إلـيَّ تُهَمًـا بجُـرم الاعتـداء الـذي يسـتهدف تغييـر الدسـتور بطـرقٍ غيـر مشـروعة، وإثـارة النَّعـرات المذهبيـة وتشـكيل جمعيـة سـرية لأغـراضٍ مخالفـة للقانـون وتولِّـي منصـب رئيسـها، وعقـد اجتماعـات مخالفـة للقانـون. وقـد اسـتند في هذه التُّـهَمِ الأربـع على فقـراتٍ وردتْ فـي الـورق، حيـث اسـتندتْ «تهمـة تشـكيل جمعيـةٍ سـرية» و«تهمـة الاعتـداء الـذي يسـتهدف تغييـر الدسـتور بطـرق غيـر مشـروعة» إلـى اقـتراحي فـي «ورقـة السِّـلم الاجتماعـي» بـ«تشـكيل جمعيـةٍ تأسيسـية تعمـل علـى صياغـة دسـتورٍ جديـد للبـلاد ينسـجم مـع الاحتياجـات الراهنـة والمسـتقبل المنظـور، يُطـرَح علـى اسـتفتاءٍ شـعبيّ». بينمـا تـم ربـط «تهمـة عقـد اجتماعـات مخالفـة للقانـون» بلقـاءات «منتـدى

(٣١) «فـإنَّ إجـراء رفـع الحصانـة وإجـراء التوقيـف الاحتياطـي، مخالـف للمـادة ٦٧ مـن الدسـتور والمادتيـن ٢١ و٢٣ مـن النظـام الداخلـي لمجلـس الشـعب، ومـن المفارقـات الملفتـة للنظـر، أن إجراء رفـع الحصانـة قـد تـم بتاريـخ ١٥ شـباط/فبراير ٢٠٠١ وإنَّ النظـام الداخلـي للمجلـس ينـص فـي المـادة ٢١-أ علـى أنَّ المجلـس يعقـد ثـلاث دورات عاديـة فـي السـنة، وأن الـدورة الثانيـة مـن منتصـف شـهر شـباط وفـي نهايـة شـهر آذار، ويسـتنتج مـن ذلـك أنَّ رفـع الحصانـة تـم فـي فتـرة انعقـاد المجلـس والإذن لا بـد أن يصـدر عـن المجلـس فـي دورة الانعقـاد، لأن إذن رئيـس المجلـس يكـون فـي غيـر أدوار الانعقـاد كمـا تنـص المـادة ممـا يجعـل الإجـراء معدومًـا مـن أساسـه لمخالفتـه أحـكام الدسـتور وتكـون جميـع الإجـراءات اللاحقـة مـن تحريـك الدعـوى، والاسـتجواب والتوقيـف الاحتياطـي والاتهـام باطلـة ومعدومـة لأنَّ «مـا بُنِـيَ علـى الباطـل فهـو باطـل»، **المصـدر السـابق**.

الحوار الوطني» التي كانت تُقام في منزلي، وهي لقاءات مفتوحة للجميع بمَن فيهم أعضاء حزب البعث ورجال الأمن. في حين تم تسويغ تهمة «إثارة النعرات المذهبية» من خلال سوق عباراتٍ تصف حقيقة التنوع والتعددية في المجتمع السوري، وكانت تنصُّ بالحرف على «أنَّ الشعب السوري يمتاز بتعدديةٍ عرقية ودينية لكون سورية مَهدًا للأديان السماوية والحضارات القديمة. كما أنها كانت على مدى التاريخ حضنًا وملاذًا لمُهاجرين لجؤوا إليها هاربين من ظُلمٍ لحق بهم في بلدانهم، أو طلبًا للعيش الهانئ والرزق الوفير لكثرة خيراتها ورحابة صدر أهلها. فنتج عن ذلك لوحة فسيفسائية جميلة تنوَّعتْ ثقافاتها وأنتجتْ أجيالًا مُتآلفة، تمتَّعتْ بالإبداع والحيوية والتنوع الحضاري. وكي يبقى هذا التنوع ميزةً إيجابية ومصدرًا من مصادر قوة الشعب السوري، يتوجَّب علينا الحفاظ على جمال تلك اللوحة من خلال علاقاتٍ متوازنة تُوفِّر لكل فئة المناخ الضروري الذي تتألق فيه خصوصياتها وميزاتها التي هي مَبعث افتخارها، فتساهم في إغناء وتطوير الوطن المشترك الذي يُشكِّل الإطار المقدس الذي يحتضن كل الفئات».

وقد بادرتُ إلى مخاطبة قاضي التحقيق الأول ردًّا على ما تم توجيهه لي من اتهاماتٍ في جلسة التحقيق بتاريخ ٣ آذار/مارس ٢٠٠١، مُوضِّحًا وجهة نظري عن ملابسات هذه القضية،[٣٢] حيث اعتبرتُ نفسي بريئًا من كل التُّهم، وأنَّ إعلاني لورقة المبادئ موضوعِ القضية، بتاريخ ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، يستند إلى المُعطيات التالية:

- كوني عُضوًا منتخبًا في مجلس الشعب، فإنَّ من واجبي

(٣٢) الردُّ على اتهام قاضي التحقيق الأول بدمشق، بتاريخ ٣ آذار/مارس ٢٠٠١.
https://bit.ly/35Z1vrK

العمل بكل الوسائل المشروعة على تصحيح الأخطاء التي تعترض تقدم الوطن وازدهاره، والمساهمة في عملية البناء والتطور بما فيه خير الوطن والمواطنين، مستندًا إلى المادة ٥٢ من الدستور، التي تنص على ما يلي: «عُضو مجلس الشعب يُمثِّل الشعب بأكمله ولا يجوز تحديد وكالته بقيدٍ أو شرط، وعليه أن يُمارسها بهَديٍ من شرفه وضميره».[٣٣]

- إنَّ ما جاء في خطاب القَسَم للسيد رئيس الجمهورية يُبيِّن بشكلٍ واضح ما تضمنه من رغبةٍ للإصلاح في كل مجالات حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لتحقيق أهدافنا في تحديث الدولة وتحسين الوضع المعاشي للمواطنين، ثم إنَّ ما أُبلِغتُه من نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام في أواخر الشهر الثامن من عام ٢٠٠٠ عن قُرب إصدار قانونٍ جديد يسمح ويُنظِّم تأسيس أحزاب جديدة وتوسيع قاعدة «الجبهة الوطنية التقدمية» والسماح لوجود أحزابٍ معارضة وطنية خارج إطار الجبهة بغيةَ خلق المنافسة الضرورية لتفعيل الحياة السياسية في سورية.

- عدمُ ممانعة أجهزة السلطة والدولة لنشاطات البَدء بتشكيل أحزابٍ جديدة، من قِبَلِ السيد كريم الشيباني الذي طرَح مشروع حِزبه الجديد وعقَد أحدَ اجتماعاته التأسيسية في المركز الثقافي العربي التابع لوزارة الثقافة، وكذلك حزب «التجمع العربي الديمقراطي» الذي أعلن عن برنامجه وأسماء المؤسسين وانتخاب أمينٍ عامٍّ له، مما يُوحي بمناخٍ مُتفهِّمٍ لهذه النشاطات مع قرب صدور قانونٍ جديد للأحزاب يُفعِّل الحياة السياسية في سورية.

---

(٣٣) المصدر السابق.

- إنَّ ما تقدَّمتُ به في مشروع تأسيس «حركة السِّلم الاجتماعي» ينطلق مما ورد في الفقرات السابقة، وحرصًا مني على التقيُّد بالدستور والقوانين فقد بيَّنتُ بشكلٍ واضح في العنوان أنَّ ما أقدِّمه هو مجرد مبادئ أولية للحوار غير مُلزمة لأحد، وهي ناتجة عن اجتهادٍ شخصيّ، وطلبتُ من الأخوة المواطنين السوريين تقديم اقتراحاتٍ مكتوبة تُسهِم في تصويب الأفكار وإغنائها، ووَرد في السطر الأخير أنَّ اللغة الوحيدة بيننا هي لغة الحوار السِّلمي والعلني والمترافق مع حسن النوايا من أجل تحقيق هدفٍ مشترك يتمثَّل ببناء دولةٍ عصرية قوية وشعبٍ يَنعم بالرفاه.

ورغم تقديم كل تلك التوضيحات التي قدَّمتُها وشرح وتفسير دوافعي الوطنية والمشروعة لما قمتُ به، بَقِيَ ملفي مفتوحًا على الأسوأ، انسجامًا مع طبيعة السلطة التي لم ولن تتقبَّل أيَّ أفكار جدية وصادقة لنقل البلاد نحو التحديث والتطوير الحقيقيَّين، والتي وجَّهتْ أتباعها للقيام بحَملةٍ مُغرضة ضد رياض سيف على أنه يحاول تكوين حركة شعبية واسعة لإضعاف البلد وتعميق أزماته.

(٥) توقُّف نشاط منتدى الحوار الوطني

في ٧ شباط/فبراير ٢٠٠١ ألقى د. رضوان زيادة محاضرةً بعنوان «المأزق السياسي وإشكالية التغيير الديمقراطي في سوريا»[٣٤] وهي أول محاضرةٍ تَطرح سيناريوهات التحول الديمقراطي

(٣٤) د. رضوان زيادة، «المأزق السياسي وإشكالية التعثُّر الديموقراطي في سوريا»، **من أجل مجتمع مدني في سورية ـ حوارات «منتدى الحوار الوطني»**، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨. https://bit.ly/2ZGf0bW

المستقبلِيَّة في سورية، واحتدمتِ المناقشات واحتدَّتْ حولها، خاصَّةً مع ازدياد حضور البعثِيِّين من فرع جامعة دمشق. وأضاف جرعةً من الحِدَّة والتوتر حضورُ أحد الصحافيين الأميركيين الذي طلَب الكلام ليُثني على هذه التجربة السورية، وليقول: إنَّ هذه التجربة لا مثيل لها في الولايات المتحدة بحُكم سيطرة وهيمنة وسائل الإعلام والشركات العملاقة، لكنَّ الدكتور البَعثي فيصل كلثوم قاطعه بعنفٍ وحِدَّة غريبَين ومفاجئَين، مُتسائلًا عما إذا كانت هذه المحاضرة تُمَثِّل ورقة وطنيةً أم أميركية؟ وهنا علا صياح البعثيين الآخرين مُطالبين بطَرد هذا الصحافي الأميركي مُتهمين إيَّاه بأبشع النعوت.

في البداية، لَقِيَ حضور «البعثيين» لجلسات المنتديات وخصوصًا جلسات «منتدى الحوار الوطني» ومشاركتهم في النقاش صدًى طيبًا، وترحيبًا من جميع الحضور، على أساس أنه يخلق حوارًا ولو بشكلٍ غير مباشر بين المجتمع والسلطة، بيد أنَّ هذه المناقشات، ومع مرور الوقت، كانت تَخرج عن مسارها الطبيعي والهادئ وغالبًا بشكل مُفتَعل ومقصود، لتُصبح هجومًا على آراء المحاورين وتجريحًا شخصيًّا بهم، ثم تمادت لتُصبح تشكيكًا في وطنية وغاياتِ «أصحاب المنتديات» كما صار يُطلق عليهم. والقصد توفير الذرائع والمُسوِّغات لكَبح نشاط المنتديات تمهيدًا لإغلاقها.

في اليوم التالي لمحاضرة الدكتور زيادة، جرى الإعلان عن شروطٍ أمنية لتقييد نشاط المنتديات، إذ طُلِبَ من المسؤولين عن تنظيم هذه المنتديات تقديم اسم المُحاضر ونصِّ المحاضرة وأسماء الحضور، إلى غير ذلك من المعلومات، (إلى شعبة الأمن السياسي) قبل ١٥ يومًا من موعد المحاضرة، ثم الانتظار حتى

الحصـول علـى الموافقـة. وترافـق ذلـك مـع تعميـمٍ مـن القيـادة القوميـة لحـزب البعـث الحاكـم اتَّهمـتْ فيـه المثقفيـن السـوريين بأنهـم «عمـلاء ومرتبطـون بالخـارج»، وقـام أعضـاء القيـادة القطريـة بجولـةٍ علـى المحافظـات السـورية للتحذيـر مـن الأطروحـات التـي تدعـو إلـى «المجتمـع المدنـي»، والتـي رأى فيهـا عبـد الحليـم خـدام نائـب رئيـس الجمهوريـة دعـوةً لـ«جَـزأرة سـوريا». بينمـا اعتبـر البعـض منهـم حضـور دبلوماسـيين وأجانـب للمنتديـات «خَـرقًا للمُنتديـات مـن الخـارج» بمَـن فيهـم بشـار الأسـد الـذي اعتـبر أنَّ «المنتديـات قـد أصبحـتْ واجهـةً لجهـاتٍ خارجيـة».

وعلـى الرغـم مـن أنَّ المنتديـات كانـت تجربـةً سـورية خالصـة وخاصَّـة بالواقـع الملمـوس الملـيء بالممنوعـات والمُحاصَـر بالخطـوط الأمنيـة الكثيـرة، فإنهـا فـي عمومهـا كانـت مفتوحـةً للجميـع ويحِـقُّ للقاصـي والدانـي حضورهـا والمشـاركة فـي نقاشـاتها، مـا يُفسِّـر الفسـحة التـي مُنِحَـتْ لهـا فـي مختلـف الفضائيـات ووسـائل الإعـلام العربيـة والعالميـة.

وعلـى إثـر تلـك التَّقييـدات واسـتمرار المضايقـات الأمنيـة ورفـع الحصانـة عنـي بقـرارٍ مـن رئيـس مجلـس الشـعب واسـتدعائي للتحقيـق مـن قِبَـلِ النائـب العـام فـي دمشـق، فقـد أعلنـتُ تحويـل «منتـدى الحـوار الوطنـي» إلـى «مضافـة» لاسـتقبال الضيـوف والأصدقـاء وتبـادل الأحاديـث الخاصَّـة بيـن الموجوديـن وليـس للحـوار العـامّ، ممـا يعنـي إيقـاف برنامـج المحاضـرات، ثـم إعـلان إغـلاق المنتـدى فـي بيانٍ رسـميٍّ صـدر فـي ١٢ آذار/مـارس ٢٠٠١ [٣٥] ذاكـرًا الضغوطـات التـي تعـرَّض لهـا،

(٣٥) ريـاض سـيف، «بيـان حـول إغـلاق منتـدى الحـوار الوطنـي»، ٢١ آذار/مـارس ٢٠٠١، **المرجـع السـابق**، ص ١٣٨.

https://bit.ly/2ZGf0bW

مـع التأكيـد علـى إعـادة افتتاحـه بعـد الحصـول علـى ترخيـصٍ رسـميٍّ يُتيـح لـه اسـتعادة نشـاطه بشـكلٍ لائـقٍ ومُشـرِّف، وكـي يُسـاهم فـي توفيـر المنـاخ الـلازم لإغنـاء حـوارٍ مُتـكافئ يُتيـح للجميـع المشـاركة فـي مسـيرة الإصـلاح التـي باتـت تُشـكِّل حاجـةً مصيريـة لحاضرنـا ومسـتقبلنا. كمـا توقَّـف للأسـباب ذاتهـا النشـاطُ العلَنـيُّ لغالبيـة المنتديات، باسـتثناء «منتـدى جمـال الأتاسـي للحـوار الديمقراطـي». وهـذا لـم يمنـع «لجنـة إدارة منتـدى الحـوار الوطنـي» مـن الاسـتمرار فـي اجتماعاتهـا الأسـبوعية للنظـر فـي الخطـوات الضروريـة اللاحقـة، كان أولهـا السَّـير فـي الخـط القانونـي نفسـه الـذي سـار عليـه «منتـدى جمـال الأتاسـي للحـوار الديمقراطـي»، وذلـك علـى الرغـم مـن اقتـناع غالبيـة أعضـاء اللَّجنـة بـأنَّ مسـألة إغـلاق المنتديـات مسـألةٌ سياسـية وليسـت قانونيـة، غيـر أنهـم رغبـوا فـي جَـسِّ نبـض السـلطة، وأيضًـا لإحراجهـا وتعريـة دعايتهـا عـن أنهـا أغلقـتْ فقـط المنتديـات غيـر المُرخَّصـة قانونيًّـا.

تقـدَّم «منتـدى الحـوار الوطنـي» بطلـبٍ للترخيـص[٣٦] إلـى وزارة الشـؤون الاجتماعيـة والعمـل فـي ٣ أيار/مايـو ٢٠٠١ مُحـدِّدًا أهدافـه فـي «فتـح حـوارٍ شـامل مـع جميـع أبنـاء الوطـن فيمـا يخـصُّ قضايـا الوطـن والمُواطـن الاجتماعيـة والثقافيـة والاقتصاديـة والقانونيـة، ودعـوة الجميع للمسـاهمة فـي تعزيـز وحـدة الوطـن وقوتـه مـن أجـل تحريـر أرضنـا المُحتَـلَّة وحقوقنـا المسـلوبة» مـن دون أيِّ إشـارةٍ لرغبـة «المنتـدى» فـي النشـاط السياسـي. وبالرغـم مـن ذلـك فقـد جـاء ردُّ وزارة الشـؤون الاجتماعيـة والعمـل، وبعـد خمسـة أيـام فقـط مـن تقديـم الطلـب، بـرَدِّه ورفـض الترخيـص بحُجَّـة أنَّ ذلـك ليـس مـن اختصـاص الـوزارة و«لا تنطـبق عليـه النصـوص القانونيـة المُعتمَـدة». عندهـا قـرَّرتْ لجنـة

(٣٦) **المرجع السابق**، ص ٧.

المنتـدى التقـدُّم بتـظـلُّمٍ إلـى الـوزارة[٣٧] يَعتــبر رفـض الطلـب بدعـوى عـدم الاختصـاص مُخالفـةً صريحـة للقانـون ٩٣ لعـام ١٩٥٨، وجـاء الـردُّ سـريعًا أيضًـا، بعـد ثمانيـة أيـامٍ فقـط، أي فـي ٢٤ أيار/مايـو ٢٠٠١، برَفـض التظلُّـم مـع التأكيـد علـى «مضمـون قرارنـا بعـدم اختصـاص وزارتــنا وعــدم انطبــاق النصــوص القانونيــة المُعتمَــدة علــى طلبكــم، لذلــك نرفـض تظلُّمكـم، ويُعتَـبر كتابنـا هـذا ردًّا علـى تظلمكـم ووفقًـا للمـادة القانونيــة».[٣٨]

ويبقــى أن أذكــر أنَّ مــن أهــم مُنجَــزات ظاهــرة المنتديــات، وخاصَّــةً «منتــدى الحــوار الوطنــي»، هــو فَتــح المجــال أمــام مختلــف الشــرائح السـورية لبَـدء التفكيـر فـي مشـكلاتهم الراهنـة والبحـث عـن حلـول لهـا. وقـد عكـس تعـدُّد الهويـات الفكريـة للمحاضريـن وتبايـن مرجعياتهـم واجتهاداتهــم، وكذلــك اتســاع وتنــوع الحضــور والمشــاركين فــي الحـوارات، طبيعـةَ المنتـدى الوطنيـة المفتوحـة علـى كافَّـة المشـاركات مـن كل الانتمـاءات الطائفية والإثــنية والعِرقيـة والأيديولوجيـة والعُمرية،

---

(٣٧) قـرَّرتْ لجنـة المنتـدى بعـد ذلـك التقـدم بتـظلُّمٍ إلـى الـوزارة اعتمـادًا علـى أنَّ «الأسـباب المُنـوَّه عنهـا برفـض الطلـب تعتبـر مخالفـةً صريحـة للقانـون ٩٣ لعـام ١٩٥٨ الـذي يحكـم منتدانـا، ذلـك أنَّ هـذا القانـون واللائحـة التنفيذيـة لـه جعَـل مـن وزارة الشـؤون الاجتماعيـة والعمـل هـي الجهـة الإداريـة المقصـودة بمضمـون المـادة ١٠ مـن القانـون والمُختصَّـة بإجـراء عمليـة الشـهر والنشـر بالجريـدة الرسـمية خـلال (٦٠) يومًـا مـن تاريـخ تقديـم الطلـب، وبالتالـي فـإنَّ مـا جـاء بقراركـم مـن عـدم اختصـاص وزارتكـم، جـاء فـي غيـر محلـه القانونـي ومُخالفًـا للقوانيـن والأنظمـة النافـذة. نفـس **المرجـع السـابق**، ص ٨.

(٣٨) تــم تقديــم هــذا «التظلــم» إلــى ديــوان الــوزارة بتاريــخ ١٦ أيار/مايــو ٢٠٠١، وجــاء الـردُّ سـريعًا أيضًـا وبتاريـخ ٢٤ أيار/مايـو ٢٠٠١ برفـض التظـلُّم مـع التأكيـد علـى «مضمـون قرارنـا بعـدم اختصـاص وزارتنـا وعـدم انطبـاق النصـوص القانونيـة المعتمـدة علـى طلبكـم، لذلـك نرفـض تظلمكـم، ويُعتبـر كتابنـا هـذا ردًّا علـى تظلمكـم ووفقًـا للمـادة القانونيـة» كمـا جـاء فـي ردِّ الـوزارة، وهكـذا دخلنـا فـي متاهـة قانونيـة يعلـم الجميـع أنَّ إطارهـا ليـس قانونيًـا وإنمـا سياسـيٌّ محـض، **المرجع السابق**، ص ٨.

وأوضحها حضورٌ مُكثَّف من قِبَلِ شريحةٍ من الشباب، ثم إتاحة الفرصة للأحزاب الكُردية للتقدم وشرح قضيتهم وإدراجها كقضيةٍ وطنية تُهِمُّ جميع الأطياف السياسية في سورية، وخاصَّةً في حقل رد المظالم عنهم والمتعلقة بإقامة ما سُمِّيَ الحزام العربي وتجريد قسمٍ كبير منهم من الجنسية السورية. وعلى الرغم من انتشار المنتديات في مختلف المحافظات السورية بدءًا من حلب وحمص واللاذقية وطرطوس وانتهاءً بالقامشلي والحسكة ودير الزور، فإنَّ «منتدى الحوار الوطني» كان المنتدى الأكثر تعددًا وتنوعًا وبنفس الوقت الأكثر شهرةً، حيث أصبح ولفترةٍ من الفترات، وخلال وقت قصير، أبرز وجوه صنع المشهد السياسي والإعلامي في سورية، وأيضًا في نشر وتعميم الأرقام والإحصاءات والدراسات والتصريحات.

(٦) استئنافُ عمل «منتدى الحوار الوطني»... وإغلاقه النهائي

لم تنقطع لجنة إدارة المنتدى عن اجتماعاتها الدورية، ولكنها أصبحتْ كلَّ أسبوعين، منذ نهاية أيار/مايو ٢٠٠١ وحتى أوائل أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وكانت تُناقش الوضع العام في البلاد وتحوُّلاته والموقف المُتوخَّى والمطلوب. وفي هذه الأثناء حضَر الدكتور برهان غليون إلى دمشق وتناقشنا حول موضوع إعادة نشاط منتدى الحوار وعرضتُ عليه استعدادي لإعادة فتح المنتدى إذا وافق، على أن يكون هو أول المحاضرين نظرًا لما يُمثِّله للمثقفين السوريين، وهذا ما حصل. وصدَر بيانٌ عن لجنة إدارة المنتدى في ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠١، تُعلن فيه عودة نشاط «منتدى الحوار الوطني» غير

عابئـةٍ بالتحذيـرات الأمنيـة، وذلـك كمـا نـصَّ البيـان[٣٩] «مسـاهمةً منهـا فـي تفعيـل الحيـاة العامـة ونشـر ثقافـة وتقاليـد الديمقراطيـة التـي تبـدأ مـن قبـول كلٍّ مِنَّـا للآخـر، عبـر إفسـاح المجـال أمـام مختلـف فئـات المجتمـع للمشـاركة فـي حـوارٍ ديموقراطـيٍّ بَنّـاءٍ يهـدف إلـى البحـث عـن أفضـل الصِّيَـغ والوسـائل الكفيلـة بتطويـر حاضـر البـلاد ومسـتقبلها لمـا فيـه خيـر جميـع أبنائهـا». وأنهـتِ البيـان بدعوتهـا جميـع السـوريين «للمشـاركة فـي حـوارٍ يعتـرف فيـه كلٌّ مِنَّـا بالآخـر ويحتـرم أفـكاره وأطروحاتـه، طالمـا أنهـا تنطلـق مـن الحِـرص علـى الصالـح العـام، وتنظـر بعيـنٍ مَلـؤها التفـاؤل والثقـة فـي مسـتقبلٍ أفضـل، وبنـاء وطـنٍ يُوفِّـر لـكل أبنائـه السـعادة والاطمئنـان فـي جـوٍّ مُحبَّـب للعمـل والإبـداع، يجعـل متعـةَ العطـاء بَديـلًا لـكلِّ أنانيـةٍ ضـارَّة».

وبعـد عشـرة أيـام مـن إلقـاء ريـاض التـرك مُحاضرتـه فـي «منتـدى جمـال الأتاسـي» فـي ٥ آب/أغسـطس ٢٠٠١، والتـي دعـا فيهـا إلـى نقـل سـورية مـن حالـة الاسـتبداد إلـى الديمقراطيـة عـن طريـق التوافـق السِّـلمي، بـادرتُ فـي ١٤ آب/أغسـطس ٢٠٠١، لإصـدار دراسـةٍ مُفصَّلـة، (١٠٠ صفحـة)، عـن «صفقـة عقـود الخلـوي» التـي كانـت إحـدى بوَّاباتـي لمحاربـة الفسـاد، ومـا فاجأنـي أننـي تَلَقَّيْـتُ دعـوةً عبـر الهاتـف فـي ٣ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠١، وقبـل يوميـن مـن محاضـرة الدكتـور برهـان غليـون، للِقـاء أحـد رؤسـاء فـروع الأمـن السياسـي، (سـمير الشـيخ)، فـي دمشـق، اعتـذرتُ عـن تَلبِيَـتها، وأبلغـتُه أننـي أرفـض زيـارة الفروع الأمنيـة احترامًـا لعضويتـي فـي البرلمـان كمُمثِّـلٍ للشـعب، وإذا كان لا بـد مـن لقـاءٍ مـا، فإننـي أدعـوه فـي أيِّ وقـتٍ يشـاء لزيارتـي فـي

(٣٩) **مـن أجـل مجتمـع مدنـي فـي سـورية ـ حـوارات «منتـدى الحـوار الوطنـي»**، مرجـع سـبق ذكـره، ص ١٣٨.

بيتـي أو مكتبـي المُخصَّـص لنشـاطاتي فـي مجلـس الشـعب. اتَّصـلَ مـرةً أخـرى، بعـد مـرور سـاعات، ليُخبرنـي بأننـا يُمكـن أن نلتقـيَ فـي مـكانٍ مكشـوف وفـي منتصـف المسـافة بيننـا كحـلٍّ وسـط، وكان ذلـك فـي مقهـى «فنـدق الشـام»، حيـث اسـتمرَّ اللقـاء لسـاعاتٍ بهـدف إقناعـي بإلغـاء المحاضـرة، وبعـد أن أعلنـتُ رفضـي، صارحنـي بـأنَّ هنـاك نيـة لـدى السـلطات العليـا باعتقالـي فـي حـال أصـررتُ علـى موقفـي، فلـم أسـتجِب للتهديـد. وبالفعـل أقيمـتِ المحاضـرة فـي موعدهـا وبحضـور نحـو ٥٠٠ شـخص غـصَّ بهـم مَنـزِلَان: المقـر المُعتمـد لـ«منتـدى الحـوار الوطنـي»، ومنـزل الجيـران، وبَقِـيَ المئـات فـي الشـارع، يسـتمعون إلـى المحاضـرة عبـر مكبـر للصـوت، واسـتمرَّ النقـاش لمـدة خمـس سـاعات متواصلـة، قـدَّم خلالهـا أكثـر مـن ٣٠ شـخصًا مُداخلاتهـم وتعقيباتهـم.

الفصل السَّابع

تـجـربة السِّـجـن الأولى

بيضاء في الأصل

(١) الاعتــقال والمـحاكـمـة

فــي ٦ أيلول/ســبتمبر ٢٠٠١ أيْ فــي اليــوم التالــي لمُحاضــرة برهــان غليــون، تــم توقيفــي فــي ســجن عــدرا، بِنــاءً علــى أمــرٍ مــن الحاكــم العُرفــي. والحقيقــة، لــم يكــن اعتقالــي وإيداعــي الســجن مُفاجئًــا لــي، فقــد ســبق وذكــرتُ بأننــي تلقَّيــتُ إنــذارًا صريحًــا عــن طريــق رئيــس فــرع الأمــن السياســي لمنطقــة الميســات ــ الجبــة، بــأنْ ليــس مــن خيــارٍ أمامــي «فإمــا إلغــاء المحاضــرة وإمــا الســجن»، وبالفعــل لــم يمــض وقــتٌ طويــل حتــى تــم تنفيــذ هــذا الإنــذار، ففــي اليــوم التالــي بعــد انتهــاء المحاضــرة المُقــرَّرة، وانصــراف جمــوع المشــاركين، قــرَع بــابَ بيتــي عنــد حوالــي الســاعة الرابعــة بعــد الظهــر قائــدُ شــرطة ريــف دمشــق، الــذي اعتــذر عــن دعوتــي للقــاءٍ بمنزلــي، وأبلغنــي برغبــةٍ فوريــة مــن وزيــر الداخليــة لِلقائــي، فيمــا يُســمَّى الدعــوة لشــرب فنجــان قهــوة!

كان وزيــر الداخليــة وقــتها محمــد حربــا، وكانــت علاقتــي بــه حســنةً إلى حــدٍّ مــا، لكــن لــم أعتــبره أمــرًا طبيعيًّــا أن تأتــي الدعــوة لشُــرب فنجــان قهــوة فــي مثــل هــذا الوقــت مــا أثــار عنــدي بعــض الريبــة والتوجُّــس، فصارحــتُ قائــد الشــرطة قائــلًا: «إذا كانــت "الدعــوةُ" إلــى السِّــجن... فــلا بــأس، ولكــن أمهلنــي قليــلًا مــن الوقــت لآخــذ بعــض حاجياتــي»، فنَــفى

ذلـك. وعندهـا أُسـقِط فـي يـدي، ورافقتُـه إلـى وزارة الداخليـة، وهنـاك علِمنـا علـى الفـور أنَّ الوزيـر قـد غـادر الـوزارة، ولكنـه تـرك كتابًـا يتضمَّن أمـرًا بتوقيفـي، ومـن هنـاك انطلقـوا بـي إلـى سـجن عـدرا.

لـم يُخالجنـي فـي الطريـق أي ضعـفٍ أو خـوف، بـل كانـت روحـي ومعنوياتـي عاليـةً جـدًّا، وتسـتمدُّ القـوة مـن صحـة قـراري فـي الاسـتمرار بأعمـال المُنتـدى، وصِدقيـة انحيـازي لخيـار الحـوار والديمقراطيـة الـذي قطعـتُ فيـه شـوطًا مُهِمًّـا ولـن أتراجـع عنـه.

وعنـد دخولـي بوابـة السـجن كنـتُ مطمئنًّـا وراضيًـا، لقناعتـي بأنـي أدفـع بعضًـا مـن ثمـن حريـة الشـعب السـوري، بينمـا نـدَّدتْ «لجنـة منتـدى الحـوار الوطنـي» باعتـقالي، وأكَّـدتْ علـى اسـتمرارها في نشـاط المنتـدى، كمـا أصـدرتْ ١٤ جمعيـةً ومنتـدًى مسـتقلًّا وغيـر حكومـي اجتمعـوا فـي مقـر «منتـدى الحـوار الوطنـي» بيانًـا مشـتركًا يسـتنكر الاعتقـالات التـي جـرتْ ويطالـب بالإفـراج الفـوري عـن جميـع المعتقلين السياسـيين، ورَدَّ النظـام فـي ٨ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠١ باعتقـال ثلاثـة أعضاء مـن لجنـة منتـدى الحـوار الوطنـي هـم الدكتـور عـارف دليلـة والطبيبـان وليـد البنـي وكمـال اللبوانـي، وناشـطان شـاركا فـي نقاشـات المحاضـرة الأخيـرة همـا حسـن سـعدون وحبيـب صالـح.

وترافـق ذلـك مـع موجـةٍ تحريضية فـي الصحف السـورية ضـد المثقفين، لدرجـة أنَّ بعـض مُروِّجيـها تسـاءلوا عـن سـبب التأخيـر فـي «تطبيـق الإجـراءات القانونيـة بحـق مُخالفـي القانـون والمُسـيئين إلـى مسـيرة تعزيـز الحريـات، وفـي مقدمتهـا حريـة التعبيـر». ولبَـثَّ الخـوف بيـن النـاس تـم تعميـم لائحـةٍ مـن قِبَـلِ فـرع الأمـن السياسـي تضـم أسـماء ثلاثيـن مثقفًـا معظمهـم مـن أعضـاء «لجنـة منتـدى الحـوار الوطنـي» أو الناشـطين فـي حواراتـه سـيَجري اعتقالهـم تِباعًـا.

وعندما ناقشتْ لجنة منتدى الحوار الوطني المتبقية مع الكثير من المُتضامنين والمؤازرين في مقرِّ المنتدى، الوسائل والخطوات الضرورية الواجب اتخاذها لكسب «معركة الحرية»، اعتَقلتِ السلطة السورية في اليوم التالي لهذا اللقاء المهندس فواز تللو عضو لجنة منتدى الحوار الوطني وحبيب عيسى الناطق باسم «منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي»، وذلك صباح ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

تم وصف شهر أيلول عام ٢٠٠١ من قِبَلِ العديد من الصحفيين بالأَسود، ليس فقط بسبب الهجوم على مبنيَيِ التجارة العالميَّين في نيويورك، وإنما أيضًا لاعتقال «العشرة الأفاضل» حسب التسمية الشائعة آنذاك، والتي شكَّلتْ نقلةً إلى الوراء وأحدثتْ جُرحًا عميقًا في معاني الأمل والعمل من أجل التغيير على الصعيدَين المحلي والدولي. والأسوأ هو انقلاب الاهتمام الإعلامي والسياسي من دَعم مناخ الحريات وحقوق الإنسان في العالم إلى أولوية محاربة الارهاب، حتى وإنِ استَدعتِ التنسيق مع الأنظمة المُستبدة والصمت عن انتهاكاتها.

استمرَّتْ محاكمتي، بشكلٍ مُتباعدٍ وغير منتظم، في محكمة الجنايات الأولى في دمشق، وبعد جلسات عديدة، فِعلية ومُؤجلة، وعلى الرغم من معرفتي ومعرفة الجميع أنَّ هذه المحاكمة سياسية وأنَّ ما تُظهِره من إجراءات قانونية هو شكليٌّ وصوريّ، ولكنني وجدتُّها فرصةً لتقديم مذكرة دفاعٍ شخصية مُتوخِّيًا منها فضح مؤسسات النظام القضائية وتعرِيَتها، بعنوان «الشمس لا تُحجَب بغربال»،[1]

(١) رياض سيف، «لا يمكن حجب الشمس بغربال»، دمشق، سجن عدرا، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

https://bit.ly/35BcjfH

فنَّـدتُّ فيهـا الأسـباب السياسـية التـي تقـف وراء الاتهامـات الجنائيـة القانونيـة، وأكـدتُّ أنَّ مسـار اسـتجوابي ورفـع الحصانـة عنـي واعتقالـي ومحاكمتـي تـمَّ خـارج القانـون والدسـتور علـى عِلَّاتهمـا. وقـدَّم فريـق الدفـاع عنـي دفاعهـم القانونـي[٢] لـرَدِّ التُّـهم بطريقـة قانونيـة، ويَعـرف القاصـي والدانـي أنَّ الأحـكام فـي هـذه الحالـة تأتـي مـن الجهـات السياسـية والأمنيـة، وتُنطَـق بلسـان القاضـي ــ الـذي أصـدر حُكمًـا بالسـجن علـيَّ خمـس سـنوات، بتاريـخ ٣ نيسـان/أبريل ٢٠٠٢ مـع الحَجـر والتجريـد مـن الحقـوق المدنيـة. وهـذا لـم يُفاجِئنـي أبـدًا فقـد كنـت أتابـع محاكمـات زملائـي والأحـكام التـي تصـدر بحقهـم، حيـث أصـدرتْ محكمـة أمـن الدولـة العليـا فـي الفتـرة ذاتهـا أحكامًـا بحَـقِّ المحامـي حبيـب عيسـى والطبيـب وليـد البنـي والمهنـدس فـواز تللـو، بالسَّـجن خمـس سـنوات. بينمـا حَظِـيَ الدكتـور عـارف دليلـة بالحُكم الأشـدّ، عشـر سـنوات. ونـال كلٌّ مـن كمـال اللبوانـي وحبيـب صالـح، ثـلاث سـنوات. والمحامـي ريـاض التـرك، سـنتان ونصـف. والتُّهمـة شِـبه مُوحَّـدة للجميـع وهـي إشـاعة أنبـاء كاذبـة مـن شـأنها أن تُوهِـن نفسـية الأمـة فـي زمـن الحـرب، ومحاولـة تغييـر الدسـتور بطـرقٍ غيـر مشـروعة.[٣]

---

(٢) حسـن عبـد العظيـم، مذكـرة بالدفـاع الشـفوي عـن المتهـم ريـاض سـيف، مـن وكـلاء الدفـاع.

https://bit.ly/2ROYzG2

(٣) تقريـر مراقبـةٍ قضائيـة فـي محاكمـة النائِـبَين ريـاض سـيف ومحمـد مأمـون الحمصـي فـي دمشـق، إعـداد المحامـي أحمـد فـوزي (مصـر)، نُشِـرَ فـي

http://hras-syria.tripod.com/Trial_Report_12_2001.htm

وفيـه يصـف المراقـب الحقوقـي الدولـي أحمـد فـوزي، وكيـل «البرنامـج العربـي لنشـطاء حقـوق الإنسـان» و«اللجنـة العربيـة لحقـوق الإنسـان لمراقبـة المحاكمـة»، ووكالتـه مسـجلة فـي الأمـم المتحـدة واعتمدتهـا أكثـر مـن هيئـة دوليـة كشـهادة علـى المحاكمـة، بقولـه فـي «ملاحظـات عامَّـة علـى محاكمـات النائِبَيـن ريـاض سـيف ومأمـون الحمصـي»: «إنَّ المحاضـر والتحريـات وأمـر الإحالـة وقـرار قاضـي التحقيـق يغلـب عليهـا الصيغـة الأمنيـة ولا يوجـد أدنـى احتـرام للحقـوق القانونيـة

(٢) الحياة اليومية في السِّجن

منذ اليوم الأول لاعتقالي قرَّرتُ أن أستفيد صِحِّيًّا من فترة السجن، كي أغادره قويًّا ومُتعافيًا وربما أكثر شبابًا، سواء طالت المدة أم قصرت. وكان القرار الأول الإقلاع نهائيًّا عن التدخين، تلاه العمل على تنظيم حياتي اليومية واستثمار الوقت على أفضل شَكل، حيث وزَّعتُه بين الرياضة ودراسة اللغة الإنكليزية، وبين قراءةٍ منظمة ومُمنهجة لكتبٍ في السياسة والتاريخ. وكي لا يختل أو يُنتَهك برنامجي، قرَّرتُ أن أمتنع عن مقابلة أحدٍ من المساجين وحتى أصدقائي إلا بمَوعد، وأضفتُ إلى البرنامج وقتًا خاصًّا مفيدًا كنت

= والدستورية حيث أنَّ عبارات محاضر التحريات جميعها عبارة عن أقوالٍ مُرسلة وعبارات فضفاضة لا يمكن أن تدخل في إطار التجريم، فلا يمكن أن يكون حديث النائب رياض سيف في الصحف ووكالات الأنباء أو تنظيمه لـ"حركة السِّلم الاجتماعي" تجريم، ففي هذا اعتداء على الحد الأدنى من حريته الشخصية.

المواد المُحال على أساسها النائبين إلى المحاكمة مواد معيبة في قانونٍ مَعيب تم تعديل بنوده في حقبة تاريخية معينة لتُلائم سيطرة السلطات الأمنية السورية على أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبطش بكل مَن تسول له نفسه في التحدث بلهجة غير بعثية، كما أنَّ مساءلتهم بصفتهم أعضاء مجالس نيابية فيها اعتداء صارخ على الحصانة البرلمانية الحامية لهم لممارسة أعمالهم الرقابية والتشريعية وهو ما يخل بتوقيع سوريا لأي مواثيق وقوانين دولية في إطار المجتمع الدولي. فالمواد: ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٧٠، ٣٧٦، ٣٧٨ من قوانين العقوبات السورية وهي المواد السابق تحليلها في صَدر التقرير مواد معيبة دستوريًّا وفقًا للدستور السوري.

وبدراسة تسيير محاكمتهم ووصفهم كمُتهمين واتصالهم بهيئة دفاعهم والحقوق التي كفلها القانون لهيئة الدفاع لتمكينه من أداء وظيفته، فقد خالفتْ هيئة المحكمة أصول المواد القانونية المنصوص عليها في قانون المحاكم الجزائية وقانون الأحوال، حيث أنَّ كل تلك المراحل لم تُراع في الأصل القوانين والدساتير السورية التي تبعد كل البُعد عن المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان.

الكلام عن استقلال القضاء السوري في ممارسة أعماله يحتاج إلى تقريرٍ مستفيضٍ في حد ذاته، فلا يمكن أن ينتميَ قاضٍ في أي بلد في العالم إلى حزب سياسي... فهذا جُرمٌ في حق القضاء والعدالة».

أقضيه مع الدكتور الجَبَّان وهو دكتور في علوم التكنولوجيا، مُلِمٌّ بالأدب والموسيقى، ويمتلك شخصيةً محترمة ومُحبَّبة، وقد تناولتْ أحاديثُنا مواضيع مختلفة وجديدة وعلى مدار ساعتَين في اليوم تقريبًا.

بدايةً، أفردوا لي غرفةً خاصَّةً انتقلتُ إليها بعد تجهيزها، أي بعد نحو أسبوع من مكوثي في غرفة مدير المستوصف، ومن خارج السجن حصلتُ على كافة المستلزمات التي أحتاجها، مُستفيدًا من تعاطفِ وسلوكِ مدير السجن معي، الذي سهَّل وسمَح لي بإدخال ما أحتاجه، وأعتقد أنها كانت توجيهاتُ الجهات الأعلى بعدم إزعاجي والاستجابة لطلباتي، لتتحوَّل الغرفة إلى فسحةٍ مريحة لمُمارسة كافة نشاطاتي، بدءًا بجهاز تشغيل الأقراص المدمجة مع ألبوم للموسيقى، انتهاءً بالراديو، والكومبيوتر الشخصي. واعتدتُّ مع تأخر تزويدي بجهازٍ لتسخين الماء أن أستحمَّ بالمياه الباردة، فقرَّرتُ الاستمرار في ذلك صيفًا وشتاءً، وهذا ما فعلته، حتى في أيام الثلج والصقيع، بعد كل ساعةِ رياضةٍ صباحية حيث بلغتْ درجة حرارة المياه في بعض الأحيان ٧ درجات مئوية فقط، وعندما بادر أولادي وأحضروا في إحدى الزيارات جهازًا لتسخين الماء رفضتُه وأعدتُّه معهم.

اعتدتُّ على ممارسة الرياضة اليومية، الجَريُ مسافة عشرة كيلو مترات خلال ستين دقيقة دون توقفٍ كل صباح، ثم مجموعة تمارين أُجرِيها مساءً في الغرفة لمدة ٤٥ دقيقة مع الموسيقى، كان لها دورها في إنقاص وزني من ١٠٧ كغ عند دخولي السجن حتى ٨٥ كغ بعد خمسة عشر شهرًا فقط.

وفي فترة وجودي في السجن، ازدادتْ قناعتي وثقتي بأنَّ الشعب

السوري قادرٌ على الارتقاء إلى مصافِّ الأمم الديمقراطية الحديثة والمزدهرة، وذلك بعد اطِّلاعي ودراستي لتاريخ سورية في المرحلة التي تمتد من الانتداب الفرنسي حتى قيام الوحدة، (من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٥٨)، واهتمامي الشديد بمعرفة كل تفاصيل تلك الفترة. وقد قرأتُ، خلال أكثر من أربع سنوات، عشرات الكتب وآلاف الصفحات في كل ما يتعلق بتجربة الشعب السوري في فترة الانتداب والعهد الوطني، ما قبل إلغاء السياسة على يد جمال عبد الناصر، ولخَّصتُ كل ما قرأت، ومن حُسن الحظ أنني وجدتُّ في مكتبة السِّجن محاضر جلسات الدورة الاستثنائية للبرلمان السوري سنة ١٩٣٨ وإقرار موازنة سنة ١٩٣٩ وهو بحدود سبعمائة صفحة بقياسٍ كبير ــ علمًا أن مكتبة السجن هذه تضم في رفوفها مئات الكتب الثمينة من مكتبة فخري البارودي التي قدَّمها ورثَتُه كهديةٍ للسجن، وأُضيف إليها عددٌ من الكتب الحديثة والمراجع الرسمية.

توفَّر لديَّ كل أعداد المجموعات الإحصائية التي يُصدِرها المكتب المركزي للإحصاء، والتي تضم معلومات وأرقام من عام ١٩٤٧ إلى عام ٢٠٠٠، فأجريتُ عِدَّةَ مقارناتٍ وتحليلات في حقول الصحة والتعليم والصناعة والزراعة والتصدير والاستيراد والرواتب والأجور وأسعار الصرف وغيرها، مكَّنَتْني من رسم صورةٍ موضوعية عمَّا كانت عليه البلاد في تلك الفترة، كما هو واضح في الجدول أدناه:

البيـــــان	١٩٥٠	١٩٥٧	متوسط النمو السنوي
عدد السكان	٣٢٥٣٠٠٠	٤١٤٥٠٠٠	٪٣,٤٣

سعـر الدولار بالقروش	٣٥٢	٣٥٧	
الدَّخل القومي أسعار جارية × مليون	١٢٥٠	٢٦٧١	٪١١,٥
حِـصّة الفرد من الدَّخل القومي	٣٨٤	٦٤٤	٪٦,٥٧
نفقاتٌ فعلية بالموازنة (ألوف الليرات)	١٦٥٥٢٠	٣٧٣٧٧٩	٪١٣,٥٠
حِـصّة الدفاع	٪٤٥	٪٣٧	
حِـصّة التربية والتعليم	٪١٧ (٢٧٦٩٩)	٪١٦ (٥٩٦٦٨)	٪١٨,١٠
حِـصّة الصِّحة (ألوف الليرات)	٪٢,٦٠	٪٣,٣٠	٪٣,٥
عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية	٩٦٨	٣٥٩٧	٪٢١,٥
متوسط حِـصّة الطالب من الموازنة (ل.س)	٩٤	١٤٠	٪٥,٥
محصول القطن × ألف طن	١٠٠	٤٩١	٪٣٨
محصول القمح × ألف طن	٨٣٠	١٣٥٤	٪٨
محصول الشعير × ألف طن	٣٢٢	٧٢١	٪١٠,٥
عدد الأغنام بالآلاف	٢٦١١	٥٤٦٦	٪١٠,١

تـدلُّ المؤشـرات الاقتصاديـة للفتـرة ١٩٥٠/١٩٥٧ أنَّ سـورية كانـت بيـن قائمـة الـدول الأسـرع نمـوًّا فـي العالـم علـى الرغـم مـن التكاثر السـكاني المرتفـع جـدًّا والـذي بلـغ وسـطيًّا فـي تلـك الآونـة ٣,٥٪ سـنويًّا، وعلـى الرغـم مـن العِـبء الكبيـر الـذي كانـت تتحملـه لبنـاء جيـشٍ قـادر علـى دَرء خطـر التهديـدات الإسـرائيلية، والـذي كان يسـتأثر بحوالـي ٤٠٪ مـن مُجمَـل نفقـات الموازنـة، حيـث احتفَظـتِ الليـرة السـورية بقُوتهـا طيلـة تلـك الفتـرة مُقابـل الـدولار نتيجـة تعـادل ميـزان المدفوعـات والقـدرة علـى تغطيـة النقـد بالذهـب والقَطـع الأجنبـي. كمـا أنَّ الصـادرات ارتفعـتْ مـن ٢٧٧ مليـون عـام ١٩٥١ إلـى ٥٤٨ مليـون عـام ١٩٥٧، وزادت الـواردات مـن ٤٣٥ مليـون عـام ١٩٥١ إلـى ٦١٦ مليـون عـام ١٩٥٧، إضافةً إلـى أنَّ النفقـات الفعليـة لميزانيـة الدولـة ارتفعـتْ مـن ١٦٥ مليـون عـام ١٩٥٠ إلـى ٣٧٣ عـام ١٩٥٧ أيْ أكثـر مـن الضعـف خـلال سـبع سـنوات. وأيضًـا أنَّ الصناعـة السـورية قـد تضاعفـت مسـتفيدةً مـن توفـر التمويـل الـلازم عـن طريـق انتعـاش سـوق الأسـهم والسَّـندات الـذي حقَّـق أرباحًـا عاليـة.

وإذ يُعتَـبر الدخـل القومـي المؤشـرَ الأهـمَّ لمراقبـة نمـو الاقتصـاد فـي الدولـة، وحيـث أنَّ المكتـب المركـزي للإحصـاء وحتـى صـدور المجموعـة الإحصائيـة لعـام ١٩٥٧ لـم يكـن يتطـرَّق للحسـابات القوميـة، ولكـن هنـاك بعـض المحـاولات الجـادَّة اهتمَّـتْ بتخميـن الدَّخـل القومـي السـوري ابتـداءً مـن العـام ١٩٥٠، مـن أهمهـا دراسـة د. جـورج عشـي الـذي خمَّـن الدخـل القومـي عـام ١٩٥٠ بـ١٢٥٠ مليـون ليـرة سـورية، ومنهـا دراسـة الاقتصـاد السـوري لسـامي الدجانـي والـذي توصَّـل إلـى نفـس النتيجـة، ١٢٥٠ مليـون ليـرة سـورية لنفـس العـام، والتـي راجعهـا ودقَّـقها د. عـز الديـن جونـي وأثـنى عليهـا.

ثـم فـي ضـوء المقارنـة التـي أجريتُهـا بيـن معـدلات النمـو السـوري ومعـدلات نمـو الاقتصـاد الألمانـي عـن نفـس الفتـرة، مُسـتفيدًا مـن كتـاب **الرفـاه للجميـع** لمؤلفـه لودفيـغ إيرهـارد[٤] وجـدتُّ أنَّ معـدلات النمـو مُتقاربـة، إذِ ارتفـع الدخـل القومـي فـي ألمانيـا بيـن عامـي ١٩٤٩ و١٩٥٥ مـن ٤٧,١ مليـار مـارك ألمانـي إلـى ٨٥,٨ مليـار مـارك ألمانـي (علـى أسـعار ١٩٣٦) وارتفـع الدخـل القومـي فـي سـورية مـن ١٢٥٠ عـام ١٩٥٠ إلـى ٢٦٧١ مليـون ليـرة سـورية عـام ١٩٥٧، مـع الأخـذ بعَيـن الاعتبـار عِـبء ارتفـاع النمـو السـكاني فـي سـورية مقارنـةً بألمانيـا. ثـم إنَّ تكاليـف الدفـاع فـي سـورية شـكَّلتْ ٤٠٪ مـن نفقـات الموازنـة، وتُعـادِل أكثـر مـن ١٢٪ مـن الدخـل القومـي، بينمـا تُخصِّـص ألمانيـا مبلغًـا مقطوعًـا (٧ مليـار مـارك) للدفـاع عـام ١٩٥٣، والـذي يُشـكِّل ٥,٧٤ ٪ مـن الدخـل القومـي الألمانـي فـي ذلـك العـام.

إنَّ حُسـن إدارة الاقتصـاد السـوري فـي تلـك الفتـرة يعـود للسـيد خالـد العظـم والـذي تبنَّـى الاقتصـاد المُجتَمعـي كمـا فـي ألمانيـا، بأسـلوبٍ كاد يتطابـق مـع الدكتـور إيرهـارد، ومـن سـوء حـظ الشـعب السـوري أنَّ تلـك المعجـزة الاقتصاديـة لـم يُكتـب لهـا الاسـتمرار كمـا فـي ألمانيـا بسـبب النَّهـج الاقتصـادي لعبـد الناصـر والـذي ألغـى السياسـة مـن الشـارع السـوري وقضـى علـى الاقتـصاد الحُـرّ.

علـى الرغـم مـن وضـوح الإنجـازات التـي تحقَّقـتْ والتـي كانت ملموسـةً لـكل مواطـنٍ سـوريٍّ فـي تلـك الفتـرة، عملـتِ القـوى السياسـية التـي أتـتْ فـي السـتينيات والسـبعينيات علـى طَمـس معالـم تلـك الفتـرة المُضيئـة فـي تاريـخ سـورية ووصفهـا بالرجعيـة والإمبرياليـة ووَسـموها

(٤) ترجمة وتحقيق عبد المجيد الرباط، مطابع ابن زيدون، دمشق.

بفتـرة الانقلابـات. وللأسـف نجحـتْ تلـك القـوى فـي تكريـس هـذا الوصـف فـي أذهـان السـوريين، حيـث فوجئـتُ بالكثيـر مـن المثقفيـن الذيـن يُكـرِّرون هـذه الأحـكام الخاطئـة عـن تلـك الفتـرة.

كمـا اسـتفاد حافـظ الأسـد وسـلطته مـن هـذا التحليـل الخاطـئ لـدى جميـع القـوى السياسـة التـي كانـت موجـودةً علـى السـاحة، واسـتغلَّه فـي تضليـل الشـعب السـوري ولإحـكام قبضتـه علـى كافَّـة مناحـي الحيـاة السـورية.

وليسـت الفقـرات التاليـة مـن كتـاب رفعـت الأسـد **التطـور الاقتصـادي والاجتماعـي والسياسـي فـي القطـر العربـي السـوري بيـن الثـورة الوطنيـة والثـورة الطبـقِيَّة** إلا نموذجًـا فاضحًـا عـن هـذا التضليـل:

«[١٩٥٠-١٩٥٤] حيـث أمكـن للبرجوازيـة الكبيـرة المُتعاونة مـع عمـلاء سـلطاتٍ إمبرياليـة كانـت تُريـد احتـلال مـكان غيرهـا وجَعـل سـورية مـن مناطـق نفوذهـا، أمكنهـا أن تَفـتح البـاب علـى سلسـلةٍ مـن الانقلابـات العسـكرية لنمـوٍّ رأسـماليٍّ فـي البـلاد فـي ظـل ديكتاتوريـةٍ عسـكرية، وتُحـاول اسـتجلاب رؤوس الأمـوال الأجنبيـة ولكـنَّ نضـال الجماهيـر الشـعبية أنهـى هـذه المرحلـة»؛ (ص ١٣).

ويُضيف:

«لقـد أعـادت القـوى التقدُّميـة والوحدويـة تجميـع قواهـا خـلال عـام ١٩٦٢ وتجـاوزت الكثيـر مـن خلافاتهـا وقامـت صبيحـة الثامـن مـن آذار بحركـةٍ عسـكرية أعـادت القـوى التقدميـة والوحدويـة إلـى قيـادة السـلطة السياسـية للدولـة، فأصبحنـا نعيـش المرحلـةَ الحاليـة فـي البنـاء الاقتصـادي»؛ (ص ٢٣).

فـي عـام ١٩٢٠ كانـت سـورية تعيـش أحـدَ أسـوأ الحـالات فـي تاريخهـا، فبعـد تفـكُّك الإمبراطوريـة العثمانيـة وبعـد الحـرب العالميـة الأولـى عـمَّ الفقـر والمـرض والجهـل والجريمـة أرجـاء البـلاد، ودخـل الجيـش الفرنسـي لسـورية مُدشِّـنًا فتـرة انتدابـه عليهـا، ومنـذ تلـك اللحظـة بـدأ السـوريون بمقاومـة الاحتـلال مُعلِنيـن الجهـاد علـى المُحتَـلِّ الفرنسـي بـبَوارِيد الصيـد والأسـلحة الفرديـة التـي كانـوا يشـترونها مـن مُدَّخراتهم، واستشـهد يوسـف العظمـة فـي معركـة ميسـلون للدفـاع عـن كرامـة الشـعب السـوري، وبلغـتِ المقاومـة ذروتهـا عـام ١٩٢٥ فـي الثـورة السـورية الكبـرى بقيـادة سـلطان باشـا الأطـرش، ولكـن مـع مـرور الزمـن تسـلَّلتْ أعـداد كبيـرة مـن المجرميـن وأفـراد العصابـات لتَـقوم بعمليات نهـبٍ وسـلبٍ باسـم المجاهديـن.

وعندمـا جـاء المنـدوب السـامي الجديـد دو جوفونيـه عـام ١٩٢٦ إلـى سـورية، وهـو أول منـدوب سـامي مدَنـي يحكـم سـورية ولبنـان، اسـتطاع بحِنكـته القضـاءَ علـى المقاومـة المُسـلَّحة ودعـا إلـى إجـراء انتخابـاتٍ عامَّـة لتشـكيل مجلـسٍ تمثيـليٍّ فـي جميـع المحافظـات، فقاطـع جميـع السياسـيين الانتخابـات احتجاجًـا علـى فصـل منطقـة العلويِّيـن عـن الدولـة السـورية. كانـت هـذه التجربـة فاتحـةَ عهـدٍ جديـد فـي ممارسـة النضـال السِّـلمي بالوسـائل الديمقراطيـة.

خـلال عشـر سـنوات ١٩٢٦/١٩٣٦، اسـتطاعت «الكُتـلة الوطنيـة» قيـادةَ الشـعب السـوري نحـو الاسـتقلال، وكان أحـد أهـم المحطـات علـى هـذا الـدرب، إضـراب السـتين يومًـا الـذي بـدأ فـي ٢١ كانـون الأوَّل/ديسـمبر ١٩٣٥ ودام حتـى ٨ آذار/مـارس ١٩٣٦. وكان مـن اللافـت تفاعـل الشـعب السـوري مـع الأدوات الديمقراطيـة فـي التعبيـر عـن مطالبـه، ممَّـا مكَّـن «الكُتـلة الوطنيـة» كقيـادةٍ مـن الحصـول علـى وعـدٍ بالاسـتقلال فـي

مفاوضـات باريـس ١٩٣٦ وإقامـة انتخابـاتٍ ونظـام ديمقراطـيٍّ اسـتمرَّ بضـع سـنوات.

قـاد مرحلـة الانتـداب والاسـتقلال مجموعـةٌ مـن رجـالات سـورية، كان أغلبهـم مـن الطبقـة الغَنِـيَّة ومُـلَّاك الأراضـي وزعمـاء محليِّيـن وتألَّـف مجلـس الكُتـلة الوطنيـة مـن هاشـم الأتاسـي، وأحمـد بـن زعـل باشـا الرفاعـي، وسـعد اللـه الجابـري، وعبـد الرحمـن الكيالـي، ولطفـي الحفـار، وجميـل مـردم، وشـكري القوتلـي، ونسـيب البكـري، وأحمـد فاضـل الكيالـي، وإبراهيـم هنانـو، ومحمـد خيـر بيـك الحريـري، وسـلطان باشـا الأطـرش، وفـارس الخـوري، وفخـري البـارودي، وصالـح العلـي، ونجيـب البـرازي، ومحمـد الأشـمر.

كان أداء «الكُتـلة الوطنيـة» طيلـةَ فتـرة الإضـراب مُميَّـزًا... كانت رجالاتها علـى رأس المظاهـرات وكانـت تعليماتهـم فـي الإضـراب والتظاهـر نافـذةً عنـد الشـعب، اسـتطاعوا أن يحصلـوا علـى ثقـته الكاملـة وتأييـد غرفـة تجـارة دمشـق، حيـث أشـرفوا علـى عمليـات توزيـع الطحيـن والزيـت والمـال والملابـس علـى الفقـراء والعُمـال المُضربيـن. وأقنعـت «الكُتـلة الوطنيـة» المصـارفَ بضَـخِّ قـروضٍ جديـدة وتسـهيلاتٍ لصغـار التجـار المُتضرِّريـن وتأجيـل تحصيـل الإيجـارات طـوال مـدة الإضـراب. كمـا أنَّ رجـالات الكُتـلة ومُحازِبيهـم قـد بذلـوا مـن أموالهـم بسـخاء.

يقـول الدكتـور فيليـب خـوري فـي كتابـه، وكمـا لاحظـتِ القنصليـة البريطانيـة فـي دمشـق: «فـإنَّ الميـزة البـارزة فـي الإضـراب العـام، كانت الدرجـة العاليـة مـن الطاعـة التـي دِيـنَ بهـا للقـادة، ومَلَـكات التنظيـم والقيـادة التـي أبداهـا هـؤلاء القـادة فـي السـيطرة علـى حشـود النـاس»، مـا خلَـق قناعـةً عنـد المنـدوب السـامي بـأنَّ الكُتـلة هـي مَـن يجـب أن يُفاوضـه لفَـكِّ الإضـراب.

وفِعلًا تشكَّل وفدٌ من ستة أعضاء، هم: هاشم الأتاسي، وجميل مردم، وسعد الله الجابري، وفارس الخوري، والأمير مصطفى الشهابي، وادمون حمصي، توصَّل إلى اتفاقيةٍ مع الجانب الفرنسي تُعيد منطقتَيِ العلويين والدروز ضمن الدولة السورية، حيث عاد الوفد المُفاوض إلى الوطن ظافِرًا، ووقتئذٍ احتشدتِ الجموع لاستقباله في محطة سكة حديد الحجاز للانطلاق في مسيرة النصر إلى السرايا، واستمرَّت الاحتفالات أربعة أيام بالتمام والكمال. وقد حقَّقتِ الاتفاقية السورية، التي عُرِضَتْ على البرلمان وحَظِيَتْ بالإجماع، شروطَ السلام والصداقة والتحالف بين فرنسا وسوريا.

جرتِ انتخابات عامَّة في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦ وفازت الكُتلة بانتصاراتٍ حاسمة في أنحاء البلاد وفي المناطق الريفية ومناطق الأقليات، حيث لم يُحاول الوطنيون تسميةَ مُرشَّحين لهم بل تركوا للزعماء والوجهاء المحليين دخول الانتخابات عن مناطقهم.

لقد قرأتُ في محاضر جلسات مجلس النواب الذي انتُخِبَ بعد اتفاقية الاستقلال، أنَّ الحكومة قدَّمتِ اقتراحًا للمجلس بزيادة مُخصَّصات رئاسة الجمهورية وتوظيف عاملِ خدمةٍ إضافيّ، فعارضتْ لجنة المُوازنة وأصرَّت اللجنة أنَّ الزيادة هي بنفس النسبة لعاملي الدولة وهي ٣٪، ووافقتْ على توظيف عاملِ خدمةٍ إضافي براتب ٨٠ ليرة سورية سنويًّا.

وبالنتيجة، هكذا تعامل السوريون مع الديمقراطية في الوقت الذي كان فيه هتلر يحكم ألمانيا وموسوليني يحكم إيطاليا، وحيث بدأ احتلال الألمانِ بعد سنتين من ذلك التاريخ لفرنسا.

(٣) جائـزة فايمر لِـحـقـوق الإنـسـان

هـي جائـزةٌ حقوقيـة أقرَّهـا منـذ عـام ١٩٩٥ مجلـسُ مدينـة فايمـر مسـقط رأس الكثيـر مـن الأدبـاء والعلمـاء الألمـان مـن أمثـال الأديـب الكبيـر غوتـه وشـللر، وتُمنَـح للناشـطين فـي مجـال حقـوق الإنسـان، حيـث بـادر السـيد يـورن لـولاي المديـر الأسـبق لـ«معهـد غوتـه» فـي دمشـق إلـى ترشـيح اسـمي لهـذه الجائـزة لعـام ٢٠٠٣، وتـم اختـياري مـن بيـن ثمانيـة عشـر مُرشَّـحًا، باعتبـاري نائـبًا سـوريًّا مسـتقلًّا ومعتـقلًا بسـبب أفـكاره وانتـقاداته للممارسـات القمعِيـة والتعسـفية للنظـام الدكتاتـوري فـي سـورية. وقـد اسـتلمتِ الجائـزة ابنتـي جمانـة، وألقـتْ كلمـةً بهـذه المناسـبة[٥] فـي حفـلٍ تكريمـيٍّ عُقِـدَ فـي الذكـرى السـنوية للإعـلان العالمـي لحقـوق الانسـان ١٠ كانـون الأول/ديسـمبر ٢٠٠٣، وكان برعايـة الدكتـور فولـكارت غيرمـر عمـدة مدينـة فايمـر، وبحضـور نخبـةٍ مـن المهتميـن بحقـوق الإنسـان والسـيدة كلاوديـا روت العضـو فـي البرلمـان الألمانـي والمُكلَّفـة مـن قِبَـلِ الحكومـة الألمانيـة بمُتابعـة شـؤون حقـوق الإنسـان والمسـاعدات الإنسـانية، والتـي قالـت فـي كلمتهـا: «إنَّ جائـزة حقـوق الإنسـان التـي تُمنَـح لريـاض سـيف تُعتَـبر إشـارةً واضحـة للحكومـة السـورية لإطـلاق سـراح كافـة المعتقليـن السياسـيين». كمـا ركَّـز بقيـة المتحدثيـن علـى وضـع حقـوق الإنسـان داخـل سـورية وأبـدوا اسـتياءهم مـن الانتهـاكات التـي تحصـل والتدهـور المُتصاعـد لهـذه الحقـوق، علـى الرغـم مـن الوعـود الإصلاحيـة التـي وعـد بهـا بشـار الأسـد. واعتَـبر المشـاركون فـي الحفـل هـذه المناسـبة

---

(٥) جمانـة سـيف، كلمـة بمناسـبة تسـلُّم جائـزة مدينـة فايمـار لحقـوق الانسـان نيابـةً عـن والدهـا ريـاض سـيف، ألمانيـا، فايمـار ١٠ كانـون الأول/ديسـمبر ٢٠٠٣.
https://bit.ly/3kIwrkr

وسـيلةً لرَفـع معنويـات المعتقليـن ودعـم كافـة الناشـطين فـي حقـوق الإنسـان لمتابعـة جهودهـم الإصلاحيـة.

ومـا زاد مـنِ اسـتياء الدَّاعيـن والمشـاركين، مَنـع النظـام السـوري المحامـي والناشـط الحقوقـي الأسـتاذ أنـور البنـي مـن السـفر إلـى ألمانيا للمشـاركة فـي هـذا الحفـل.

وعلـى هامـش الحفـل تـمَّ عقـد مؤتمـرٍ صحفـيٍّ تحدَّثـتْ فيـه ابنتـي جمانـة عـنِ اعتقالـي غيـر الدسـتوري، وأنَّ سـببه مـا قدَّمتُـه مـن مُرافعاتٍ ودراسـات فـي مجلـس الشـعب تفضـح الفسـاد والفاسـدين فـي الحكومة السـورية. وأضـاءت، مـن موقعهـا كشـاهدةٍ ومُسـاهمة فـي بعـض مؤسسـاتي، علـى نشـاطي الصناعـي وعنايتـنا بشـؤون العاملين الجسـدية والنفسـية وبتوفيـر أفضـل الشـروط لهـم، الأمـر الـذي سـاهم فـي تغييـر مفهـوم العلاقـة السـائدة بيـن رَبِّ العمـل والعامـل، ومـا يستَـتـبِع ذلـك مـن النهـوض بمسـتوى الإنتـاج وفاعلِيَّتـه.

(٤) زيـارة وزيـر الداخـليـة

عنـد انتهـاء ثلاثـة أربـاع مُـدة الحكـم في الشـهر السـادس من عـام ٢٠٠٥، تقدَّمـتُ بالتنسـيق مـع المحاميـن بطَلَـبِ إخـلاء سـبيلٍ حسـب القانـون، وكذلـك فعَـل زملائـي المعتقلـون، لكنهـا رُفِضَـتْ جميعهـا. وكنـت فـي حاجـةٍ لعمليـة (فتـق) نُقِلـتُ لأجريهـا فـي مشـفى الشـفاء على حسـابي الشـخصي، ولكـن تبيَّـن للأطبـاء ضـرورة إجـراء قسـطرة قلبيـة أولًا، ليتـم نقلـي إلـى مشـفى الشـامي مـع مرافقـةٍ مـن ٢٠ عنصـرًا أشـاعوا الفوضـى فـي المشـفى. وكشَـف أطبـاء القسـطرة انسـدادَ الشـريان الأمامـي النازل تمامًـا، واقـترحوا إجـراء عمليـةٍ للقلـب لكنـي رفضتُهـا، لأننـي بصراحـة لـم أكـن مطمئنًّـا للأطبـاء الذيـن سـيُجرون العمليـة، وغيـر قـادرٍ علـى

تحمل تكلفتها في تلك الظروف، ولأني علمتُ أنَّ ما عوَّض انسدادَ الشريان الرئيس تفاغرُ شريانَين جانبيَّين جراء الرياضة المنتظمة التي مارستُها في السجن.

بعدها، وفي الشهر الثامن من عام ٢٠٠٥، تفاجأتُ ذات يوم بخَبر عن زيارة وزير الداخلية غازي كنعان[٦] للسِّجن. جال كنعان على عدد من المهاجع ثم دخل إلى غرفتي ومعه مُرافقوه ومدير السجن، وكانت معنوياتي ذلك الحين في الذروة، واقتناعي بما فعلتُه لا يتزعزع. سلَّم عليَّ وقال: «هل هذه الغرفة كلها لك وحدك؟» وأجبتُه فورًا بسؤال: «هل هي كثيرة على رياض سيف يا سيادة الوزير؟!» فقال: «لا، ولكن هذا مستغربٌ في سجن» ثم جلس على أحد الكرسيَّين وجلستُ على الآخر مُتيقِّنًا أنَّ الحديث قد يطول، وقال: «أُبلِغتُ أنك طالبٌ مقابلتي» أجبتُه: «أنا لم أطلب مُقابلتك، وليس لي أي مطلب، وربما هناك خطأ في الموضوع» صدَمه جوابي، فسكت برهة، ثم استأنف حديثه قائلًا: «كان سَيركم في البداية صحيحًا، ويُعبِّر عن روحٍ وطنية، ولكنْ جاء مَن لعب برؤوسكم وغرَّر بكم، فأصابكم نوعٌ من الغرور القاتل» فأجبتُه: «والله يا سيادة الوزير لسنا نحن مَن أصابنا الغرور... بل أنتم، نحن نُطالب بتغييرٍ وطنيٍّ ديمقراطي سِلمِيّ، هادئ ومتدرج، ويصبُّ في مصلحة الجميع، وها أنتم تُجيبوننا بالاعتقالات والسجون، وما زلتم تقولون سوريا الأسد للأبد، وليس من أبَدٍ لغير الله سبحانه وتعالى، فمَنِ الذي أصابه الغرور؟» فهبَّ واقفًا وخرج من الغرفة غاضبًا. بعد حوالي نصف ساعة، قرَع الحُراس باب الغرفة، فدخل ثلاثةٌ منهم وأخرجوا كلَّ ما في الغرفة من كتبٍ وأجهزة بل حتى أدوات الطبخ،

(٦) مدخل «(اللواء) غازي كنعان» في **ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة**.

ليُحضِروا بعدها ثلاثةً من المساجين الجنائيين، أخبروني بأنهم قد فُرِزُوا إلى هذه الغرفة، أحد هؤلاء الثلاثة (س) غير أخلاقي، والثاني (ع) قاتل، والثالث (ص) دكتور شبه مجنون.

أخرَج (ع) سيجارة وهمَّ بإشعالها فقلت له: «التدخين ممنوع في هذه الغرفة» فأجابني مباشرةً «سأدخِّن غصبًا عنك». فهمتُ أنهم مُكلَّفون بإزعاجي، خرجتُ من الغرفة أمشي، حتى هدأتْ نفسي واستعدتُّ تركيزي، وقرَّرتُ استيعابهم لأنني اعتبرتُهم نماذج لشرائح موجودة من المجتمع، مُفَقَّرة ومُهَمَّشة ومَقهورة، ضحايا للنظام الاجتماعي والسياسي، ويُفترَض بي أن أحاول الوصول إلى الجانب الخيِّر من شخصياتهم أو على الأقل إلى الإنسان الكامن في داخل كلٍّ منهم.

أصرَّ (ع) القاتل على أداء دوره، فتحمَّلنا ثلاثتنا سلوكه في النوم نهارًا ورفع صوت جهاز التسجيل إلى أعلى مستوى في الليل، حتى بدأ يخجل قليلًا ويُخفِّف من وطأة هذا السلوك. أما الدكتور (ص) فكان رجلًا بسيطًا ومُسالمًا، وكنت أعامله معاملةً طيبة، فصار يتودَّد ويتقرَّب مِنِّي ويقف إلى جانبي ليُدافع عني، وعندما غمز أحدهم أنَّ زميلهم (س) مُضطربٌ أخلاقيًّا تعاملتُ مع الأمر بتفهُّم وموضوعية، وأجبتُهم أنَّ من حق كل إنسان أن يكون ما يشاء، شريطةَ ألا يؤذي أحدًا. وبمِثل هذا النهج استطعتُ استيعاب أدوارهم وتمكَّنتُ من إفشال مُخطَّط الإزعاج، حتى بعد أن جاؤوا بسجينٍ جديد لم أتردَّد وبنفس الأسلوب كسبتُه إلى صفِّي، لكن بعد مكابدةٍ لم تكن سهلة. وأخيرًا أتوا بحبيب صالح، حيث بقينا معًا حتى خروجي من السجن. ومع أنَّ التعامل مع حبيب كان صعبًا، إلا أنَّ الأوضاع بصورة عامة صارت أقل سوءًا، لكنها أرَّقتْني وأثَّرتْ سلبًا على نشاطي وقِراءاتي.

وبينما كانت زياراتي دوريةً مرتين أسبوعيًّا، مرةً يأتي ابني جواد وأولاده ومرةً زوجتي وابنتي جمانة وأولادها، وفي بعض الأحيان قد يصطحبون معهم مَن يرغب من الأقرباء والأصدقاء، وبينما كان يُسمَح لي أن أستقبلهم وأولادهم في غرفة نائب مدير السجن، لتَغدوا الزيارة أشبه بلقاءٍ عائليٍّ حميمي مع الأولاد والأحفاد أنتظرها كل أسبوعٍ بفارغ الصبر، وأنتظر عبرها جديد ما يجلِبونه من الكتب والمقالات المَمنوعة والأخبار عن العالم الخارجي ــ صار الأمر صعبًا بعد الضغط والحصار الذي انعكس على هذه الزيارات أيضًا لتَغدوا غير مُنتظمة وقصيرة وتتم تحت الرقابة المباشرة والكثيفة من خلال شباكين، وغالبًا وحدي، بعد انتهاء مواعيد زيارات المساجين الآخرين، كي تَسهل مُراقبتي. وكان الزائرون لي يتعرَّضون أيضًا للمضايقة وخاصَّةً ابنتي جمانة، من لحظة دخول السجن حتى الخروج منه، مع تشديد التفتيش على كل شيءٍ لمعرفة ما يُحضِرونه لي بدِقَّة.

(٥) توقيعي على وثيقة إعلان دمشق

في أوائل تشرين الأول، كما أذكر، زارتني ابنتي جمانة برفقة الأستاذ حسن عبد العظيم، والذي أخبرني عن وجود مشروعٍ للتحالف بين قُوى المعارضة ذات التوجُّه الديمقراطي والمدَني، وعن رغبة المشاركين في أن أكون واحدًا منهم، وأشار إلى أنَّ المشروع لا يزال قيد الإنجاز، مُكثِّفًا أهم الأفكار المُحتمَل أن تُدرَج فيه، فوافقتُ بلا تحفُّظ، مُدرِكًا أنَّ مشروع التغيير الديمقراطي، على نحوٍ هادئٍ وسِلميٍّ وتدريجيّ، هو هدفُ أكثرية قوى المعارضة، وخاصَّةً جوهره الذي يُعنَى بعملية تغييرٍ إنقاذِيَّة، تنقل البلاد من قواعد الاستبداد

والدولـة الأمنيـة وأفعـال القـوة والوصايـة إلى قواعـد العمـل الديمقراطية التـي تقـوم علـى احتـرام التنـوع والتعدديـة واعتمـاد الحـوار والوسـائل السـلمية فـي إدارة الخلافـات وحلِّهـا، مـع احتـرام المواطـن المتسـاوي بغَـضِّ النظـر عـن فِكـره وجنسـه ودينـه وقوميتـه. وقـد صـدرتْ وثيقـة «إعـلان دمشـق للتغييـر الوطنـي الديمقراطـي»[٧] فـي ١٦ تشـرين الأول/ أكتوبـر ٢٠٠٥ وكان لـي شـرفُ التوقيـع عليهـا، بصفـةِ مُسـتقلّ، وذلـك علـى الرغـم مـن وجـودي فـي السـجن آنـذاك مـن بيـن تسـع شـخصياتٍ مسـتقلة أخـرى، وهـم المفكـر الإسـلامي جـودت سـعيد، وفـداء حورانـي، وميشـيل كيلـو، وعـادل زكار، وسـمير نشـار، وعبـد الـرزاق عيـد، وهيثـم المالـح، وعبـد الكريـم الضحـاك، ونايـف قيسـيه، إلـى جانـب أحـزاب «التجمُّـع الوطنـي الديمقراطـي» الخمسـة: «حـزب الشـعب» و«الاتحـاد الاشـتراكي» و«الاشـتراكيِّين العـرب» و«العُمـال الثـوري» و«البعـث الديمقراطـي»، ثـم أحـزاب التحالـف الديمقراطـي الكـردي فـي سـورية، ولجـان إحيـاء المجتمـع المدنـي، و«الجبهـة الديمقراطيـة الكرديـة» فـي سـورية و«المنظمـة الآثوريـة الديموقراطيـة» و«حـزب المسـتقبل» (نـواف البشـير) و«اللجنـة السـورية لحقـوق الإنسـان».

كمـا قامـت أحـزابٌ ومنظمـات سـورية أخـرى بإعـلان تأييدهـا ودعمهـا لهـذه الخطـوة، مثـل جماعـة الإخـوان المسـلمين برئاسـة صـدر الديـن البيانونـي وقُـوى معارضـة وطنيـة وهيئـات مدنيـة مـن داخـل البـلاد وخارجهـا، منهـا «حـزب العمـل الشـيوعي» و«منتـدى جمـال الأتاسـي للحـوار الديمقراطـي» و«تحالـف الوطنييـن الأحـرار» و«المجلـس الوطني السـوري فـي واشـنطن» (نجيـب الغضـان).

---

(٧) بيان إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي.

https://bit.ly/2ZFjZtw

لـم يمـرَّ وجـود اسـمي كأحـد المُوقِّعيـن علـى إعـلان دمشـق مـرورَ الكـرام، بـل ازدادت الضغـوط علـيَّ بغـرض إكراهـي علـى الانسـحاب منـه، وطالـتِ الضغـوط شـروطَ حياتـي وطرائـق التعامـل مـع زيـارة أهلـي وأبنائـي. وكانـت البدايـة مـع الزيـارة الدوريـة إلـى السـجن التـي عـادةً مـا تقـوم بهـا ابنتـي جمانـة، حيـث فوجِئَـتْ، عنـد البـاب الرئيـس، بطلَـبٍ مُلِـحٍّ مـن مديـر السـجن، العميـد سـمير الشـيخ، لمُراجعتـه فـي مكتبـه، وهنـاك وجدتْـه بانتظارهـا، ليُبـادر إلـى القـول فـورًا: «أبوكـي وقَّـع علـى إعـلان دمشـق، وتحالَـف مـع الإخـوان المسـلمين! هـل تعلمـون كـم سـيكلفه هـذا التحالـف؟!»، وعندهـا قـدَّرتْ جمانـة أنـه أحضرهـا قبـل الزيـارة للضغـط عليهـا كـي تقـوم بدَورهـا بالضغـط علـيَّ للانسـحاب مـن الإعـلان، فـردَّت عليـه: «إخـوان مسـلمين! لا أعلـم إن كان أبـي قـد تحالَـف مـع الإخـوان! مَـن هـم الإخـوان الذيـن تتحـدَّث عنهـم؟» فقـال: «هـل معـكِ البيـان؟»، فأجابـتْه: «إنـه معـي... لقـد أحضرتُـه ليـرى أبـي اسـمه بيـن المُوقِّعيـن». أخـذ البيـان منهـا، فكـرَّرتْ عليـه السـؤال: «مَـن مِـنَ الإخـوان بيـن المُوقِّعيـن؟»، فأشـار العميـد بسـرعةٍ إلـى اسـم الدكتـور عبـد الـرزاق عيـد، عندهـا تعمَّـدتْ جمانـة الالتـفاف علـى الحديـث وبـادرتْ إلـى سـؤاله، إن كان بإمكانهـا إيصـال البيـان لـي عبـر الزيـارة.

عندمـا عاينـوا عـدم تجاوبـي معهـم فـي الضغـط علـيّ، قامـوا باسـتدعاء ابنتـي جمانـة، ثـم ابنـي جـواد مـن بعدهـا! وهدَّدوهمـا، مثلمـا هدَّدوني وحاولـوا طويـلًا بالترهيـب والترغيـب، حتـى قلـتُ لهـم بأننـي «لـن أنسـحب وأعلـى مـا بخيلكـم اركبـوه!». كاد ابنـي جـواد يُجَـنُّ مـن ردة فعلـي، اشـتكى لجمانـة قائـلًا لهـا: «هـل هنـاك أحـد فـي الدنيـا يُجيبهـم هكـذا وهـم يسـتطيعون قتلـه بـأيِّ وقـت!». وقـد شـكَّل توقيعـي علـى إعـلان دمشـق نقلـةً مهمـةً فـي تفكيـري ومعنوياتـي وعـزَّز الأمـل عنـدي

بـأنَّ خروجـي مـن السـجن باتـتْ لـه قيمـة خاصـة كـي أتابـع الطريـق الـذي بدأتُـه.

(٦) إطــلاق ســراحي

وكان الجديـد اشـتدادَ طـوق العزلـة والحصـار على السـلطة السـورية بعد اغتيـال رفيـق الحريـري، رئيـس وزراء لبنـان فـي ١٤ شـباط/فبراير ٢٠٠٥، وتوجيـه أصابـع الاتهـام السياسـية إلـى النظـام، وانتفـاض اللبنانييـن علـى «الوصايـة السـورية» فيمـا سُـمِّيَ «ثـورة الأرز»، التـي تُوِّجَـتْ بإخـراج القـوات السـورية مـن لبنـان فـي ٢٦ نيسـان/ أبريـل ٢٠٠٥ وتشـكيل محكمـةٍ دوليـة خاصَّـة للتحقيـق فـي مقتـل الحريـري اسـتجوبتْ عـددًا مـن رمـوز النظـام الأمنييـن.

كل ذلـك دفـع هـذه السـلطة، ربطًـا باقـتراب موعـد انعقـاد المؤتمـر العـام لاتحـاد المحاميـن العـرب، وسـعيها إلـى عقـده فـي دمشـق لتمرير رسـائل سياسـية تُخفِّـف مـن عزلتهـا، للموافقـة علـى اشـتراط الأمانـة العامـة للاتحـاد بالإفـراج عـن معتقلـي الـرأي (المعتقليـن السياسـيين) وفـي مُقدمتـهم الأسـتاذ حبيـب عيسـى الـذي كان عضـوًا فـي الاتحـاد.

وبالفِعـل، قُبَيـلَ انعقـاد المؤتمـر، أُبلغـتُ مـع أصدقائـي المعتقليـن الآخريـن، (حبيـب عيسـى، مأمـون الحمصـي، وليـد البنـي، فـواز تللـو)، بقـرار الإفـراج عَنَّـا، سـيما وأننـا قـد قضينـا ثلاثـة أربـاع مـدة السـجن. وفـي مسـار تنفيـذ القـرار اسـتدعاني مديـر السـجن فـي ليلـة ١٨ كانـون الثاني/ينايـر ٢٠٠٦ وأعطانـي ورقـةَ تعهُّـدٍ لأوقعـه، يتضمَّـن اعترافـي بالذنـب وبأننـي أصلحـتُ نفسـي، وهـو تعهـدٌ يعرفـه السـجناء جميعًـا مِـن الذيـن يتـقدَّمون بالْتِـماسٍ لنَيـل ربـع المدة مـن حكمهـم القانوني، فرفضـتُ توقيعـه، وهكـذا كان قـرار بقيـة زملائـي، وعندهـا حـاول مديـر

السـجن، إقناعـي وإقنـاع زملائـي بـأنَّ المسـألة شـكلية، وأنَّ التوقيـع شـرطٌ للإفـراج وإغـلاق الإضبـارة، أجبتُـه بأننـي فعـلًا لا أريـد هـذا الإفـراج المشـروط، لأن فـي ذلـك إقـرارٌ بـأنَّ سَـجننا كان عـادلًا، وهـو ليـس كذلـك، وإذا كانـت السـلطة تريـد فعـلًا الإفـراج عَنَّـا، عليهـا أن تُطلِـق سـراحنا مـن دون توقيـع أيـة ورقـة أو تعهـد ومـن دون شـروط.

وفـي سـاعةٍ متأخـرة مـن الليـل، تـم اسـتدعاء قائـد شـرطة دمشـق وكان زميـلًا أيـام الدراسـة فأبلغتُـه أنـي أُفضِّـل البقـاء فـي السـجن حتـى انقضـاء السـنوات الخمـس علـى أن أُوقِّـع علـى هـذا التعهـد، مُعلِّـلًا ذلـك مـرة أخـرى، بـأنَّ التوقيـع عليـه هـو اعتـراف بأننـي كنـت علـى خطـأ وأننـي كنـت مُذنِبًـا، وهـو بالتالـي اعتـرافٌ ضِمنـيٌّ بصحـة التهـم التـي سُـجِنتُ علـى أساسـها. وفـي ضـوء إدراكهـم لتصميمـي علـى رفـض هـذا التعهـد، تـمَّ فـي صبـاح اليـوم التالـي شـطبُ تلـك العبـارة وخرجـتُ مـن السـجن أكثـر تصميمًـا علـى الكفـاح مـن أجـل الحريـة.

بيضاء في الأصل

الباب الثَّاني

الخـروجُ الأوَّل من السِّـجن وتجـربـتي في إعـلان دمـشـق

بيضاء في الأصل

الفصل الأوَّل

حياةٌ جديدة وحراكٌ جديد

بيضاء في الأصل

(١) الخروج من السجن

بعد أربع سنواتٍ وأربعة أشهرٍ ونصف من الاعتقال، خرجتُ من السِّجن في ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦، وكان مُراسل قناة الجزيرة في انتظاري عند البوابة الخارجية، حيث بادرني بالسؤال: «هل مازِلتَ تدعو لإصلاح النظام؟»، فأجبتُه من دون تردُّد: «إنَّ هذا النظام غير قابلٍ للإصلاح وإننا نُنادي بالتَّغيير الديمقراطي!». فقد كنتُ، لحظةَ إطلاق سراحي، أكثرَ تصميمًا وعزمًا على المُضِيِّ قُدمًا لنصرة مشروع التغيير الديمقراطي.

خلال وجودي في السجن، كانت ابنتي جمانة تحضر اجتماعات اللجنة المؤقَّتة لإعلان دمشق، بِناءً على طلَبي ومُوافقتهم، كي أكون عند إطلاق سراحي في صُورة التطورات التي تجري. لكنَّ فكرة العمل السياسيِّ المُستقِل والتطلع لتشكيل حزبٍ ديمقراطيٍّ هدفه التخلص من الاستبداد، ومرجعيَّته العقل وليس الأيديولوجية في تحليل مختلف قضايا المجتمع ــ كانت حاضرةً في ذهني دائمًا، مُستندًا إلى تجربتي في مجلس الشعب ومنتدى الحوار الوطني وورقة السِّلم الاجتماعي وما راكمتُه من وَعيٍ في سنوات السجن. وقد عبَّرتُ عن هذه التوجهات في المقابلة التي أجراها

معـي الصحفـي شـعبان عبـود[1] ونُشِـرَتْ فـي جريـدة **النهـار** اللبنانيـة بتاريـخ ٢٤ كانـون الثّاني/ينايـر ٢٠٠٦. فـي هـذه المقابلـة أظهـرتُ رؤيتـي للديمقراطيـة والليـبرالية، وأننـا ديمقراطيـون بـكل مـا فـي هـذه الكلمـة مـن معنـى، وأقصـد بالديمقراطيـة القِيـم والمبـادئ التـي تطوَّرت واكتسـبتْ خبـراتٍ وتراكمـات منـذ الحـرب العالميـة الثانيـة فـي أوروبـا ومـا أضافـتْه المنظمـات العالمية المهتمة بقضايا حقوق الإنسـان وغيرها، وهـي ديمقراطيـةٌ مَبنِيَّـةٌ علـى أُسُـسٍ ومنظومـةٍ أخلاقيـة، ومُنسـجمةٌ فـي الوقـت نفسـه مـع ثقافـة الشـعب السـوري. وبيَّنـتُ موقـفي مـن المعارضـة السـورية التـي أُكِـنُّ لهـا كل تقديـر واحتـرام والتـي تعمـل فـي ظـروفٍ قاسـيةٍ جـدًّا، وحيـن سـنحتْ لهـا فرصـةٌ مناسِـبة أطلقـتْ «إعـلان دمشـق للتغييـر الوطنـي الديمقراطـي» وأعتقـد أنـه حيـن يتسـنَّى لـيَ المسـاهمة فـي تشـكيل حـزبٍ جديد، فـثمة قواسِـم مشتـركة سـتجمعنا مـع العديـد مـن أطـراف المعارضـة وسـيكون هنـاك إمكانيـة للتعـاون مع الجميـع داخـل البـلاد، بمـا فيهـا التنظيمـات والأحـزاب الإسـلامية التـي توافـق علـى قواعـد الحيـاة الديمقراطيـة.

وأقصد متى أصبح الإسلاميون ديمقراطـيِّين، فلن يعودوا يُخيفوننا.

(٢) ضغوط الأجهزة الأمنية

لـم يكـن خروجـي مـن السـجن خروجًـا إلـى الحريـة، بـل إلـى سِـجنٍ أكبـر يشـمل مسـاحة البـلاد، حيـث بـدأتْ أجهـزة الأمـن ومنـذ اليـوم

(١) شـعبان عبـود، «معارضـةٌ تحـت سـقف إعـلان دمشـق»، **النهـار** (بيـروت)، ٢٤ كانـون الثاني/ينايـر ٢٠٠٦؛ اطلـب النـص الكامـل علـى الرابـط أدنـاه:
https://bit.ly/2FXr9ST

الأول لإطلاق سراحي بمتابعةٍ حثيثة لتحرُّكاتي ولقاءاتي، وبدا أنَّ ثمة نهجًا يتصاعد تدريجيًّا لمُحاصرتي والضغط عليّ.

على مدى أربعة أسابيع كان منزلي مُمتلئًا بمُهنِّئين من جميع المحافظات ومن كافَّة شرائح المجتمع السوري، الذين استثمروا هذه الفرصة للتحدث بجُرأةٍ وصراحة في الأمور السياسية والمعاشية، وكأنهم نسوا ونسيتُ معهم أننا فيما يُسمَّى «سورية الأسد» وفي دولة الاستبداد والقهر الأمنيّ، والأهمُّ لإشهار رغبتهم في المشاركة بالحياة السياسية وتطلُّعهم لتأسيس حزبٍ سياسيٍّ يجمعنا، كما لو أنَّ هناك توافقًا ضمنيًّا على أنَّ الوقت قد حان لمتابعة ما توقفنا عنده في ربيع دمشق.

مِن إيماني بهذا الخيار ودعمًا له، طرحتُ ثلاثة أفكارٍ أو ثوابت حول طبيعة الحزب المفترَض إنشاؤه: أولًا، الْتزامُه الصريح بالديمقراطية وتبادل السلطة؛ ثانيًا، أن يكون بعيدًا عن الأيديولوجية؛ ثالثًا، أن يُبنَى على قاعدةٍ أخلاقية صلبة.

لم يَرُقْ هذا الجوُّ المُفْعَم بالحيوية والثقة والصراحة لأجهزة الأمن التي سارعتْ لِلَعب دورها المعهود بأشكاله المتنوعة، بدءًا بالاستدعاءات المتكررة إزاء بعض المواقف والتصريحات التي أُعلِنها، مرورًا بالتضييق على حركتي ونشاطاتي في العلاقة مع أوساط إعلان دمشق ومع مُمثِّلي الصحافة والمجتمع الدولي، وانتهاءً بمُحاصرة أسرتي وإرهاب وسطي الاجتماعي.

بعد أقل من شهرٍ واحد من إطلاق سراحي، في يوم الثلاثاء ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٦ استُدعيتُ عبر الهاتف للقاء اللواء علي مملوك رئيس إدارة المخابرات العامة وقتئذ، الذي طلَب مِنِّي تنحية رئيس الجمهورية عن أيِّ نقد، وعدم لقاء أيِّ لجنةٍ من مفوضية حقوق

الإنسان في الأمم المتحدة. تلا ذلك حضور دوريةٍ من الأمن العسكري ليلًا لاعتقالي، ولكنني لم أسمع طرقهم على الباب، فذهبوا للبحث عني في بيت ابن أخي، وعندما لم يجدوني انطلقوا إلى بيت ابني جواد وأصطحبوهما معهم وعادوا الساعة الخامسة فجرًا لاعتقالي من منزلي. كبَّلوني ووضعوا «الطماشة» على عيوني وساقوني إلى أحد فروعهم حيث واجهوني بالضرب وبسَيلٍ من العبارات النابية والبذيئة واتِّهامي بالخيانة. وبعد ساعاتٍ طلبوا مني التوقيع على تعهُّدٍ بعدم التواصل مع أيِّ وسيلةٍ إعلامية وتجنب لقاء أيِّ سفيرٍ أو صحفي أجنبي. كما طلبوا مِنِّي زيارة الفرع بشكلٍ أسبوعي ودائم، رفضتُ ذلك قطعيًّا فوضعوني في مكانٍ بارد، لمدة ساعتين وكانت ليلةً مُثلجة، ثم جاء أحد الضباط ليسألني، إن كانت رسالتهم الإرهابية قد وصلتْني أم لا؟! وليُضيف مُحذِّرًا: «إذا كنتَ تريد البقاء على هذه الحالة يا رياض سيف فسوف تعيش بقيةَ حياتك ذليلًا، أما إذا فهمت علينا وتوقفتَ عما تفعله ضدنا، رح تعيش ملك»... وأطلقوا سراحي قرابة الساعة العاشرة والنصف صباحًا.

في نفس اليوم، في الساعة السادسة مساءً، اتصل العميد زهير حمد من فرع معلومات الإدارة العامة للمخابرات، وأكَّد ضرورة حضوري الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، الخميس ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٦ إلى الفرع للضرورة والأهمية. وهناك تمَّ احتجازي في غرفةٍ ملحقة بأحد المكاتب دون أي سؤالٍ حتى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، وقد كان هدفهم من احتجازي هذا الوقت هو مَنعي من لقاء لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة. وقبل إطلاق سراحي أبلَغني العميد زهير بضرورة حضوري للقاء اللواء علي مملوك يوم السبت، وطلَب مِنِّي مجددًا التوقيع على تعهُّدٍ

بعـدم لقـاء الصحفييـن والأجانـب والدبلوماسـيين، فرفضـتُ تقديـم أيِّ تعهـدٍ تحريـري أو شـفهي وأعلنـتُ أيضًـا بأنـي لـن آتـي يـوم السـبت إلّا مَخـفورًا.

وبالتَّـزامن مـع توقيفـي فـي إدارة المخابـرات العامـة، تـمَّ اسـتدعاء مدير مكتبـي حسـام شـحادة مـن قِبَـلِ المقـدِّم فـي الأمـن السياسـي برهـان أسـبر، وسـأله عـن مشـروع الحِـزب الـذي أنـوي تأسيسـه وعـن دوائـرَ تحريضيَّـةٍ سـلبية تُحيـط بريـاض سـيف وعـن علاقـاتٍ محتملـة مـع عبـد الحليـم خـدام وعلي صـدر الديـن البيانونـي، وعن تمويـلاتٍ محتملة مـن دول غربيـة، وأخبَـره بأننـا واهمـون إذا اعتـقدنا أنَّ النظـام ضعيـف، بـل هنـاك سـيناريوهاتٍ عديـدة للتعامـل معـي، أولهـا أنَّ دوريـات الأمـن سـوف تكـون مرافقـةً لي كـظِلِّي.

وبالفعـل وضعـوا أمـام مكتبـي فـي جسـر فكتوريـا، عنصـرَ أمـنٍ يطلـب ويُـدوِّن بشـكلٍ مُفصَّـل هويـة كل زائـرٍ لـي ويسـأله عـن سـبب الزيـارة وطبيعـة العلاقـة التـي تربطـه بـي. كمـا وضعـوا رقابـةً أمنيـة أمـام منزلـي ومنـازل أبنائـي، مـع تواتـر اسـتِجواب العشـرات مـن أقاربـي وأصدقائـي لمعرفـة تفاصيـل حياتـي الشـخصية ووضعـي المـادِّي.

وفـي يـوم السـبت السـاعة الثانيـة عشـرة ليـلًا، حضـر رائـد مـن فـرع الأمـن الداخلـي وأعلمنـي بموعـد مقابلـةٍ مـع اللـواء محمد فـؤاد ناصيف صبـاح الأحـد السـاعة الحاديـة عشـرة، كمـا أبلغنـي فـي الصبـاح الباكـر عنصـر أمـنٍ عبـر ورقـةٍ رسـمية ضـرورةَ حضـوري إلـى فـرع الخطيـب السـاعة الحاديـة عشـرة، مُدَّعيًـا عـدم علمـه بقـدوم الرائـد. اسـتمرَّ اللقـاء مـع اللـواء ناصيـف خمـس سـاعات، ودار الحديـث حـول مقابلـةٍ أجراهـا

معي الصحفي محمد علي الأتاسي[٢] ونُشِرَتْ في جريدة **النهار** في الخامس من شباط/فبراير ٢٠٠٦، وقد أبلغني بملاحظاتِ خبرائهم الأمنيِّين ومثقفيهم حول ثلاثَ عشرة نقطةً في المقابلة تجاوزتْ كلَّ الخطوط الحمراء. وفي المساء تابع العميد تركي علم الدين الحوار معي بحضور مستشارٍ أمنيّ، حيث وضعاني أمام خيارَين إما تكذيب بعض ما ورَد في المقابلة، وإما الاعتقال والسَّجن، وبعد أخذٍ وردٍّ تم الاتفاق على أن أقوم بتوضيح ما يدَّعون أنها الْتباساتٌ وردتْ في تلك المقابلة.

عُدتُّ في السابعة من مساء يوم الإثنين ومعي التعديلات التي ارتأيتُها والتي لا تمسُّ الجوهر. وبعد نقاشٍ دام ساعتين بحضور نفس الخبير، قرَّر العميد سَجني، فأنزلوني إلى الزنزانة بعد المرور بكلِّ إجراءات الاعتقال المعروفة، ولكنْ في العاشرة والنصف أبلغوني بقرار العدول عن سَجني لأسبابٍ إنسانية حسب قولهم، شريطةَ إجراء حوارٍ جديد مع صحيفة **النهار** أُوضِّح فيه الأفكار التي كانت محلَّ انتقادِ الجهات الأمنية. وقد سلَّمتُ نصَّ الحوار المُعدَّل يوم الثلاثاء ٢١ شباط/فبراير في السابعة مساءً، حيث طلبوا مِنِّي العودة يوم الأربعاء في الساعة الثانية عشرة ظهرًا لأخذ موافقة اللواء ناصيف، وتمَّ تأجيل الموعد إلى يوم الخميس حيث سلَّمني العميد تركي علم الدين نسخةً مُعدَّلةً من قِبَلِهم للحوار، لتنتهيَ هذه الجولة من الاستدعاءات والضغوط بنشر التعديل وبتهديدٍ صريح وحازم من قِبَلِ اللواء ناصيف بأنَّ «النظام سيُدافع عن نفسه من

(٢) رياض سيف، «التغييرُ في سوريا آتٍ قريبًا لا محالة»، ملحق النهار، العدد ٧٢٦، الأحد ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦.

https://bit.ly/33O349j

خلال تطبيق حالة الطوارئ إما بالسَّجن وحتى بالقتل دون الاهتمام بالاحتجاجات الدولية».

أمَّا الجولة الثانية من المُعاناة الأمنية، فقد شهِدها شهر آذار/مارس من عام ٢٠٠٦، حيث تمَّ تكثيف المتابعة والمراقبة الأمنية على مدار أربع وعشرين ساعة ومن خلال عدة دوريَّاتٍ مُوزَّعة بين مكتبي ومنزلي وبيوت أبنائي وأقاربي، مع استمرار وجود عنصرَيْ أمن بشكلٍ دائم أمام مكتبي وبيتي.

وطبعًا، لَعِبَ مشهدُ سيارات رجال الأمن وهي تلاحقني أينما ذهبتُ ومتابعتهم لأيِّ ضيفٍ بعد خروجه من زيارتي ــ دورًا في زرع الخوف لدى معارفي وأصدقائي فانكفأت غالبيَّتهم عن التواصل معي، بينما حافظتْ قلةٌ منهم فقط على تواصلها معي، وإن بشكلٍ حذِرٍ وخجول، عداكم عن أنَّ أجهزة الأمن اتجهتْ لتشكيل مجموعة عملٍ من عناصرها بالإضافة إلى مُحامٍ وسيدة، مُهِمَّتُهم البحث عن أشخاصٍ للادِّعاء عليَّ بقضايا مالية، وقد أبلغني أحد معارفي بأنهم سألوه إن كان له أموالٌ بذِمَّتي وظَّفها للاستثمار، أو أرباحٌ لم تُسدَّد، فنَفى ذلك. بينما تمَّ استدعاء ابني جواد إلى مكتب اللواء ناصيف، لمدة ساعتين ونصف الساعة، حيث ضغَطوا عليه ليقوم بإقناعي بضرورة عقد هُدنةٍ لحين زوال الخطر الخارجي. وفي اليوم التالي، استُدعِيَ شقيقيَّ، محمد خير وراتب، مع ابن أخي أمين، وسعيد الحافي (وهو تاجر في الحريقة)، وهيثم ميداني، المدير السابق لغرفة صناعة دمشق إلى مكتب العميد تركي علم الدين وحضرتُ جانبًا من هذا اللقاء، الذي تركَّز على تصوير رياض سيف كعدوٍّ والنظام كضحية، مع تهديدٍ مُبطَّنٍ بأنَّ الضحية قد تفقد صبرها وتُدافع عن نفسها ضد المُعتدي بكل الوسائل.

وأعتــقد أنَّ مـا أثـار حنـق وحقـد أجهـزة الأمـن علـيّ، خـلال شـهر آذار/ مـارس، هـو مشـاركتي فـي ثـلاث نشـاطاتٍ ميدانيـة:

- أولهـا، المشـاركة فـي اعتصـامٍ رمـزيٍّ أمـام القصـر العدلـي فـي دمشـق دعـتْ إليـه اللجنـة المُؤقَّــتة لإعـلان دمشـق فـي التاسـع مـن آذار/مـارس فـي الذكـرى الـ٤٣ لإعـلان حالـة الطـوارئ والأحـكام العرفيـة فـي سـورية، مـع مـا يقـرب مـن ١٠٠ ناشـطٍ سياسـيٍّ ومثــقف، حملـوا لافتـاتٍ صغيـرة تُطالـب بإلغـاء حالـة الطـوارئ. تـم الاعتـداء علـى هـؤلاء الناشــطين وتفريقهــم بوحشــية. وفــي مســاء اليــوم ذاتــه اســتُدعيتُ لمقابلـة العميـد تركـي علـم الديـن، الـذي أظهـر غضبَـه الشـديد مـن مشـاركتي فـي الاعتصـام، واعتبـر مثـل هـذه الأعمـال خطًّـا أحمـر يُمكـن أن تُـؤدِّي إلـى الفوضـى، وأنذرنـي بأنـه يُحظَـر علـيَّ المشـاركة فـي أيِّ اعتصـام، وطلـب منـي مراجعــته بعـد ثمانيـة أيـام.

- ثانيهـا، المشـاركة فـي اعتصـامٍ، أمـام رئاسـة مجلـس الـوزراء، دعـتْ إليـه الأحـزاب والمنظمـات الكرديـة فـي ١٢ آذار/مـارس، ذِكـرى انتفاضـة القامشـلي،[٣] كمـا يُسـمِّيها الأكـراد، وكانت سـاحة السـبع بحرات

(٣) أحـداث القامشـلي الداميـة بتاريـخ ١٢ آذار/مـارس عـام ٢٠٠٤ م: علـى إثـر مُبـاراة كـرة قدم فـي مدينـة القامشـلي، اندلعـتْ مواجهـاتٌ عنيفـة بيـن مُشـجِّعي فريـق المدينـة نفسـها («الجهـاد») وغالبيَّــتهم مـن الأكـراد، والمُشـجِّعين المرافقيـن لفريـق «الفتـوة» القـادم مـن ديـر الـزور وغالبيَّــتهم مـن العشـائر العربيـة، وسـرعان مـا تدخَّلـتْ فيهـا قـوات الأمـن السـوريَّة، ممـا اعتبـره الأكـراد انحيـازًا للمُعتـدِي، ثـم امتـدَّتِ الاحتجاجـات إلـى بقيـة المُـدن التـي فيهـا أكـراد لمـدة ٦ أيـام علـى شـكل مهرجانـاتٍ ثقافيـة، ومُظاهـراتٍ عُرِفَـتْ بـ«الحـراك مـن أجـل الهويـة» عـزَّزتِ الوحـدة الرمزيـة لوجـود الأكـراد السـوريِّين. رفضـتِ السـلطة خلالهـا أيَّ وسـاطةٍ مـن المجتمـع المدنـي والمنظمـات الحقوقيـة لحَـلٍّ سِـلميٍّ وأصـرَّتْ علـى الحـل الأمنـي العسـكري. كانـت حصيلـةُ المواجهـات ٤٠ قتيـلًا وفـق مصـادر كرديـة، و٢٥ قتيـلًا وفـق حصيلـةٍ رسـمية سـوريَّة، ومئـات الجرحـى، ونحـو ٢٠٠٠ معتقـل كـردي مـع تعرضهـم للتعذيـب مـن قِبَـلِ أجهـزة الأمـن السـوري.

يُحيِـي الأكـراد هـذه الذكـرى سـنويًّا للمطالبـة بحقوقهـم المَهـدورة وتخليـدًا لذكـرى شـهداء المجـزرة الذيـن أُضيفـوا إلـى عظمـاء شـهداء الحركـة القوميـة الكرديـة فـي سـورية.

والطـرق المجـاورة لرئاسـة مجلـس الـوزراء مُطوَّقـةً بأعـداد كبيـرة مـن الشـرطة والأمـن، حيـث طلـب العميـد قائـد وحـدة مكافحـة الشـغب مـن قـادة الاعتـصام، الأمنـاء العامِّيـن وقـادة الأحـزاب الكرديـة، تفريـقَ المجتمعيـن وإنهـاء الاعتصـام. وعلـى الفـور اتفـق الزعمـاء الأكـراد علـى أن أتكلَّـم باسـمهم، لإعطـاء رسـالةٍ للنظـام بـأنَّ الشـعب السـوري مُوحَّـدٌ وبـأنَّ مطالبهـم الديمقراطيـة والاعتـراف بحقوقهـم الثقافيـة والاجتماعيـة والسياسـية هـي مطالـب الشـعب السـوريِّ كلـه، فقلـتُ للعميـد إنَّ لـدى الأحـزاب الكرديـة عريضـةً ولـن ينفض الاعتـصام قبـل تسـليمها إلى رئيس الـوزراء، فذهـب العميـد ليُجـري اتصالاتـه، ثـم عـاد بالموافقـة علـى أن يُرافقـه شـخصان لتسـليم العريضـة، شـريطةَ أن تُطـوَى اللافتـات والأعـلام، فخاطبـتُ المعتصميـن راجيًـا أن يَطـووا اللافتـات، فسـألني العميـد مَـن أكـون؟ وعندمـا أجبتُـه ذهـب راكضًـا، وعـاد بعـد دقائـق ليَأمـر بتوقيفـي وفـضِّ الاعتصـام بالقـوة، وعندهـا حملنـي عـددٌ مـن أفـراد الشـرطة إلـى إحـدى سـياراتهم القريبـة، ثـم نقلونـي إلـى مخفـرِ عرنـوس، ومـن ثـم إلـى إدارة المخابـرات العامـة حيـث أخـذوا مـا بحَوزتـي مـن مقتـنياتٍ ووضعونـي فـي غرفـةٍ مـن سِـجن الفـرع تحتـوي علـى بعـض البطانيـات فقـط، لأُنقَـل بعدهـا إلـى فـرع الأمـن الداخلـي فـي جـادة الخطيـب، حيـث قابلنـي العميـد تركـي غاضبًـا ونقـل لي اسـتياء اللـواء فـؤاد ناصيف واسـتغرابه مـن تعاونـي مـع أعـداء سـورية الذيـن يستـقوون بأمريـكا مـن أجـل سَـلخ جـزءٍ مـن الوطـن لإقامـة دولـةٍ كرديـة، وعندمـا شـرحتُ لـه وجهـة نظـري فـي أنَّ مشـاركتي مـع بعـض ناشـطي المعارضـة مـن العـرب هـو واجـبٌ وطنـيٌّ كـي يشـعر الأكـراد بأنهـم جـزءٌ مـن الشـعب وأنَّ قضيتـهم قضيـة السـوريِّين جميعًـا وبذلـك نقطـع الطريـق علـى أيـة نزَعـاتٍ كرديـة انفصاليـة متطرفـة، لكنـه كالعـادة، لـم يكتـرث لكلامـي، وأبلغنـي رسـالةً مـن اللـواء فـؤاد ناصيـف بأنهـم «اعتبـارًا مـن الآن لـن

ينـظروا إلـيَّ كمعـارضٍ وإنمـا كعـدوّ»، وأمـر بتوقيفـي فـي غرفـةٍ منفردة والتعامـل معـي بفَظاظـة. وبعـد حوالـي سـت سـاعات أبلغنـي العميـد ضـرورةَ حضـوري إلـى الفـرع فـي اليـوم التالـي السـاعة الحاديـة عشـرة، فطلبـتُ تأجيلـه لكونـه يتضـارب مـع موعـد السـفير البلجيكـي، وبعـد مشـاورته للـواء فـؤاد أصـرَّ علـى إلغـاء موعـدي مـع السـفير وضـرورة حضـوري إلـى الفـرع فـي الموعـد المُحـدَّد، حيـث تُركـتُ مجـددًا وحيـدًا فـي مكتـبٍ مـع بعـض الصحـف المحليـة حتـى السـاعة الواحـدة، وتكـرَّر طلـب الحضـور فـي اليـوم التالـي والانتـظار لسـاعاتٍ ثـم المغـادرة، وهكـذا لعِـدَّة أيـام.

- ثالثهـا، المشـاركة فـي عيـد النيـروز ٢١ آذار/مـارس،[٤] وعندمـا حضـرتُ مـع مجموعـةٍ مـن ناشـطي إعـلان دمشـق إلـى موقـع الاحتفـال، فـي منطقـة سـهل الصحـراء، قـرب دمشـق، استوقـفني شـخصان ادَّعَيَـا أنهمـا محامِيَّـان كُردِيَّـان، وطلبـا مِنِّـي «عـدم المشـاركة لأننـي محـل خـلافٍ بيـن الأكـراد»، فشـككتُ بأنهمـا مـن الأمـن، وأجبتُـهما بأنـي صديـقٌ للأكـراد جميعًـا وأنـي قـادمٌ لتهنئـتهم بعيدهـم، هـل هـذا خطـرٌ علـى أمـن الدولـة؟! فقـال أحدهمـا: سـيادة اللـواء فـؤاد ناصيف ينتـظرك

(٤) عيـد النيـروز ٢١ آذار/مـارس، هـو اليـوم الأول مـن السـنة فـي التقويـم الكُـردي، الـذي بـدأ سـنة ٧٠٠ قبـل الميـلاد حيـن سـقطتِ الدولـة الآشـورية علـى أيـدي الميديين (الذيـن أسَّسـوا دولـة ماد علـى أراضـي كردسـتان الحاليـة). يحتـفل الكُـرد بالنيـروز كعيـدٍ قومـيٍّ، ولإثبـات الهويـة وكفرصـة لإبداء مواقفهـم السياسـية. لا صلـة بيـن عيـد النيـروز والديانـة الزرادشـتية وعبـادة النـار، وإنمـا أصلـه، علـى الأرجـح، مـا يَرويـه الفردوسـي فـي «ملحمـة الملـوك ـ شـاهنامه» مـن قصـة «كاوه الحـداد» الـذي قـاوم وانتـصـر علـى ملـكٍ شـرير يُدعـى «زهـاك أو ضحـاك» كان يضـع أفـاعٍ علـى كتفيـه لا تتـغذَّى إلا علـى أدمغـة الأطفـال. سـلب الطاغيـة أطفـال كاوه الـ ١٥ ولـم يتبـقَّ لديـه سـوى فتاةٍ صغيـرة. أراد الحـداد أن يفـدي ابنتـه بروحـه فتوجَّـه إلـى قصـر الملـك وحاربـه وانتصـر بـمطرقته علـى سـيف الظالـم، وحمـل شـعلةً بيـده وأشـعل النيـران علـى سـقف القصـر فعـرَف الأهالـي أنَّ مشـعل الحريـة ارتـفع وأنَّ شـمس الـ ٢١ مـن آذار/مـارس هـي ولادةٌ جديـدة وفصـلٌ يُبشِّـر باللـون الأخضـر والفـرح.

فـي مكتبـه، فذهبنـا بسـيارتي، وفـي الطريـق كانـا يشـتكيان مـن همـوم المعيشـة وارتفـاع الأسـعار ويسـألاني عـن احتمال زيـادة الرواتـب، وحين وصلنـا إلـى فـرع الخطيـب، لـم يكـن اللـواء ناصيـف موجـودًا، فقابلنـي ضابـط برتبـة مقـدِّم، وحـاول أن يُقــنعني بـأنَّ الأكـراد قبائـل جذورهـا عربيـة، وقـد أُطلِـقَ عليهـم اسـم الأكـراد لظـروفٍ معينـة، وبالتالـي ليـس هنـاك شـيء اسـمه مشـكلة كرديـة وحقـوق تاريخيـة. وطبعًـا لـم يُعجبـه كلامـي حيـن قلـت بـأنَّ الأكـراد وبغَـضِّ النظـر عـن أصولهـم وجذورهـم هـم مواطنـون سـوريون، ولا يجـوز حِرمانهـم مـن أي حـقٍّ مـن حقـوق المواطنـة أو مـن الجنسـية، لا سـيما وأنَّ غالبيــتهم مولـودون فـي سـورية وأهلهـم سـوريون أيضًـا، ويجـب النظـر إلـى معاناتهـم وقضيتهـم كقضيـةٍ وطنيـة. وهنـا أوعَـز لعناصـره بـأنْ يأخذونـي، حيـث انطلقـوا بـي فـي سـيارتهم إلـى خـارج دمشـق علـى طريـق سـجن عـدرا القديـم، وأوقفـوا السـيارة بمُحـاذاة مشـفى الأمـراض النفسـية، وقـال أحدهـم بتهكُّـمٍ وتهديـد مُشـيرًا للمشـفى: «اليـوم سنتــركك خارجـه، ولكـن فـي المـرة القادمـة سـنضعُك داخلـه إذا قلـتَ للأكـراد مرحبًـا!»، فقلـت لـه ردًّا علـى تهكمـه، بأنـه يُهمنـي كثيـرًا أن أعـرف مـا يـدور فـي هـذا المشـفى وأطلـب منكـم مسـاعدتي للدخـول إليـه، لأفضـح الظـروف اللَّاإنسـانية التـي يُعامَـل بهـا المرضـى هنـا.. وعندهـا تركونـي علـى الطريـق العـام واسـتداروا راجعيـن.

بعـد حوالـي يوميـن أرسـل اللـواء ناصيـف فـي طلبـي ليُبــلغني بـأنَّ السـلطات اتخـذتْ قـرارًا بضبـط نشـاط المعارضـة فـي الداخـل بمـا فـي ذلـك عـدم إعطـاء أيِّ تصريـحٍ لأي وسـيلةٍ إعلاميـة حتـى صـدور قانـون الأحـزاب المُتوقَّـع خـلال شـهرين، حيـث أنَّ الوضـع خطـرٌ وأنَّ النظـام لـن يتوانـى عـن تطبيـق الأحـكام العرفيـة بموجِـب حالـة الطوارئ المُعلَنـة فـي البـلاد، كمـا أنَّ السـلطة لـن تُجـازف بمصيرهـا إرضـاءً للعالم

الخارجي ولما سيقوله الإعلام العالمي، وأضاف أنه استدعى العديدَ من رموز المعارضة ومعظم أعضاء اللجنة المؤقتة لإعلان دمشق وأبلغهم ذلك، وقد لمَس تجاوبًا من الجميع وأنَّني الوحيد الذي استنفد كلَّ فرص الضغط عليه من قِبَلِ الأهل والأصدقاء والتجار والصناعيين وقد حان الوقت لاتخاذ القرار، وأنَّ الجهات العليا تنتظر جوابي، فقلت له إذا كان قانون الأحزاب سيصدر خلال شهرين فلا مانعَ عندي من الانتظار هذه المدة، من دون أن يعني ذلك اعتزالي العمل السياسي أو عدم تلبية الدعوات واللقاءات كسياسيٍّ مُعارض، ولكن شريطةَ أن توقف الأجهزة الأمنية ملاحقتَها لي، فبدا السرور على وجه اللواء فؤاد وكأنه حقَّق نصرًا مبينًا، ووعد باتخاذ الإجراءات لوَقف ملاحقتي ولكنه أضاف بأنه قد يجد صعوبةً في إقناع الأجهزة الأمنية الأخرى بذلك، رافضًا فكرة السماح لي بالسفر إلى الخارج لإجراء الجراحة بسبب عدم ثقة الأجهزة الأمنية بما يمكن أن يَنتج عن اللقاءات التي قد أُجريها في باريس، ولهذا فهم بحاجةٍ إلى استعادة الثقة أولًا، وعرَض عليَّ تقديم المساعدة إذا قرَّرتُ إجراء العملية الجراحية في سورية.

بعد عشرة أيام توقَّفتْ بالفعل الدوريات السيَّارة عن ملاحقتي مع بقاء العنصر الأمنيِّ الثابت أمام مكتبي، ولكن بعد يومين فقط نقَل إليَّ ضابطٌ برتبة رائد رسالةَ تهديدٍ من اللواء ناصيف بأنَّ أيَّ علاقةِ تحالفٍ أو إطراء لعبد الحليم خدام أو للإخوان وجبهة الخلاص الوطني هي خطٌّ أحمر، فخدام خائن للوطن والإخوان يَطالهم القانون ٤٩، وأضاف إليهما كمال اللبواني أيضًا، لأنه يتآمر مع أمريكا ضد وطنه ولن تتردَّد الجهات الأمنية بإنزال أشد العقوبات بحقِّ مَن يُخالف ذلك. فطلبتُ من الرائد إيصال رسالةٍ للواء ناصيف بأنه لا علاقة لي بالإخوان ولا بعبد الحليم خدام لا مِن قريب ولا مِن بعيد، وأما

الدكتـور اللبوانـي فهـو معتقـلٌ لديكـم، وأضفـتُ بـأنَّ حصـاري أصبـح لا يُطـاق وأننـي علـى وشـك الصـراخ لفكـه مـا لـم تتركونـي أعيـش حياتـي الطبيعيـة، وتسـمحوا لـي بالسـفر لمتابعـة علاجـي خـارج سـورية. ولكـن علـى عكـس ذلـك تمامًـا وكمـا كنـت أُرَجِّـح، فقـد أرسـلتِ الأجهـزة الأمنيـة برقيـةً تؤكـد فيهـا علـى منعـي مـن السـفر.[٥]

واسـتمرَّت الأمـور علـى المنـوال ذاتـه حتـى ١١ تموز/يوليـو حيـث فوجئـتُ عنـد مغـادرة مكتبـي لزيـارة جـورج صبـرا إثـر تعرضـه لحـادث كسـرٍ فـي قدمـه بتواجـد عنصـرِ أمـنٍ إضافـيٍّ قـام بمُتابعتـي، وبشـكلٍ اسـتفزازي، علـى درَّاجـةٍ ناريـة حتـى منطقـة قطنـا، حيـث كان يتقـدم أمامـي تـارةً ويعـود للخلـف تـارة أخـرى، مُتلمِّسًـا مسدسـه وكأنـه يريـد أن يوحـي بسـهولة إطـلاق النـار علـيَّ والفـرار، ثـم رافقنـي عنـد عودتـي حتـى منـزلي فـي مشـروع دمـر بالطريقـة نفسـها. وفـي الوقـت ذاتـه أُعيـد وضـعُ عنصـرِ أمـن لمراقـبة بيتـي.

وعنـد مراجعتـي فـرع الأمـن الداخلـي بنـاءً علـى طلبهـم في يوم السـبت ١٥ تموز/يوليـو ٢٠٠٦، تـمَّ تأجيـل الموعـد إلـى صبـاح اليـوم التالـي حيث قابلـتُ العميـد تركـي علـم الديـن وشـخصًا آخـر عـرَّف عـن نفسـه بأنـه خبيـر بريـد إلكترونـي مُدَّعِيًـا بأننـي تلقيـتُ رسـالةً إلكترونيـة مـن عبـد الحليـم خـدام، وهنـا أحسسـتُ بـأنَّ هنـاك مكيدة مـا تُحضَّـر ضدي، لأننـي كنـت علـى يقيـنٍ مُطلـق بأننـي لـم أتلـقَّ مثـل هـذه الرسـالة، فبـادرتُ لطلـب نسـخةٍ منهـا أو قراءتهـا علـى الأقـلّ، أو إعلامـي بتاريخهـا، فرفَـض ذلـك مُدَّعِيًـا بأنهـا وثيقـةٌ سـرية لا يجـوز إطـلاع أحـدٍ عليهـا.

(٥) راجعـتُ الإدارة العامـة للهِجـرة والجـوازات بتاريـخ ٢٧ نيسـان/أبريل ٢٠٠٦، وسـألتُ عـن الموافقـة الأمنيـة الخاصَّـة بـمَنحي جـواز سـفر، فأفادنـا الشـرطي المُختـص أنَّ الأجهـزة الأمنيـة أرسـلتْ برقيـةً تؤكـد فيهـا علـى مَنعِـي مـن السـفر.

وبعـد حـوارٍ فـظٍّ غـادرتُ الفـرع فـي السـاعة الثانيـة عشـرة والنصـف علـى أن أعـود فـي السـاعة العاشـرة مـن صبـاح اليـوم التالـي.

وعنـد خروجـي وعلـى بعـد أمتـارٍ قليلة مـن المدخـل الرئيــسي، فوجئتُ بشـابٍّ قـويِّ البنيـة ينهـال علـيَّ بالضـرب صفعًـا ولكــمًا، ثـم انضـم إليـه شـابٌّ آخـر لـه الصفـات ذاتهـا، ليُشـارك فـي ضربـي، وحيـن لاحظـتُ أنَّ أيًّـا مـن الحـراس الأمنيِّيـن علـى بـاب الفـرع لـم يتحـرك لنَجدتـي، قـدَّرتُ أنَّ المسـألة مُبيَّــتة ومُحضَّـرة، فلـم أبـادر للدفـاع عـن نفسـي خوفًـا مـن اسـتفزازهم أكثـر، مُكتــفيًا بإقناعهـم بـأنَّ هنـاك سـوء تفاهـمٍ ليـس إلّا، واتجهـتُ بسـرعة إلـى سـيارتي تحـت وابـلٍ مـن الصفعـات واللكمـات والشـتائم النابيـة.

اسـتجمعتُ قـواي وقـدتُّ سـيارتي إلـى بيـت ابنتـي جمانـة القريـب فأخذتنـي إلـى قسـم الإسـعاف فـي مشـفى الطليانـي، الـذي رفَـض إجـراء الفحوصـات الضروريـة لـي إلّا بعـد إخبـار الشـرطة، وحضَـر إلـى المشـفى ضابـطٌ برتبـة نقيـب مـن قسـم شـرطة العباسـيين ومعـه أربعـة عناصـر، وعندمـا تعـرَّف علـيَّ واطَّــلع علـى تفاصيـل الحـادث لاحظـتُ ارتباكـه وإجـراءه عِـدَّة اتصـالات كـي يعـرف طريقـة التعامـل معـي، وحيـن تبيَّـن عـدم وجـود أضـرارٍ بالغـة فيمـا عـدا كدمـاتٍ سـطحية علـى الوجـه والـرأس، طلَـب مِنِّـي مقابلـة رئيـس قسـم العباسـيين الـذي أصـرَّ علـى تسـجيل الادعـاء ضـد مجهـول بحُجَّـة الظـروف الاسـتثنائية التـي يمـرُّ بهـا أشـقاؤنا فـي لبنـان. هكـذا! وكان واضحًـا لـي أنَّ أجهـزة الأمـن قـد انتــقلتْ إلـى سياسـة البلطجـة والعنـف عبـر تسـخير بعـض المرتبطيـن بهـا للاعتـداء الجسـدي علـى المعارضيـن لإرهابهـم وإيقـاع أشـد إيـذاءٍ لهــم مــن دون أن تتحمَّــل هــذه الأجهــزة المســؤولية المباشــرة عمَّــا يحصـل لهـم.

(٣) تفعيل مشاركتي في إعلان دمشق

في ظل مناخٍ عامٍّ يبدو أنه كان مُؤاتيًا، انكسرتْ فيه شوكة النظام بعد اغتيال الحريري وتشكيل المحكمة الدولية الخاصَّة بلبنان وخروج الجيش السوري من لبنان وبدء استجواب شخصياتٍ مهمة من المؤسستَين الأمنية والعسكرية[٦] من قِبَلِ المحقق الدولي ديتلف ميليس،[٧] ليُصبح النظام أكثر اهتمامًا بتحسين سُمعته وصورته، أمام المجتمع الدولي، مع عودة الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان على الصعيد العالمي بعد أن تراجعتْ لصالح مواجهة الإرهاب جرَّاء أحداث أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١. وإذا أضفنا التأثير الكبير لسقوط النظام العراقي، التوأم اللدود للنظام السوري، وما تلاه من سياسة اجتِثاث البعث والطريقة المُهينة التي اعتُقل بها صدام حسين، ثم التهديدات الأمريكية للنظام السوري التي حملها كولن باول عشية دخول الجيش الأمريكي بغداد، كل ذلك شجَّع الكثيرين على المجاهرة بإبداء مواقفهم وعلى الجرأة في النشاط والانتقاد. وكان إعلان دمشق حصيلةَ هذه الأجواء، إذ جاء جريئًا جدًّا ومُتحدِّيًا السلطة المستبدة والفاسدة. لقد خرجتُ من السجن بمعنوياتٍ عاليةٍ جدًّا وصار بيتي ملتقى للسياسيين من مختلف الاتجاهات،

---

(٦) تم التحقيق مع كُلٍّ من اللواء غازي كنعان، (انتحر في مكتبه بوزارة الداخلية في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٥ بدمشق)، واللواء جامع جامع، (قُتِلَ في ظروف غامضة في شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٣)، واللواء رستم غزالي، (تُوفي في ظروفٍ غامضة في ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠١٥)، واللواء بهجت سليمان، (السفير السوري السابق في الأردن، تمَّ طرده من الأردن بقرارٍ ملَكي)، والعميد عبد الكريم صباغ والعميد ظافر اليوسف. انظر: «سوريا... مقتل أبرز الضباط المتهمين باغتيال الحريري»، موقع **دوت مصر**.

(٧) ديتليف ميليس هو القاضي الدولي التابع للأمم المتحدة الذي كلف بالتحقيق في جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وهو الذي رئس لجنة التحقيق الدولية المُستقلة المُنشأة بموجِب قرار ١٥٩٥ الصادر لمجلس الأمن لسنة ٢٠٠٥ م.

وكان المهنئون يأتون من مختلف المحافظات، تحت أنظار عناصر المخابرات، ومع التقدم أكثر فأكثر في التعرف على غالبية القوى والشخصيات المُوقِّعة على الإعلان، فقد تراجع عندي التفكير في عملٍ حزبيٍّ مستقلّ، لصالح النشاط ضمن أطُرِ إعلان دمشق، والعمل على جعله وازنًا عبر عقد مجلسٍ وطنيٍّ أو مؤتمر عامٍّ يُكسب هذا الإعلان، حضورًا مُعتبرًا، ومزيدًا من المصداقية والشرعية أمام الشعب السوري والعالَم، مُؤمنًا بأنَّ مثل هذا المؤتمر سوف يُعزِّز الشرعية التعاقدية لهذا التجمُّع السياسي ويُوسِّع المشترَكات ويُمِدُّ الهيئات السياسية القيادية بالرُّؤى والتصورات والطاقات.

وكانت الخطوة الأولى، انعقاد «المجلس الوطني المُصغَّر» الأوَّل[٨] في منزلي بتاريخ ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٦، وبحضور ٣٢ مندوبًا من مختلف المحافظات كمُمثِّلين للأطراف المُنضَوِية في إعلان دمشق في الداخل، وخلال جلستَين صباحية ومسائية تمَّ إقرار الهيكلية التنظيمية التي تحكم عمل قوى الإعلان ووضع استراتيجيةٍ لنشاطاته في الداخل والخارج، والتي تضمَّنتْ:

(١) استعادة حراك المجتمع السوري بإعادة السياسة إلى شارعه وعدم قَصرِ هذا الحراك على النخبة من المثقفين والناشطين السياسيِّين.

(٢) العمل على توفير أجواء وإمكانيات عقد مؤتمرٍ وطنيٍّ يضمُّ كافَّة أطياف ومُكوِّنات الشعب السوري السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حتى يتمكَّن هذا المؤتمر من مَلء أيِّ فراغٍ

(٨) رياض سيف، إحاطة رياض سيف لعام ٢٠٠٦ حول الوضع الاقتصادي والسياسي، اطلب النص الكامل على الرابط أدناه:

https://bit.ly/2FR0G9V

قـد ينشـأ بشـكلٍ مُفاجـئ فـي حـال سـقوط النظـام وقيـادة المرحلـة الانتقاليـة، وبهـذا نتفـادى حـدوثَ أي فوضـى أو حـرب أهليـة كمـا هـو الحـال فـي العـراق.

أمـا الخطـوة الثانيـة، فكانـت تفعيـل مُقـرَّراتِ المجلـس الوطنـي المُصغَّـر عبـر تفعيـل البنيـة التنظيميـة الجديـدة بتشـكيل ثلاثـة مكاتـب لإعـلان دمشـق: مكتـب الأمانـة وضـمَّ ١١ عضـوًا، ومكتـب الإعـلام، ومكتـب النشـاطات الميدانيـة. ولكـن عنـد مُباشـرة هـذه المكاتـب لـعملها، اعتـرضتها إشـكالية الصلاحيـات وحـدود العلاقـة بينهـا، فتـم معالجـة هـذه الإشـكالية بـروحٍ توافقيـة عبـر ضـمِّ عضويـن إلـى مكتـب الأمانـة، أحدهمـا يُمثِّـل مكتـب الإعـلام والآخـر يُمثِّـل مكتـب النشـاطات والعمـل الميدانـي. واللافـت أنَّ اجتـماعات وجلسـات مكتـب الأمانـة قـد انتـظمتْ كل أسـبوعين تقريبًـا دون انقطـاع وإن بغِـياباتٍ محدودة. وفيهـا كانـت تتـم مناقشـة مُجمَـل القضايـا السياسـية المحليـة والخارجية والعلاقـات التنظيميـة الداخليـة، وعلاقـات مكتـب الأمانـة بقُـوى الإعـلان فـي الخـارج، وسُـبل توسـيع دائـرة القـوى المُنخرطـة فـي الإعـلان، وأيضًـا كان يتـم تكليـف بعـض الأعضـاء بيـن الاجتماعَـين لتنفيـذ بعـض المهـامِّ مثـل كتابـة بـلاغٍ أو بيـانٍ أو زيـارة إحـدى المحافظـات. وللأسـف كانـت تَستـهلك المُسـاجلات بين أعضـاء المكتـب ذوي التوجُّهـات الأيديولوجية المتعارضـة الكثيـرَ مـن الوقـت، فكُنّـا نضطـرُّ لترحيـل قسـمٍ مـن جـدول الأعمـال للاجتماعـات التاليـة ممـا راكـم تقـصيرًا وبُطـئًا فـي الأداء.

وعلـى طريـق تفعيـل دور «الإعـلان» السياسـي والإعلامـي والتنظيمـي، تـم إطـلاق موقـع «النـداء» الإلكترونـي فـي الذكـرى الأولـى لصـدور وثيقـة إعـلان دمشـق، كمـا تـمَّ توظيـف جهـودٍ خاصَّـةٍ لتوفيـر الأجـواء والإمكانيـات لعقـد مجلـسٍ وطنـيٍّ يضـم كافـة أطيـاف المعارضـة فـي

المجتمع السوري، لإجبار النظام على الاعتراف بوجود معارضةٍ ديمقراطية ودَفعِه نحو التغيير السياسي. وظهَر ذلك جليًّا في كل نشاطات الإعلان العلنية ولقاءاته مع وفودٍ من الدول الديمقراطية الغربية، الأمر الذي شجَّعني على تكثيف نشاطي الميداني في النصف الثاني من عام ٢٠٠٦ بعَقد العديد من اللقاءات الموسعة مع المناصرين لإعلان دمشق في غالبية المُدن السورية، في دمشق وحلب واللاذقية والقامشلي ودرعا والسويداء والرقة وسراقب وغيرها، وذلك على الرغم من الرقابة الأمنية المُكثَّفة والمستمرة. واتخذ مكتب الأمانة المنعقد في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ قراره بالعمل على توسيع دائرة المُنضمِّين للإعلان، على أن يكون المجلس الوطني المُصغَّر وحده هو المُخوَّل بإقرار هذه التوسعة والموافقة على الشخصيات المقترحة، وفق الطريقتَين التاليتَين: أولهما، تقوم لجنة التنسيق، وبالتوافق، بترشيح الفعاليات المُجتمَعيَّة والثقافية والشخصيات التي أعلنتْ تأييدها وانضمامها للإعلان لتكون جزءًا من المجلس الوطني. وثانيهما، توسيع تمثيل المحافظات ولجانها في المجلس الوطني، وإتمام وضع جدولِ أعمالٍ للمجلس الوطني، إضافةً لتحديد الخطوط العامة لبرنامج العمل السياسي، وتعديل الهيكليَّة التنظيمية.

الفصل الثاني

أحداث ومواقف هامة

بيضاء في الأصل

(١) إعـلان بيـروت ـ دمشق/دمـشـق ـ بيـروت[١]

نُشِـرَتْ وثيقـة إعـلان بيـروت ـ دمشق/دمشـق ـ بيـروت فـي ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٦، وكان محورهـا المطالبـة بإبــراز الروابـط التاريخيـة بيـن البلدَيـن، وضـرورة وقـف أسـاليب الوصايـة والعنـف والاغــتيال الـذي تكـرَّر ضـد رمـوز المعارضـة اللبنانيـة.

وعلـى إثر إشـهار هـذه الوثيقة تم اعتــقال وملاحقـة عددٍ من المُوقِّــعين عليهـا وهـم ميشـيل كيلـو وأنـور البنـي وسـليمان شـمر وغالـب عامـر ونضـال درويـش ومحمـود مرعـي ومحمـد سـليمان محفـوض وعبـاس

(١) وقَّـع علـى وثيقـة «إعـلان بيـروت ـ دمشق/دمشـق ـ بيـروت» التـي نُشِـرَتْ فـي ١٢ أيـار/ مايـو ٢٠٠٦، بيـن ٢٧٤ و٥٠٠ مـن النشـطاء اللبنانييـن والسـوريين والمُفكريـن. تُطالـب الوثيقـة الحكومةَ السـورية بتصحيـح علاقتهـا مـع لبنـان واحتـرام استــقلاله وسـيادته بدايـةً مـن ترسـيم الحدود المشـتركة وإقامـة العلاقـات الدبلوماسـية. كمـا طالبـوا بإنهـاء الاغتيـالات السياسـية فـي لبنـان وتَمتِيـن سـيادة واسـتقلال سـورية ولبنـان فـي إطـار علاقـاتٍ مُمَأسَسَـةٍ وشـفَّافة تخـدم مصالـح الشـعبين وتُعـزِّز مواجهتهمـا المشـتركة للعدوانيـة الإسـرائيلية ومحـاولات الهيمنـة الأمريكيـة، وإرسـاء تلـك العلاقـات علـى أسُـسٍ نابِـذَةٍ لمشـاريع الضـم والإلحـاق والاستــتباع مـن جهـة، والاسـتعلاء والتقوقـع والقطيعـة مـن جهـة أخـرى. هاجمـتِ الصحـف ووسـائل الإعـلام الحكوميـة السـورية، وأبواقهمـا فـي لبنـان، المثقفيـن السـوريين واللبنانييـن المُوقِّعيـن علـى إعـلان بيـروت ـ دمشـق بــشراسة.
اطلب النص الكامل لـ «إعلان بيروت ـ دمشق» على الرابط أدناه:

https://bit.ly/2ZUwFwP

إبراهيم عباس وكمال شيخو ومحمود عيسى وصفوان طيفور وخالد خليفة وخليل حسين.

وبعد إحالتهم للمَحكمة، تم الحُكم على ميشيل كيلو ومحمود عيسى بثلاثة أعوامٍ لكلٍّ منهما، وعلى أنور البني بخمسة أعوام. وأُطلِق سراح مَن تراجع عن توقيعه على الإعلان، بينما حُكِمَ على عضو اللجنة المؤقتة لإعلان دمشق سليمان شمر بعشرة أعوامٍ، إلا أنه لم يُسلِّم نفسه وتخفَّى إثر ذلك.[٢] وتم فَصلُ سبعةَ عشر موظفًا وعامِلًا من المُوقِّعين على الإعلان ــ ثلاثةَ عشر منهم من الطائفة الدُّرزية.

وقد اعتَبر الإعلانُ قضيةَ المعتقلين جوهر قضية الحريات في سورية، وأنها معركة سياسية وأخلاقية لا بد مِن كسبها بطَيِّ ملف الاعتقال السياسي نهائيًّا، والالتزام بالإبقاء عليها حيَّةً في ضمائر السوريين والمجتمع الدولي، والعمل على تشكيل هيئةٍ من المحامين السوريين للدفاع عن معتقلي الرأي، وتمثيلها في مؤسسات الإعلان، وتشكيل لجنةٍ خاصَّةٍ لمتابعة أوضاع المعتقلين داخل السجن، وأوضاع أُسَرهم خارجه ومساندتهم اجتماعيًّا وماديًّا، بالإضافة إلى دعم المفصولين من أعمالهم، والمساهمة مع منظمات حقوق الإنسان في سورية في نشر الثقافة الحقوقية والدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان.

---

(٢) «أصدرتْ محكمة الجنايات الثانية السورية، أمس، حُكمًا بالسَّجن ثلاثة أعوام بحق المعارضين السوريين ميشيل كيلو ومحمود عيسى، واعتُقِلا مع ثمانيةِ معارضين بينهم المحامي أنور البني الذي حُكِمَ عليه في ٢٤ نيسان/أبريل الفائت بالسَّجن خمسة أعوام بتُهمة "نشر أنباء كاذبة من شأنها أن توهن نفسية الأمة"»، وحُكِمَ أيضًا على «سليمان الشمر وخليل حسين غيابيًّا بالسجن عشرة أعوام، منها خمسة أعوام بتهمة إضعاف الشعور القومي وخمسة أعوام بتهمة التحريض لدى دولة أجنبية بالعدوان على سورية»، **الشرق الأوسط**، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠.
http://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=10261&article=419137#.W4uIdOhvbIU

وأوضحتُ في مقابلةٍ مع صحيفة **النهار**،[٣] تصوُّري لمستقبل العلاقات بين سورية ولبنان منطلقًا من اغتيال رفيق الحريري:

«مقتل الحريري لم يكن بسبب حقدٍ شخصيٍّ أو «فشة خلق»، لكنه كان يهدف إلى وقف هذا المَدِّ الذي أتى به الحريري وحاول عبره أن يُعيدَ الأمور إلى نصابها ويجعلَ لبنان دولةً مستقلة من جديد... إنَّ بيننا وبينهم (لبنان) تاريخًا وجغرافيا يفرِضان أن تكون هذه العلاقة بيننا على أفضل وَجه كما هي العلاقة بين أيِّ دولتين مستقلتين وجارَتَين. وإذا تكلمنا بلُغةِ المصالح بين البلدين فيجب أن يكون هناك تبادل تجاري وتبادل للخدمات والخبرات والأشخاص على أعلى المستويات، كما هي الحال بين فرنسا وبلجيكا على سبيل المثال. لكنَّ العلاقات السورية/اللبنانية منذ دخول الجيش السوري إلى لبنان في العام ١٩٧٥ هي علاقات شاذَّة، لا تخدم إلّا مصالح الفاسدين والمُرتَشين والمُهرِّبين في كلا الجانبين، كما أنها خدمتْ مصلحة النظام السوري في السيطرة السياسية على لبنان وفي تدعيم دَوره الإقليمي الذي كان قائمًا بتوافقٍ دوليّ. إذًا، العلاقات الثنائية كانت شاذَّة غير طبيعية على مدى السنوات الثلاثين الماضية رغم الشعارات الجوفاء

(٣) رياض سيف، «التغييرُ في سوريا آتٍ قريبًا لا محالة»، ملحق النهار، العدد ٧٢٦، الأحد ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦.
اطلب النص الكامل على الرابط أدناه:

https://bit.ly/33O349j

التـي كانـوا يرفعونهـا فـي كل مـكانٍ ويُطبِّـقون عكسـها تمامًـا علـى أرض الواقـع. لذلـك فـإنَّ اغتيـال الرئيـس رفيـق الحريـري حـرَّك التراكمـات الماضيـة وفجَّـر المكبـوت. وإذا كان مـن المفـروض أن تعـود العلاقـات اليـوم بيـن الشـعبَين السـوري واللبنانـي إلـى طبيعتهـا، فإننـا نجـد أنَّ هنـاك محـاولات تُبـذَل لشَـحن الشـعبَين واحدهمـا ضـد الآخـر، ويُحـاول البعـض تَوريـط الشـعب السـوري فـي معركـةٍ هـو فـي الأسـاس ليـس طرفًـا فيهـا. فـإذا كان هنـاك بعـض المُتَّهَميـن المفتـرَضين فـي جريمـة اغتيـال الرئيـس الحريـري، فعلينـا عـدم توريـط الشـعب السـوري، والمفـروض مـن الإنسـان الـذي يَعتبـر نفسـه بريئًـا أن يكـون مُتعاونًـا أكثـر مـا يُمكـن مـع التحـقيق. فبِقـدر مـا أكـون بريئًـا، يجـب أن أتعـاون مـع التحقيـق، لأنَّ كشـف الجريمـة سـيكون فـي صالحـي. أمَّـا رفضـي التعـاون مـع التحقيـق، فلـن يُـؤدي إلّا لزيـادة الشـبهات مـن حولـي. فـي النهايـة، فـإنَّ الديمقراطيـة هـي أيضًـا الحـلُّ لمشـكلتنا مـع لبنـان. فلـو وُجِـدَ نظامـان ديمقراطيَّـان فـي كلا البلديـن، فمـن البديهـي أنَّ الشـعبين سـيعملان لمصالحهمـا المشـتركة وسيتـبادلان ويتخالطـان ويتـزاوجان لمـا فيـه مصلحـة الجميـع».

(٢) حـدَثان مُـتـزامِـنان: أزمـةُ الرسوم الكاريكاتورية والموقف من جبهة الخلاص

أثـارتْ رسـوم الكاريكاتيـر لشـخص الرسـول الكريـم فـي بعـض الصحـف

الغربيـة حفيظـةَ كثيـرٍ مـن الشـعوب والـدول الإسـلامية، وكعادتـه أراد النظـام السـوري اسـتغلالَ هـذه الفرصـة ليَظهـر بمَظهـر المدافـع عـن الإسـلام فـي وجـه مـا اعتَبـره حملـةً صليبيـةً جديـدة، فعمَـد إلـى تأجيـج المشـاعر المُعاديـة للغـرب والتـي تجسَّـدتْ بالسـماح بمسـيراتٍ احتجاجيـة مدعومـة مـن عناصـر النظـام تُوِّجَـتْ بحَـرق السـفارتين النرويجيـة والدنمركيـة[٤] مُدَّعيًـا أن الحـرق كان مـن تنفيـذ خلايـا إرهابيـة، علـى أمـل أن يُحقِّـق مـن وراء ركـوب هـذه الموجـة هدفَيـن: أولهمـا، تخويـفُ الـرأي العـام السـوري والعالمـي مـن سـيطرة الإسـلام الأصولـي علـى البـلاد فـي حـال انهيـاره، ولإيهـام المجتمـع الدولـي بأنـه هـو ضحيـةٌ للإرهـاب أيضًـا، ويُفتـرض أن يكـون جـزءًا مـن الحملـة الدوليـة علـى الإرهـاب. وثانيهمـا، كَسـب تعاطـف الفئـة المحافظـة مـن الأكثريـة السُّنِّـيَّة داخليًّـا. واستِـتباعًا، تعميـقُ مخـاوف الأقليـات الدينيـة وخاصَّـةً أوسـاط الطائفـة العلَويـة ممَّـا قـد يحصـل لهـم فـي حـال ضعُفَـتْ قبضـة النظـام المركزيـة.

---

(٤) فـي الرابـع مـن شـباط/فبراير ٢٠٠٦ أحـرَق مُتـظاهرون السـفارة الدنمركيـة فـي دمشـق التـي كانـت تـأوي أيضًـا مُمَثِّـلِيَّتَي السـويد وتشـيلي، احتجاجًـا علـى نشـر ١٢ رسـمًا كاريكاتوريًّـا للنبي محمـد فـي صحيفـةٍ دنماركيـة، وأشـارت مذكـرةٌ دبلوماسـية أمريكيـة نشـرها موقـع ويكيليكـس ونقلتها صحيفـة **افتـن بوسـتن** النرويجيـة أنَّ سـورية سـهَّلتِ الهجمـات علـى سـفارات الـدول الإسـكندنافية فـي دمشـق خـلال التظاهـرات العنيفـة التـي جـرتْ احتجاجًـا علـى الرسـوم الكاريكاتوريـة للنبـي محمـد مطلـع ٢٠٠٦، وأفـادت المذكـرة أنَّ رئيـس الـوزراء السـوري محمـد ناجـي العطـري [أَوعَـز] قبـل أيـامٍ مـن أعمـال العنـف إلـى مفتـي سـورية أن يطلـب مـن الأئمـة اسـتخدام [عبـاراتٍ قاسـية] فـي خطبـة الجمعـة «مـن دون تحديـد سـقفٍ للـكلام المسـتخدم» وأنَّ «الحكومـة السـورية أفسـحتِ المجـال لاسـتمرار أعمـال الشـغب فتـرةً مُطوَّلـة، وعندمـا رأت أنَّ [الرسـالة وصلـت] تحرَّكـتْ لوقفهـم مُهـدِّدةً باسـتخدام العنـف». إنَّ رسـالة دمشـق إلـى الغـرب كانـت «هـذا مـا سـتنالونه إن أجزنـا لديمقراطيـةٍ حقيقيـة وتركنـا الإسـلاميين يُقـرِّرون». بـحسب وكالـة أنبـاء (فرانـس بـرس): وفـي الوقـت نفسـه، أرادت دمشـق أن تَظـهر «للشـارع الإسـلامي» أنهـا تحمـي «كرامـة الإسـلام».

https://www.alarabiya.net/articles/2006/02/04/20833.html

أمّا «جبهة الخلاص»[٥] فلم يَمُرَّ تأسيسها بتَحالُف أحد رموز الفساد والاستبداد في سورية، عبد الحليم خدام، النائب السابق للرئيس السوري مع الإخوان المسلمين، وخارج أي تنسيق مع «إعلان دمشق» الذي اعتبروا أنفسهم أعضاء فيه مُرورَ الكرام بل أثار سجالًا حادًّا بين القوى السياسية داخل الإعلان وخارجه، فاعتبرتِ الأمانة العامة بتاريخ ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٦ أنَّ تشكيل «الجبهة» عمل يخصُّ أصحابه، وأوضحتْ عدم وجود أية علاقةٍ تنظيمية أو سياسية معها. وكنت قد أبديتُ موقفي الشخصي في مقابلةٍ مع صحيفة **النهار**[٦] بتاريخ ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦ حول رأيي في انشقاق خدام الأخير؟ وهل أنا مستعدٌّ للتعاون معه من أجل التغيير في سورية؟

مِمّا قلته في هذا الشأن: «مبادرة خدام الأخيرة تخدِم إصرارنا على ضرورة التغيير الديمقراطي وهي تخدم بشكلٍ غير مباشر الشعب السوري بإعطائها مصداقيةً لخطاب المعارضة القائل بضرورة تغيير

---

(٥) «جبهة الخلاص الوطني في سورية»: أسَّسها عبد الحليم خدام، وهو الذي كان سابقًا نائبًا للرئيس حافظ الأسد، والإخوان المسلمون مع عددٍ من الشخصيات المعارضة في الخارج. تعمل من أجل بناء دولةٍ ديمقراطية مدنية حديثة في سورية، قائمة على التعددية والانتخابات الحرة والنزيهة المُعبِّرة عن إرادة شعبها، وخالية من الانتهاكات لحقوق أيِّ فئة، وتُحفَظ فيها حقوق الأقليات الدينية أو الإثنية أو الطائفية. عقدتْ هذه الجبهة مؤتمرها التأسيسيَّ في لندن في ٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٦. في ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩ جمَّد الإخوان المسلمون معارضتهم للنظام أثناء العدوان الإسرائيلي على غزة. وفي نيسان/أبريل ٢٠٠٩ أعلن الإخوان المسلمون انسحابهم من الجبهة ردًّا على ما وصفوه بـ«حملة الافتراءات والاتهامات» التي تشنُّها أطرافٌ في الجبهة عليهم بعد إعلانهم تعليق أنشطتهم المعارِضة.

(٦) رياض سيف: «التغييرُ في سوريا آتٍ قريبًا لا محالة»، **ملحق النهار**، العدد ٧٢٦، الأحد ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦.
اطلب النص الكامل على الرابط أدناه:

https://bit.ly/33O349j

النظـام، لكـنْ فـي الوقـت نفسـه، فـإنَّ أيَّ إنسـان مـن النظـام السـابق تحـوم حولـه شـبهةُ التلـوث بدمـاء أو أمـوال الشـعب السـوري، لا يحـق لـه أن يتكـلَّم باسـم هـذا الشـعب قبـل أن يأخـذ منـه بـراءة ذِمَّـة، ومـا لـم تُعـطَ بـراءة الذمـة هـذه لعبـد الحليـم خـدام فأنـا أرفـض أن أتعامـل معـه».

أكَّـد عنـدي تزامـن هذيـن الحدَثَـين علـى فكرتَيـن: أولاهمـا، عـدم الرهان علـى صِـدق وقـدرة النظـام لإنجـاز أيِّ إصلاح سياسـيٍّ أو اقتصـادي حقيقي بعـد أن حـوَّل سـورية ومؤسسـات الدولـة إلـى مزرعـةٍ خاصَّـةٍ بأصحـاب النفـوذ، وجعَـل شـعبها أشـبه بالرَّعايـا لا دور لهـم ولا حقـوق، وأجهـض أي إمكانيـةٍ للبـلاد فـي التحـول إلـى دولـةٍ حديثـة قـادرة علـى التعامـل مـع الأسـرة الدوليـة كشـريك، وثانيهمـا، عـدم التعويـل على الإخوان المسـلمين كحليـفٍ سياسـيٍّ حقيقـي لبنـاء نظـامٍ ديمقراطـي، مـع الاسـتمرار بدعـم جهـود المنظمـات المدنيـة والحقوقيـة لإلغاء القانـون رقم ٤٩ لعـام ١٩٨٠ المتعلـق بالإخـوان المسـلمين لأنـه يتنافـى مـع أبسـط حقـوق الإنسـان، والمطالبـة بالعـودة إلـى حكـم القانـون، وحمايـة المواطنيـن مـن جَـور القوانيـن والمحاكـم والإجراءات الاستثـنائية.

(٣) انتـخابات مجـلـس الشعـب والاستـفـتاء الرئاسي، وانتـخـابات الإدارة المحلية

كان عـامُ ٢٠٠٧ عـامَ مهـازلِ الاسـتحقاقات الانتخابيـة، سـواء فـي مجلـس الشـعب فـي نيسـان/أبريل، أو الاسـتفتاء علـى رئاسـة الجمهوريـة فـي السـابع عشـر مـن أيار/مايـو، أو الإدارة المحليـة فـي أواخر آب/أغسـطس. وقـد ظـهَر بدايـةً فـي اجتمـاع مكتـب الأمانـة فـي ٦ كانـون الثاني/ينايـر ٢٠٠٧ رأيـان فـي الموقـف مـن الانتخابـات البرلمانيـة:

- الـرأيُ الأول: يدعـو لدخـول الانتخابـات باعتبارهـا معركـةً يجـب أن تُستَـثمر، وذلـك بالإفـادة مـن ترشـيح بعـض الشـخصيات المؤيِّـدة للتغييـر لطَـرح ونشـر برنامـج قـوى المعارضـة الديمقراطيـة فـي أوسـاط الـرأي العـامّ، كمـا الإفـادة مـن الخطـوات الإجرائيـة والدعائيـة للمرشـحين فـي مخاطبـة المواطنيـن عبـر وسـائل الإعـلام وفـي نَصـب الخِيَـمِ وتعليق الصـور واللافتـات، وهـذه يَسـتدعي خوضهـا بطريقـةٍ منظمـة ودقيقـة، واستـثمارها للتشـهير بالبيئـة القانونيـة، (حالـة الطـوارئ)، وبالأجـواء الأمنيـة السـائدة فـي البـلاد، وبفَضح قانـون الانتخابـات القائـم، والمطالبة بوضـع قانـونٍ جديـد يتناسـب مـع التوجُّـه الديمقراطـي.

- الـرأيُ الثانـي: طالَـب بالمقاطعـة، وهـذا مـا كنـت أتبنَّـاه فـي ضـوء تجربتـي الخاصَّـة فـي مجلس الشـعب وتجـارب الانتخابات السـابقة مـن حيـث صُورِيَّـة الانتـخابات، كـون هدفهـا الوحيـد إضفـاء الشـرعية الكاذبـة علـى نظـامٍ اسـتبدادي وفاسـد، جـرَّاء غِيـاب الحقـوق الأساسـية للإنسـان والمواطـن وغيـاب قانـونٍ عصـري للأحـزاب والجمعيـات وقانـون تنظيـم الإعـلام، فضـلًا عـن حتميـة تزويرهـا ومصـادرة حـقِّ المرشـحين فـي عـرض برامجهـم وإجـراء التجمعـات الانتـخابية دون أخـذ موافـقةِ الجهـات الأمنيـة.

حَسَـمَ «إعـلان دمشـق للتغييـر الديمقراطـي» قـرارَه فـي ٢٢ آذار/مـارس ٢٠٠٧ بدعـوة الناخبيـن إلـى مقاطعـة الانتخابـات، ليـس علـى أرضيَّـة اليـأس والإحبـاط اللَّذَيـن شـبَّع النظـام بهمـا الشـعب السـوري، مـن قـسرٍ وتزويـر وتلاعـب بالعمليـة الانتخابيـة، بـل علـى أرضيـةٍ احتجاجيـة مطلَبِيَّـة يرتفـع فيهـا الصـوت مـن أجـل تصحيـح المسـار الانتخابـي كمدخـل لتصحيـح المسـار السياسـي، ومـن أجـل التقـدُّم بخطـوات تضـع البـلاد علـى طريـق انتخابـاتٍ حقيقيـة، وتضمن نزاهـة العمليـة الانتخابية

ترشيحًا وتصويتًا وفرزًا، كما تضمن مشاركة الشعب السوري بحرية وبفُرصٍ متساوية.

إلى ذلك، نشَر موقع **شفّاف الشرق الأوسط**[٧] في ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٧ مقتطفات من حوارٍ أجرته معي مجلة **نيوزويك**، (١٥ أيار/مايو ٢٠٠٧)، بوَصفي سياسيًّا مُعارضًا ومعتقلًا ونائبًا سابقًا، وبمناسبة أنِّي نشرتُ كُتيِّبًا عن تجربتي البرلمانية مُواكبًا لانتخابات الدور التاسع لمجلس الشعب والتي شارك فيها ٧٪ فقط من الناخبين السوريين كي أُبيِّن أنَّ:

«الانتخابات عندنا عمليةٌ فولكلورية تجميلية شكلية يسعى النظام من خلالها إلى تجميل صورته فقط، فمجلس الشعب السوري، كالمؤسسات الأخرى، لا علاقة له بالتشريع ومراقبة السلطة التنفيذية كما هو حال برلمانات العالم المُتحضِّر، وأنه لا يمكن أن تجري انتخابات حرة في ظل حالة الطوارئ المستمرة منذ ٤٤ سنة، وضمن دستور ١٩٧٣ الذي يُعطي لرئيس الجمهورية حقَّ التشريع في كل الأوقات. إنَّ قانون الانتخابات والتعليمات المباشرة تُتيح لحزب البعث والجبهة المتحالفة معه الاحتفاظَ بأكثر من ثلثي مقاعد المجلس، وما تبقَّى مُخصَّصٌ للمستقلِّين المُوالين

(٧) رياض سيف: «الاقتصاد مثل السياسة، في يَدِ أهل السلطة»، **شفاف الشرق الأوسط**، الإثنين ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٧.

https://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id_article=881&lang=ar

موقع رياض سيف:

https://bit.ly/3hTJ6PB

للنظام» وأوضحتُ «أنَّ التغيُّرات الاقتصادية التي حدثتْ في السنوات الأخيرة، وبعض القوانين التي صدرتْ حرَّكتْ بالفعل بعض الركود، وأتاحت فرصةَ التحوُّل إلى اقتصاد السوق، لكن مع غياب الإصلاح السياسي، لم تتركْ هذه القوانين أيَّ أثرٍ إيجابي، فالاقتصاد السوري كالسياسة، يقوم على احتكارِ مجموعةٍ أو فئة للنشاطات الاقتصادية الأساسية، وتَرك المجالات الهامشية لبقية الناس. الهاتف الخلوي، والإنترنت والبنوك الخاصَّة وشركات التأمين والتجارة محصورةٌ في عددٍ محدود، من رموز السلطة، أو شُركائهم، ويَفرض هذا بالطبع انعدامَ الشفافية، ويمنع إصدار قوانين تُؤمِّن تكافؤ الفرص والمنافسة الحرة الشريفة، ممَّا يجعل الطبقة المُحتكِرة تزداد غِنى، والشرائح الشعبية الواسعة تزداد فقرًا، فها هي الأسعار قد ارتفعتْ بشكلٍ فاحش، واتسعتِ الهوة ما بين الدخل ومتطلبات المعيشة لفئاتٍ عريضة من المجتمع السوري. إنَّ هذا الخلل أدَّى إلى زيادة نسبة البطالة، واستشراء اقتصاد السوق السوداء الذي بات يُشكِّل نسبةً كبيرة من الاقتصاد السوري».[٨]

وبمُناسبة الاستفتاء الرئاسي أصدر الإعلان في ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٧ بيانًا[٩] جاء فيه:

---

(٨) المرجع السَّابق.

(٩) بيان الأمانة العامة حول الاستفتاء الرئاسي، النص الكامل: وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)

https://bit.ly/2EoIrb7

«أنَّ المواطنين السوريين، انتظروا طوال الولاية الأولى، التغييرَ والإصلاح المَوعود، الذي يُحسِّن أوضاعهم المعيشية والخَدمية ويزرع الاستقرار والطمأنينة في حياتهم، لكنَّ انتظارهم طال دون طائلٍ، وهذا قادهم إلى اليأس وفقدان الأمل دون أن ننسى المذَلَّة وهدرَ الكرامة نتيجةَ إكراههم على التصويت بطُرق شتَّى» وإنَّ قُوى إعلان دمشق «ترفض استمرار هذه السياسة وتُدين تمسُّك السلطة بها وامتناعها عن إجراء تغييرٍ في قواعد الانتخاب وطُرقه، وتُعلن مقاطعتَها لعملية الاستفتاء».

وفي السِّياق نفسه قاطع الإعلان الانتخابات المحلية في ٢٦ آب/أغسطس ٢٠٠٧ على غِرار الموقف من انتخابات مجلس الشعب.

(٤) العلاقة مع الخارج

في مقابلةٍ مع الصحفي محمد علي الأتاسي في ملحق جريدة **النهار** بتاريخ ٦ شباط/فبراير ٢٠٠٦ تحت عنوان «التغيير في سوريا آتٍ لا محالة»،[١٠] والتي عرَّضتْه للمساءلة والمضايقات ومُنِعَ على إثرها من دخول سورية، أوضحتُ موقفي فيها من العلاقة مع

(١٠) رياض سيف، «التغييرُ في سوريا آتٍ قريبًا لا محالة»، ملحق النهار، العدد ٧٢٦، الأحد ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦.

http://www.amude.net/Hevpeyvin_Munteda_deep.php?newsLanguage=Munteda&newsId=4404

النص الكامل: وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)

https://bit.ly/33O349j

الخـارج وفيمـا إذا «كنـت أعتــقد أنَّ القـوى الكبـرى جـادَّة اليـوم فـي ضغطهـا علـى النظـام السـوري مـن أجـل التغييـر، ومـا هـو موقـف قُـوى المعارضـة السـورية تجـاه الضغـوط الآتيـة مـن الخـارج؟» فقلـتُ:

«بأننـي مـن الذيـن يعتــقدون أنَّ المجتمـع الغربـي (وأعني بـه الولايـات المتحـدة وأوروبـا واليابـان وكنـدا وأسـتراليا) أصبـح بعـد ١١ أيلول/سـبتمبر علـى اقتــناعٍ تـامٍّ بـأنَّ الحـل الأمثـل لتفـادي مشـكلاتٍ كبـرى فـي المنطقـة لـن يكـون إلا بالتوقـف عـن دعـم الأنظمـة الاسـتبدادية والدفـع فـي اتجــاه التحــول الديمقراطــي. فالأنظمــة الديمقراطيــة، وفقًـا لقناعاتهـا الجديـدة، لا تتــقاتل فيمـا بينهـا ولا تُفـرِّخ إرهابيِّيـن ولا تُصـدِّر هجـراتٍ متتاليـة، هـذا التحـوُّل سـبق وشــهدنا مثلــه فــي دول أميــركا اللاتينيــة ودول أوروبــا الشـرقية، وهـا هـو اليـوم يصـل إلـى منطقتنـا، وإذا كانـت تجربــة العــراق الفاشــلة موضــع خــلافٍ داخــل الــدول الغربيــة بســبب طابعهــا العســكري العنيــف، فــإنَّ هنــاك توافقًـا اليـوم بيـن الـدول الغربيـة علـى ضـرورة التحـول الديمقراطـي السِّـلمي فـي سـورية. وإذا نظرنـا بشـكلٍ أكثـر شـمولية إلـى تاريـخ علاقتنـا مـع العالـم الغربـي، وجدنـا أنـه تـمَّ ارتـكاب خطأيـن استراتيجــيَّين فـي علاقتــنا مـع الـدول الغربيـة خـلال المرحلة السـابقة، فرضَتْـهما الظروف الدوليـة والصـراع مـع إسـرائيل: أولًا، خطـأ الانــزلاق إلــى مُعـاداة كل مـا هـو غربـي وتأجيـج مشـاعر النـاس وشَـحنها ضـد الغـرب، فخـلال فتـرة الحـرب البـاردة تـمَّ الرهـان علـى الجانــب الخاســر، أي الكُتلــة الشــرقية، وفرضــتِ الظــروف علينـا الاتجـاه نحـو اليسـار، لكـنَّ هـذا التوجـه اليسـاري،

الـذي سُـمِّيَ آنـذاك بالنهــج التــقدُّمي، أفقدَنـا الكثيـر مـن الأصدقـاء فـي الغـرب، وسـمَح للبعـض بالانفـراد بالسـلطة ومُصــادرة الحكــم تحــت شــعارات التقــدم والاشــتراكية ومعــاداة الإمبرياليــة، فــي حيــن أنَّ اقتــصاد الســوق والديمقراطيـة مـا كانـا ليَسـمحا لأحـدٍ بـأن يتسـلَّط علـى الحكـم ويبقـى مُمسِـكًا فيـه علـى مـدى عشـرات السـنين. ثانيًـا، تـمَّ وَأدُ كل التجـارب الديمقراطيـة الدسـتورية الوليـدة فـي منطقتنـا بحُجَّـة حَـرق المراحـل والتصـدِّي للغـرب، فـي حيـن كان فـي إمـكان هـذه النُّــظم الديمقراطيـة الوليـدة أن تُصحِّـح نفسـها بنفسـها فيمـا لـو تُرِكَـتْ تنــمو وتتطـوَّر بســلام».

وأضفتُ:

«لنكـن صريحيـن، إنَّ الوضـع القائـم اليوم لا يمكـن إصلاحه، وتاليًـا لا حـلَّ إلا فـي التغييـر لإقامـة جمهوريـةٍ ديمقراطيـة جديــدة، وفــي هــذا المجــال نحــن فــي أمــسِّ الحاجــة لمســاعدة الغـرب، وهــو فــي رأيــي مُســتعدٌّ لمســاعدتنا وفقًـا لمَصالحـه، أي أننـا فـي حالـة تقاطـعِ مصالـح، وعلينـا أن نكـون علـى مسـتوى عـالٍ مـن الثقـة فـي النفـس وأن نُـدرك مـاذا يريـد الغـرب منـا، ومـاذا نريـد نحـن منـه، لنتمكَّــن فــي المســتقبل مــن توطيــد علاقاتنــا الطبيعيــة معـه فـي عمليـة إعـادة بنـاء الجمهوريـة العربيـة السـورية بعـد نجـاح الشـعب فـي إقامـة نظامـه الديمقراطـي. أمَّـا مـا نطلبـه مـن الغـرب ومـن كل الأحـرار فـي العالـم ومـن منظمــة الأمــم المتحــدة ومنظمــات المجتمــع المدنــي

وحقـوق الإنسـان فـي هـذه المرحلـة الانتـقالية لإقامـة النظـام الديمقراطـي، هـو مساعدتـنا فـي إجبـار النظـام في سـورية علـى احتـرام حـقِّ المعارضـة المشـروع فـي حريـة التعبيـر والاجتمـاع مـن دون تعرُّضهـا للقمـع والسَّـجن كمـا هـي الحـال حتـى الآن. إننـا نؤمـن بـأنَّ المعارضـة تملِـك مـن الحقائـق مـا يكفـي، إذا مـا أُتيـح لهـا إيصـال خطابهـا إلـى الشـعب السـوري، مـن أجـل أن يقـوم الشـعب بذاتـه باسـتعادة حقوقـه المُغتـصَبة علـى مـدى أربعيـن عامًـا من طريـق العِصيـان المدنـي واسـتخدام كل الوسـائل السِّـلمية فـي نضالـه للوصـول إلـى هدفـه بإعـادة بنـاء الجمهوريـة وإقامـة النظـام الديمقراطـي».

وأمَّـا عـن السـفر إلـى الخـارج، وعـن اسـتعدادي للالتـقاء بمسـؤولين غربـيِّين بمَـن فيهـم أعضـاء فـي الإدارة الأميركيـة، فقـد أجبتُـه بأنـي مُسـتعد، لا بـل واجبـي كسياسـي مُعـارض أنْ أوصِّـل كلمـة الشـعب السـوري وتَوقَـه إلـى الديمقراطيـة إلـى جميـع المحافـل الدوليـة. وأضفـتُ أنَّ لـديَّ ثـقة بنفسـي تجعلنـي علـى اقتـناعٍ بأنـي لـن أخـدم إلا صاحـب القضيـة الـذي هـو الشـعب السـوري، بـل لِنكـن صريحيـن، ففـي ظِـلِّ تـوازنِ القُـوى السياسـيِّ والمالـيِّ والتكنولوجـي، ليـس هنـاك أي مصلحـة للشـعب السـوري الراغـب بالتقـدم والنهـوض، فـي إحـداث أي شـكلٍ مـن أشـكال القطيعـة مـع الغـرب، وبالتالـي فـإنَّ يدَنـا ممـدودةٌ إلـى الغـرب بـكل ثقـة بالنفـس ومـن منطـق الاحتـرام المُتبـادَل. الشـعب السـوريُّ تـم تضليلـه ونهبـه، وسُـلِبَتْ كرامتـه وحقوقـه وتُـرِكَ وحيـدًا إلـى قـدَره، والأنكـى أنَّ مَـن سـلَبه حقوقـه وكرامتـه، يدَّعـي اليـوم أنـه يُدافـع عنـه فـي وجـه أطمـاع الغـرب، مـن هنـا فـمُهِمَّتي أن أكـون أمينًـا لمصلحـة مَـن أُدافِـع عنهـم وأن أكشـف أمامهـم هـذا الزيـف.

كما أكدتُّ في مقابلةٍ أخرى مع شعبان عبود[١١] على أنَّ:

«الشعب السوري قادرٌ على إنجاز مهمة التغيير من خلال قياداته الوطنية وإمكاناته الذاتية دون تدخلٍ خارجيٍّ سواء أكان عسكريًّا أما ماديًّا في حال توفَّرتْ له حرية التعبير، وفي مثل هذه الحالة نكون قد انتقلنا إلى الديمقراطية بأقل الخسائر الممكنة».

وأكدتُّ أيضًا أنه:

«ومنذ مئات السنين لم يتحرَّر شعبٌ من الشعوب من براثن الاحتلال أو من نظامٍ استبدادي إلا بدعمٍ سياسيٍّ ومساندةِ المحافل الدولية، وأقرب مثالٍ هو شعوب أوروبا الشرقية التي لم تُحقِّق ما وصلتْ إليه اليوم بنضالات شعوبها وإمكاناتهم الذاتية فقط، بل كان هناك دعم خارجي أيضًا».

ثم أعدتُّ التذكير بأنني:

«مع التغيير جملةً وتفصيلًا، ولا يوجد أملٌ بالإصلاح أبدًا، وأنني لا أنطلِق في نظرتي إلى مستقبل النظام من إمكان تغييره نتيجةَ ضغوطٍ خارجية على خلفية اتهاماتٍ مُعيَّنة، كجريمة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، بل نسعى لتَغييره بشكلٍ سلمي، أي بإقرار مبدأ تداول السلطة وليس عن طريق انقلاب،

(١١) شعبان عبود، «معارضة تحت سقف إعلان دمشق»، النهار (بيروت)، ٢٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦، النص الكامل: وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)
https://bit.ly/2FXr9ST

وهنـاك مؤشـراتٌ عديـدة وواضحـة حـول عـدم قـدرة النظـام فـي سـورية علـى إصـلاح نفسـه، وفـي هـذه الحالـة يُصبـح التغييـر نحـو الديمقراطيـة ضـرورة».

وكنـت أبديـتُ أسَـفي فـي حـوارٍ مـع موقـع **شـفاف الشـرق الأوسـط** بتاريـخ ١٠ نيسـان/أبريل ٢٠٠٧ بـأنَّ ألاعيـب عَـزل المُعارضـة عـن الخـارج قـد انطلـتْ علـى الكثيريـن مـن بعـض أطيـاف المعارضـة ومـن أبنـاء شـعبنا الطيِّـبين، فالسـلطة تسـعى إلـى مُحاصـرة قـوى المعارضـة فـي الداخـل وإلـى عزلهـا عـزلًا تامًّـا عـن العالـم الخارجـي باتهامهـا باللَّاوطنية والعمالـة والاتصـال مـع الخـارج والاستِـقواء بـه، وهـي تُهَـمٌ وُجِّهَـتْ لكثيـرٍ مـن معتقلـي الـرأي ويُحاكمـون بموجِبهـا أمـام القضـاء وتُسـتخدَم للتشـهير بهـم فـي الإعـلام الرسـمي. بينمـا نـرى، فـي المقابـل، أنَّ أركان السـلطة يستقـطِبون قيـادات المعارضـة فـي لبنـان والعـراق والأردن ويعتبرونهـم مُمثِّـلين للقـوى الوطنيـة فـي بلدانهـم، كمـا نـرى مُمثِّلـي بعـض البعثـات الدبلوماسـية للـدول الحليفـة للنظـام مثـل الدبلوماسـيِّين الإيرانـيِّين، يتحرَّكـون بحريـة ويلتقـون بمَـن يرغبـون مـن السـوريين ويُقدِّمـون الهِبـات دون أن تلحـق تهمـة العمالـة والاستِـقواء بالخـارج بمَـن يتعامـل معهـم مـن السـوريين.

إنَّ أولويـة النظـام فـي علاقاتـه مـع الخـارج مُوجَّهـةٌ لخدمـة بقائـه فـي السـلطة والتـي كثيـرًا مـا تكـون علـى حسـاب مصالـح الشـعب السـوري، أمَّـا قُـوى المعارضـة فإنهـا تسـعى لبنـاء علاقـةٍ متوازنـة مـع الأسـرة الدوليـة ككل والدفـاع عـن مصالـح الشـعب وحقـه فـي المشـاركة فـي إدارة شـؤونه وتـقرير مصيـره.[١٢]

(١٢) المعـارض السـوري ريـاض سـيف «للشـفاف»: «سـتُّ نقـاطٍ أثـرناها مـع وفـود الكونغـرس الأمريكـي»، شـفاف الشـرق الأوسـط، ١٠ نيسـان/أبريل ٢٠٠٧.

ومثلما لا يخفى على الكثيرين أنَّ «الإعلان»، بقُواه المختلفة ومُستقِلِّيه، كان مُدرِكًا لضرورة بناء علاقةٍ مع الخارج لدعم الشعب السوري في نضاله ضد الاستبداد، وأنَّه يعِي بأنَّ أيَّ خطةٍ للتغيير لا تَأخذ الظروف الإقليمية والدولية بعَين الاعتبار هي خطة ناقصة وغير جدِّيَّة ولن يُكتَب لها النجاح. ورغم توافقي مع موقف «إعلان دمشق» من العلاقة مع الخارج حسب ما جاء في وثائقه، لكني شجَّعتُ دومًا على الانفتاح على العالم وعدم مُعاداته وإيجاد التقاطعات مع سياسات الدول التي نُنسِّق معها في القضايا التي تَخدم مصالحنا كشعبٍ، وأهداف «إعلان دمشق» كجزءٍ حيويٍّ من هذا الشعب يُعبِّر عن تطلعاته وتَوقِه للحرية، وهذه النظرة ليست محكومة بما يُقرِّره النظام أو بموقفٍ أعتبره غير دقيق تتبنَّاه بعض قُوى إعلان دمشق مُتوسِّلةً فهمًا مُبتسَرًا للسيادة.

لكنَّ مخاوف البعض من تحول العلاقة مع الخارج إلى الارتهان بالإضافة إلى الضغوط والابتزازات الأمنية، أعاقتْ بَلورةَ سياسةٍ واضحة تجاه الخارج وجعلَتْها قضيةً خلافية داخل قيادة الإعلان بين تيَّارَين: الأول، اصطُلِحَ تسميته بالتيار الليبرالي ويُمثِّله مجموعة «ربيع دمشق» والإسلامِيّون المُستقلّون وقوى كردية وآشورية وحزب الشعب الديمقراطي وبعض أحزاب التجمع الوطني الديمقراطي، وأمّا الثاني فعُرف بالتيّار القومي اليساري، ويُمثِّله حزب الاتحاد الاشتراكي وحزب العمل الشيوعي وحزب اليسار الكردي وهيثم منّاع، ولتَخفيف حِدَّة هذا الخلاف وما يُرافقه من شَحن الأجواء

---

https://www.metransparent.com/old/texts/riad_seif_shaffaf_interview.htm

وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)

https://bit.ly/3hT3CzT

وتوتُّرها، وبعد جهودٍ مُضنِية توصَّلنا في الأمانة العامَّة للإعلان إلى التوافق على ثلاث نقاط:

(١) أهمية عدمِ عزلِ قُوى «إعلان دمشق» (وهو ما يُحاول النظام تحقيقه)، والتوجه لنَشر برنامجه ورؤيته في كل المحافل الدولية ولدى كل المؤسسات المدنية.

(٢) التمييز بين خارج وخارج، وانتقاء الجهات بتدقيقٍ وتأنٍّ.

(٣) أن يتمَّ الاتفاق مُسبَقًا على شخصية (أو أكثر وهو الأفضل) كي تقوم بطرح وجهة نظر الإعلان مع أيِّ طرف خارجي مع الاتفاق على جوهر ما سيُطرح.

ولكنه غالبًا ما كان يزداد الجدل حِدَّةً وتشدُّدًا من قِبَلِ القوى القومية واليسارية إذا كان الوفد أمريكيًّا. وتجاه هذا الخلاف، تمكَّن «الإعلان» من اعتماد حلٍّ توافُقيٍّ يقول بأنه، عندما يتعذَّر التوافق في الأمانة العامة على اللقاء مع طرفٍ خارجي مُعيَّن، يمكن لرياض سيف إجراء اللقاء معه باسمه الشخصي كمُعارض وكعُضوٍ سابق في مجلس الشعب،[١٣] وليس بصفته الاعتبارية كرئيسٍ لـ«الأمانة العامة لإعلان دمشق»، وقد قبلتُ هذا الخيار لتجنيب الإعلان وِزرَ الموقف السياسي والتكلفة الأمنية للقاءات التي لا يحصل توافقٌ حولها، وذلك على الرغم من تَبِعات القرار السلبية، بتحجيم دور الأمانة العامة، وبإضعاف وزن الإعلان نفسه أمام الهيئات السياسية الخارجية.

---

(١٣) والمُتعارَف عليه في جميع دول العالم أنَّ الصفة التمثيلية للنائب المُنتخَب لا تسقط بانتهاء الدور التشريعي، وهذا التقليد مُتعارفٌ عليه في سورية أيضًا، حيث نرى أنَّ رئيس الجمهورية يستقبل العديد من رجالات السياسة في لبنان بصفةِ نائبٍ سابق مثل سليمان فرنجية وتمام سلام ونجاح واكيم وغيرهم. ومن هذا المُنطلق، كانت لِقاءاتي مع العديد من الوفود الأوروبية والأمريكية وباقي دول العالم.

فـي أوائـل نيسـان/أبريل ٢٠٠٧، زار سـورية وفـدان مـن الكونغـرس الأمريكـي، والْتـقـيتُ معهمـا كل علـى حِـدَة فـي منـزل السـفير الأمريكي فـي دمشـق بنـاءً علـى طلبهمـا. الأول، كان برئاسـة السـيناتور كريسـتوفر دوود وعضويـة خمسـةٍ مـن أعضـاء مجلـس الشـيوخ ودام اللقـاء سـاعتين كاملتَيـن. والثانـي، برئاسـة نانسـي بيلوسـي رئيسـة مجلـس النـواب ودام اللقـاء مـدة عشـرين دقيقـة. كان أيُّ لقـاءٍ سياسـي للمعارضـة مـع أيِّ وفـدٍ أجنبـي، هـو تحـدٍّ لإرادة النظـام القمعيـة وتأكيـدًا علـى علنيـة ممارسـتنا السياسـة، فهـو معـروفٌ لمختلـف وسـائل الإعـلام والصحافـة، العربيـة والدوليـة، كمـا للجهـات الأمنيـة التـي كانـت تُرسِـل عناصرهـا لتطويـق مـكان اللقـاء وللضغـط علينـا كأفـراد قبـل اللقـاء وبعـده. وقـد عرضـتُ تفاصيـل اللقاءَيـن فـي اجتمـاع مكتـب «الأمانـة» بتاريـخ ٤ نيسـان/أبريل ٢٠٠٧ حيـث دار الحديـث مـع الوفديـن حـول الظـروف التـي تعيشـها قـوى المعارضـة فـي سـورية، ومصاعـب العمـل فـي ظـل النظـام القمعـي وضـرورة الضغـط علـى بشـار الأسـد لتوسـيع هامـش الحريـات، حيـث كان السـيناتور دوود مُطلِعًـا علـى الكثيـر مـن التفاصيـل حـول نشـاط قـوى المعارضـة، وأبـدى تقديـره لمـا نقـوم بـه مـن عمـل، بـل اعتبـره عمـلًا بطوليًّـا بـكل معنـى الكلمـة تحـت الظـروف القاسـية التـي تُعامـل فيهـا المعارضـة.

وقـد نشَـر موقـع **شـفاف الشـرق الأوسـط**، حـوارًا معـي بتاريـخ ١٠ نيسـان/أبريل ٢٠٠٧ بعنـوان «المعـارض السـوري ريـاض سـيف للشـفاف: سـت نقـاطٍ أثرناهـا مـع وفـود الكونغـرس الأمريكـي»[١٤]

(١٤) المعـارض السـوري ريـاض سـيف «للشـفاف»: «سـتُّ نقـاطٍ أثـرناها مـع وفـود الكونغـرس الأمريكـي»، شـفاف الشـرق الأوسـط، ١٠ نيسـان/أبريل ٢٠٠٧.
https://www.metransparent.com/old/texts/riad_seif_shaffaf_interview.htm

أكـدتُّ فيهـا لقائـي مـع وفـود الكونغـرس الأمريكـي، وطلـب رئيسـة مجلـس النـواب الأميركـي نانسـي بيلوسـي لقائـي بشـكلٍ مُنفـرد، كنـوعٍ مـن التقليـد الديمقراطـي بصِفتـي عضـوًا سـابقًا فـي مجلـس الشـعب، وأحـد قـادة المعارضـة الديمقراطيـة فـي سـورية. وأثـرتُ معهـم أولًا، أنَّ أيَّ محاولـةٍ لاسـتعمال القـوة العسـكرية لإسـقاط النظـام مرفوضـة وأيَّ حصـارٍ اقتصـادي يُفـرَض علـى سـورية مرفـوض لأن المُتـضرِّر الوحيـد منـه هـو الشـعب السـوري، بينمـا يُمكـن للسـلطة أن تتعايـش مـع الحصـار كمـا علَّمتْـنا تجربـة العـراق قبـل سـقوط صـدام حسـين. ثانيًـا، إنَّ إسـرائيل هـي دولـةٌ محتلـة للجـولان السـوري وإنَّ دعـم الإدارة الأمريكيـة الحاليـة والإدارات السـابقة لهـا والسـكوت عـن انتهاكاتهـا لحقـوق الشـعب الفلسـطيني، وهمجِيَّـتها فـي حربهـا المُدمِّـرة علـى لبنـان الصيـف الماضـي، يُؤجِّـج العـداءَ لأمريـكا فـي أذهـان السـوريين وشـعوب المنطقـة، وأنَّ مفتـاح الأمـن والاسـتقرار فـي المنطقـة والعالـم هـو إيجـاد حـلٍّ عـادلٍ للقضيـة الفلسـطينية وإعـادة الجـولان إلـى سـورية، وبهـذا نَقطـع طريـق العنـف والإرهـاب ومتاجـرة الأنظمـة الاسـتبدادية بالمسـألة الوطنيـة. ثالثًـا، إنَّ الخيـار الحقيقـي للشـعب السـوري هـو الانتـقال إلـى بنـاء دولـةٍ ديمقراطيـة فـي سـورية بشـكلٍ سِـلميٍّ وتدريجـي وآمـن، ويمتلـك هـذا الخيـار الشـروطَ الموضوعيـة لنجاحـه فـي حـال توفَّـرتْ للشـعب السـوري فرصـة التعبيـر عـن إرادتـه بالوسـائل الديمقراطيـة كحريـة التعبيـر والتجمـع والتظاهـر والاعتصـام، والتـي لا بـد أن تدفـعَ النظـام لقبـول البَـدء بإصـلاحٍ سياسـيٍّ حقيقـي يُشـارك فيـه جميـع السـوريين علـى اختـلاف انتماءاتهـم ومشـاربهم.

وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)

https://bit.ly/3hT3CzT

رابعًا، تَسعى السلطة الحاكمة في سورية إلى عقد الصفقات مع العالم الخارجي لاستمرار احتفاظها بالسلطة والاستئثار بكل مُقدَّرات البلاد، وإنَّ مشاركة بعض الإدارات الأمريكية في هذه الصفقات، يُحمِّلها جزءًا من مسئولية تكريس استمرار النظام الاستبدادي القمعي على مدى أكثر من أربعة عقود. خامسًا، إنَّ قوى المعارضة الديمقراطية في سورية تسعى إلى إثبات وجودها كمُدافعٍ عن مصالح وطموحات الشعب السوري والمشاركة في صنع مستقبلِ سورية وكسب الاعتراف بها كمعارضةٍ ديمقراطية مشروعة من قِبَلِ العالم الخارجي. سادسًا، إنَّ مواصلة الحوار بين قوى المعارضة الديمقراطية في سورية ومنظمات المجتمع المدني والمؤسسات السياسية في الغرب، بما في ذلك أعضاء الكونغرس من الحزبَين الجمهوري والديمقراطي كمُمثِّلين للشعب الأمريكي، هي ضرورة من أجل التعاون في البحث عن أفضل الوسائل المُمكِنة لإعادة العلاقة الطبيعية المبنية على تلاقي مصالح الشعب السوري والشعوب الغربية، وهذا يتطلَّب اعترافًا من تلك المنظمات والمؤسسات بمشروعية قوى المعارضة الديمقراطية في سورية.

لكنْ ما أراحنا هو وَعدهم بأنهم لن يُبادروا إلى التقارب مع النظام على حساب حقوق ومصالح الشعب السوري، خصوصًا وأنَّ معظم الصحف أعلنتْ وقتها أنَّ الهدف من زيارة نانسي بيلوسي كان كَسر عُزلة النظام السياسية.

وبعد ثلاثة شهور وقُبَيلَ زيارة الوفد البرلماني الهولندي المُقرَّرة إلى سورية بتاريخ ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٧ تم الاتفاق على تشكيل

وفـدٍ للقائهـم مؤلـف مـن ١٣ شـخصًا،[١٥] وبعـد أن قـدَّم رئيـس الوفـد الهولنـدي أعضـاء وفـده، قدَّمـتُ أنـا أعضـاء وفـد إعـلان دمشـق. قـدَّم جـورج صبـرا عرضًـا مُختصَـرًا عـن «الإعـلان»، تأسيسـه والقـوى المُنضوِيـة فيـه وأهدافـه. وتنـاوب أعضـاء الجانـب السـوري فـي الإجابـات علـى أسـئلة أعضـاء الوفـد الهولنـدي، كمـا تـمَّ توزيـع نُسَـخٍ مـن وثيقـة «إعـلان دمشـق» باللغتيـن الألمانيـة والإنكليزيـة. أبـدى معظـم أعضـاء الوفـد الهولنـدي الاهتمـام الشـديد بـ«إعـلان دمشـق» ومعرفـة أدقِّ التفاصيـل عـن برنامجـه وخطـطه، مـع الوعـد بدَعـم الإعـلان واسـتمرار التواصـل معـه.

وأيضًـا الْتـقى وفـدٌ مـن الأمانـة العامـة بوفـدٍ مـن برلمـان الاتحـاد الأوروبـي فـي ١٥ أيلول/سـبتمبر ٢٠٠٧ المُؤلَّـف مـن ٩ أعضـاء برئاسـة السـيدة بياتريـس باتـري مـن (فرنسـا) وممثليـن عـن إيطاليـا وتشـيكيا وبريطانيـا وبولنـدا والبرتغـال والنمسـا، ويُمثِّـلون تيـارات الديمقراطييـن المسـيحيين والاشـتراكيين الديمقراطييـن والخضر و٨ موظفين مسـاعدين وصحفـي وثـلاث سـيدات مترجِمـات. وجـاء فـي كلمـة الأمانـة:

«نحـن نعمـل مـن أجـل التغييـر وإقامـة نظـامٍ ديمقراطـيٍّ حديـث، علـى أسـاس الدسـتورية والتعدُّديـة وتـداول السـلطة واحتـرام حقـوق الإنسـان المضمونـة بالشـرائع الدوليـة. وفـي عملنـا هـذا، القائـم علـى أسـاسٍ سِـلميٍّ ويَقـبل التـدرج، نحتـاج إلـى مُـداواة الخـوف المُزمِـن لـدى شـعبنا، عـن طريـق الضغـط مـن أجـل إطـلاق حريـة الـرأي

(١٥) أسـماء وفـد إعـلان دمشـق الثلاثـة عشـر: حسـن عبـد العظيـم، جـورج صبـرا، نواف البشـير، سـهير أتاسـي، سـمير نشـار، إسـماعيل عمـر، عبـد الحكيـم بشـار، غسـان نجـار، أحمـد طعمـة، ياسـر العيتـي، يوسـف ديـب، ريـاض سـيف.

والتعبيـر والتنظيـم، ونحتـاج إلـى دعمكـم مـن أجـل ذلـك (...) وإلـى وقوفكـم معنـا فـي مطالبنـا بإطـلاق سـراح جميع السـجناء مـن أجـل آرائهـم، والسـماح بالسـفر للممنوعيـن مـن مغـادرة البـلاد، وإنهـاء الاعتـقال التعسُّـفي، وحالـة الطـوارئ عمومًـا».

وباعتقـادي أنَّ هـذه اللقـاءات شـكَّلتْ تجـاربَ ناجحـة فـي انفتـاح إعـلان دمشـق علـى العالـم وفـي تمكيـن قـوى المعارضـة الديمقراطيـة مـن الحضـور فـي معادلـة العلاقـات الخارجيـة مـع سـورية، ولا سـيما وأنَّ جميـع الوفـود المهتمـة بسـماع وجهـة نظـر المعارضـة السـورية هـي مـن الـدول ذات النظـم الديمقراطيـة، والتـي نحتـاج إلـى خبراتهـا لجعـل طريـق الديمقراطيـة أكثـر سـهولةً وأمانًـا ومـردودًا فـي المسـتقبل.

بيضاء في الأصل

الفصل الثالث

الدعوة والعمل
لعقد المجلس الوطني

بيضاء في الأصل

(١) التحضير لانعقاد المجلس الوطني لإعلان دمشق

تعذَّر عقد المجلس الوطني للإعلان في نهاية عام ٢٠٠٦ حسبما كان مُخطَّطًا له، لأسبابٍ أمنية وسياسية وتنظيمية داخلية ولكنه بَقِيَ هاجسَ الأمانة العامَّة والبندَ الأول في كل اجتماعاتها، والتي رأتْ بتاريخ ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ أنَّ عقد الاجتماع المُوسَّع للمجلس الوطني لإعلان دمشق يتطلَّب:

- إقرار البِنية التنظيمية.[١]

- مناقشة تقارير عن عمل مكتب الأمانة ومكتب النشاطات ومكتب الإعلام، وتقرير عن الوضع السياسي القائم.

- إقرار أسماء المَدعُوِّين لحضور الاجتماع، وتُحدِّد الأمانة العامَّة أعدادَ المشاركين في المجلس الوطني، وأعداد المُستقلِّين فيه.

- تشكيل لجان المحافظات والمناطق، على أن تُنجَز هذه

(١) مشروع البنية التنظيمية، وثائق المجلس الوطني المُصغَّر الثاني، وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)

https://bit.ly/3iTxttp

العملية في مدةٍ زمنية مُحدَّدة، كأحد الشروط الضرورية والمُهيِّئة لعقد المجلس الوطني المُوسَّع.

وفي اجتماع العاشر من شباط/فبراير ٢٠٠٧ تَوافق مكتب الأمانة على:

- مبدأ توسيع المجلس وفق مِحورَين: محور لجان المحافظات ومحور الشخصيات الثقافية والاجتماعية.

- أن يُقِرَّ المجلس التأسيسيُّ عدد الأعضاء الجُدد وأسماءهم، وليس الأمانة العامة.

- تحديد تاريخ الاجتماع ووقته.

- بنود وجدول أعمال المجلس: (أ) عَرض مشروع الهيكلِيَّة، (ب) الفصل في موضوع الاستحقاق الانتخابي، (ج) توسيع المجلس الوطني وعرض أسماء المرشحين، (د) عرض برنامج العمل.

- تشكيل لجنة، لتَحضير انعقاد المجلس ولصياغة ورقة العمل، من أمين عبدي، حسن عبد العظيم، علي العبد الله، رياض سيف.

(٢) انعقاد «المجلس التأسيسي»
لإعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي

تمَّ الاجتماع بتاريخ ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٧ وحضَره كلٌّ من: سهير الأتاسي، زينب نطفجي، طارق أبو الحسن، عبد الحفيظ الحافظ، عبد الغني عياش، إسماعيل عمر، رياض الترك، طلال أبو دان، عبد الرحمن أحمد، شيخ أمين عبدي، طالب صفوك، عزيز داوود، علي العبد الله، رضوان القضماني، عبد المجيد منجونة، غابرييل كورية،

بشـير السـعدي، أيمـن مـراد، سـليمان الشـمر، حسـن عبـد العظيـم، نايـف قيسـية، عبـد الحميـد درويـش، نصـر الديـن إبراهيـم، عبـد الكريـم الضحـاك، صفـوان عـكاش، نـدى الخـش، فـداء حورانـي، محمـد موسـى محمـد، نـواف البشـير، أحمـد طعمـة الخضـر، يوسـف صياصنـة، غسـان النجـار، ريـاض سـيف.

وناقــش المؤتمر البنودَ التالـية:

- توسـيع المجلـس الوطنـي، حيـث تـمَّ الاتــفاق علـى أن يقـوم مكتـب الأمانـة بالتشـاور مـع بقيـة أعضـاء المجلـس التأسيسـي لوَضـع أُسُـسٍ وقواعـد تُنــظِّم طريقـة اختيـار الأعضـاء الجُـدد، وأن يتـم جمـع الترشـيحات المُقدَّمـة مـن أعضـاء المجلـس التأسيسـي وأسـماء مندوبـي لجـان المحافظـات بعـد اكتــمال تشـكيلها فـي كافَّـة المحافظـات، الأمـر الـذي يُسـهِّل تحديـد أسـماء المجلـس المُوسَّـع فـي الاجتــماع القـادم.

- مشــروع البِنيــة التنظيميــة، وقــد تقــرَّر وتضمَّــن مقدمــةً وســتَّ مــوادٍّ تُنظِّــم أُطُــرَ عمــل إعــلان دمشــق للتغييــر الوطنــي الديمقراطـي فـي سـورية وهـي: المجلـس الوطنـي، الأمانـة العامـة، لجـان المحافظـات، لجـان الخـارج، المؤتمـر الوطنـي، إلـى جانـب تضمُّــنِه مبـادئ عامَّـة.

- بِنيــة مكتــب الأمانــة، حيــث تقــرَّر أنْ يتألَّــف مكتــب الأمانــة مـن ١٥ عضـوًا مـن الداخـل وعـددٍ مـن الأعضـاء فـي الخـارج، وتختـار الأحــزاب مُمثِّــليها بالتوافــق، أمــا المُســتقلون فيتــم انتخابهــم.

وبرغـم تحفُّـظ حـزب اليسـار الكـردي فقـد تـمَّ التوافـق علـى توزيـع مقاعـد الأمانـة العامـة علـى النحـو التالـي:

التسلسل	الجهة	عدد المقاعد
١	الجبهة والتحالف الكردِيَّان(*)	مقعدان
٢	التجمُّع الوطني الديمقراطي	ثلاثة مقاعد
٣	المنظمة الآثورية	مقعد واحد
٤	لجان المجتمع المدني	مقعد واحد
٥	المستقلون	ثمانية مقاعد
٦	المجموع	(١٥) خمسة عشر مقعدًا

(*) المقصود الجبهة الديمقراطية الكردية والتحالف الديمقراطي الكردي.[٢]

وفي اجتماع مكتب الأمانة بتاريخ ٤ آذار/مارس ٢٠٠٧ تمَّ التحفُّظ من قِبَلِ البعض على الفقرة (أ) من المادة السادسة من البنية التنظيمية التي تنصّ على أنّه: «يجري اعتماد التوافق في اتخاذ القرارات، فيما يتعلَّق بالقضايا الأساسية والموقف السياسي، وإذا تعذَّر التوافق فبأكثرية الثلثين، أما في المسائل الإجرائية فتُتخذ القرارات بالأكثرية» ليُصار إلى ترحيل البتِّ بها إلى اجتماع المجلس الوطني القادم. وفي الاجتماع ذاته جرى التوافق على توسيع المجلس بحدود المئة، فأضفنا أسماء مُقترَحة لقائمة المرشحين وشطَبنا المُعتذرين. وتمَّت الموافقة المبدئية على ترشيح ٥٧ اسمًا من المستقلين لأخذ موافقتهم النهائية، بالإضافة إلى ١٢ احتياطيًّا، وثلاثة عن الجبهة الكردية، مع الإقرار

(٢) تتألف «الجبهة الديمقراطية الكردية» في سورية من ثلاثة أحزاب سياسية هي «الحزب الديمقراطي الكردي في سورية (البارتي)»، نذير مصطفى؛ و«الحزب التقدمي الديمقراطي الكردي»، عزيز داوود؛ و«الحزب الديمقراطي الكردي (البارتي)، ظاهر سفوك. أمّا «التحالف الديمقراطي الكردي في سورية»، فيتألَّف من أربعة أحزاب هي «حزب الوحدة الكردي»، إسماعيل عمر؛ «الحزب الديمقراطي التقدمي الكردي»، حميد درويش؛ «الحزب الديمقراطي الكردي (البارتي)»، نصر إبراهيم؛ «حزب اليسار الكردي»، محمد موسى.

المبدئـي لمَندوبـي الأحـزاب. وتمـت الموافقـة علـى تمثيـل لجنـة الحسـكة بثلاثـة مندوبيـن. وكُـلِّفـتُ مـع أميـن عبـدي وجـورج صبـرا وعمـر كـرداس، بتشـكيل لجنتيـن لريـف دمشـق ولمدينـة دمشـق أو لجنـة واحـدة لكليهمـا. وكُلِّـفَ طـلال أبـو دان بتشـكيل لجنـة الرقـة بالتنسـيق مـع محمـد زكـي هويـدي وتشـكيل لجنـة محافظـة إدلـب بالتنسـيق مـع الدكتـور نقـولا غنـوم. وكُلِّـفَ حسـن عبـد العظيـم وعبـد اللـه هوشـة بتشـكيل لجنـة محافظـة اللاذقيـة، وكُلِّـفَ الدكتـور بشـور سـركيس وشـحادة عركـوش بتشـكيل لجنـة محافظـة طرطـوس.

ثـم كُلِّـفتُ شـخصيًّا فـي اجتمـاع الأمانـة العامـة فـي ١٥ آذار/مـارس ٢٠٠٧ بالاتصـال بجميـع أعضـاء المجلـس الوطنـي ومطالبتهـم بتقديـم ترشـيحاتٍ جديـدة لتوسـيع المجلـس. وأيضًـا كُـلِّفَتْ لجنـةٌ مؤلفـة مـن: علـي العبـد اللـه، إسـماعيل عمـر، فـداء حورانـي، حسـن عبـد العظيـم، سـليمان الشـمر، وأميـن عبـدي، للاجتمـاع بلِجـان المحافظـات وأخـذ أسـماء مُرشـحِيهم. كمـا ناقشـنا قائمـة مرشـحين تضـمُّ ٧٠ اسـمًا وتوافقـنا علـى ٦٢ منهـا، وحُوِّلَـتِ الأسـماء الثمانيـة الباقيـة إلـى لجـان محافـظاتهم لدراسـة ترشيـحهم. وفـي اجتمـاع الأمانـة العامـة ٧ أيار/مايـو ٢٠٠٧ كُـلِّفَ حسـن عبـد العظيـم وريـاض التـرك بمُتابعـة لجنتَـي طرطـوس واللاذقيـة، وتعهَّـدتِ السـيدة فـداء بتقديـم أسـماء مُمثِّـلي إدلـب وحمـاة إلـى المجلـس. وأُعِيـدَ تكليفـي مـع حسـن عبـد العظيـم وريـاض التـرك وأميـن عبـدي وجـورج صبـرا لتأسـيس لجنـة دمشـق وريـف دمشـق. وتـم تكليـف حسـن عبـد العظيـم للاتصـال بلجنتَـي درعـا والسـويداء وتحديـد أسـماء مُمثِّـليهم. كمـا تـمَّ الاتفـاق علـى اسـتكمال الأسـماء والاقـتراحات والتنويـه للأسـماء التـي اعتـذرتْ فـي اجتمـاع مكتـب الأمانـة القـادم، والـذي كان الاجتمـاعَ الأخيـر قبـل اجتمـاع المجلـس الوطنـي «المُصـغَّر».

(٣) انعِقاد المجلس الوطنيِّ المُصغَّر الثاني

عقَد المجلس الوطني المُصغَّر لإعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي، اجتماعَه في يوم ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٧ بحضور: نايف قيسية، عبد الكريم الضحاك، فداء حوراني، أحمد طعمة، غسان النجار، رياض سيف، سهير أتاسي، زينب نطفجي، طارق أبو الحسن، عبد الرحمن الأحمد، رضوان قضماني، عبد المجيد منجونة، أيمن مراد، سمير نشار، ندى الخش، يوسف صياصنة، عبد الرزاق عيد، جودت سعيد، محمد خضر، فايز سارة، حسين العودات، علي العبد الله، ملك الحسيني، بالإضافة إلى مُمثِّلي الأحزاب المُشاركة في الإعلان، وتمَّ فيه:

- إقرار أسماء مندوبي اللجان المستقلين في سبع محافظات.[٣]

- وأيضًا أُقِرَّتْ أسماء ممثلي الأحزاب في المجلس المُوسَّع، على أنْ تَستكمل الأحزاب مُرشَّحيها لاحقًا.[٤]

- ومن ثُمَّ تمَّتِ الموافقة على أسماء عددٍ من الشخصيات الوطنية كأعضاء.[٥]

- موافقة المجلس على ١٥ اسمًا مُرشَّحًا للجان المحافظات التي لم تستكمل قوائمها. وقد تمَّ تفويض مكتب الأمانة بمُتابعة تشكيل لجان المحافظات المُنتخَبين من هيئاتها العامة واعتِبارهم أعضاء في المجلس الوطني المُوسَّع، وحُدِّدَ لذلك مدة شهرٍ واحد

---

(٣) اطلب جدول أسماء مندوبي اللجان المستقلين في محافظات الحسكة، وإدلب، ودرعا، والسويداء، وحماة، ودير الزور، وحلب في نهاية هذا الفصل؛ (ص. ٢٢٣ أدناه).

(٤) اطلب أسماء مُمثِّلي الأحزاب في المجلس المُوسَّع في نهاية هذا الفصل.

(٥) اطلب أسماء الشخصيات الوطنية في نهاية هذا الفصل.

مـن تاريخـه، وإذا لـم تنجـح اللجنـة المُكلَّفـة بذلـك يَحِـقُّ لمكتـب الأمانة تسـمية مُمثِّـلي اللجـان مـن الأسـماء المطروحـة فـي تلـك المناطـق. ثـم تــمَّ إقـرار البنــية التنظيمية.

وأعـادت الأمانـة العامـة النظـرَ بالمُكــلَّفين بتشـكيل لجـان محافظـات الرقـة واللاذقيـة وطرطـوس بتاريـخ ٢٠ حزيران/يونيـو، فكُــلِّف نـواف البشـير بالتشـاور مـع إسـماعيل الحامـض وعبـد اللـه خليـل وأحمـد الحمـد وراشـد الصطـوف لاختــيار ممثلـي لجنـة الرقـة، وكُــلِّفَ حسـن عبـد العظيـم مـع أكـرم البنـي وعبـد الكريـم الضحـاك لاختــيار ممثلـي لجنـة اللاذقيـة بالتشـاور مـع منيـر شـحود ونصـر سـعيد ومنـذر حلـوم وكامـل عبـاس، وأيضًـا لاختــيار ممثلـي لجنة طرطـوس بالتعاون مع بشـور سـركيس وجمعـة قوبـان ووائـل بيطـار (حـزب الشـعب). وتـمَّ تشـكيل لجنــةٍ تحضيريــة لعقــد المجلــس الوطنــي، مِــن: غســان نجــار، ســمير الدخيـل، حسـن إسـماعيل (القامشـلي)، سـليمان الشـمر، موفـق نيربيـة، أكـرم البنـي، علـي العبـد اللـه، منيـر البيطـار، حسـن عبـد العظيـم، أميـن عبـدي، وتــقرَّر دعوتهـم لحضـور اجتــماعات مكــتب الأمانـة.

وفــي اجتــماع ٢٩ حزيران/يونيــو ٢٠٠٧ وافــقتِ الأمانــة العامــة علــى تعديــل مشــروع اللائحــة التنظيميــة، كمــا يلــي:

- الفقـرة (ز): تُشـكَّل الأمانـة العامـة مـن ١٧ عضـوًا مـن الداخـل وعـددٍ مـن الأعضـاء فـي الخـارج، ويتـم اختيارهـم بالانتخـاب. ويُراعَـى وجـود مُمثِّـلٍ واحـد لـكلِّ مـن التحالـف الديمقراطـي الكـردي والجبهـة الديمقراطيـة الكرديـة والمنظمـة الآثوريـة الديمقراطيـة، علـى ألَّا يتجـاوز عـددُ أعضـاء الخـارج ثُــلُثَ الأمانـة العامـة.

- والفقــرة (ح): يُحـدَّد عمـر الأمانـة العامـة بعـامٍ واحـد، يتـمُّ بعدهــا انتخــاب أمانــةٍ جديــدة.

وتـمَّ اسـتكمال لجـان المحافظـات بنـاءً علـى تفويـض المجلـس الوطنـي المُصغَّـر فـي اجتمـاع مكتـب الأمانـة بتاريـخ ١١ تموز/يوليـو ٢٠٠٧. كمـا تمَّـتِ الموافقـة علـى تثـبيت ١٧ مندوبًـا للَجـنة محافظـة دمشـق.[٦] وأيضًـا تمَّـتِ الموافقـة علـى فتـح قائمـةِ «اسـتـدراك عضويـة» لعـددٍ مـن الشـخصيات الهامَّـة والتـي لـم تُرشَّـح لأسـبابٍ غيـر مقصـودة عنـد عـرض قائمـة المرشـحين لعضويـة المجلـس الوطنـي. وتـمَّ انتـخاب اللجـنة التحـضيـريَّة والتـي كان موفـق نيـربـية رئيسًـا لها.

اجتمعـتِ اللجنـة التحضيريـة بتاريـخ ٢٠ تموز/يوليـو ٢٠٠٧ وتوافقـتْ علـى اختيـار عضـوِ ارتبـاطٍ فـي كل محافظـة للتنسـيق مـع لجنـة التحضيـر، واختـيار عضويـن لنَفـس المهمـة للِجـان: دمشـق وحلـب والحسـكة. وقُـدِّمَ اقتـراحٌ أن يَفـتتح، جلسـة المجلـس الوطنـي المُوسَّـع، المنـدوبُ الأكبـر سـنًّا، وأن يجـري انتخـاب مكتـبِ رئاسـة المجلـس والرئيـس بعدهـا كـي يقومـوا بدَورهـم فـي إدارة أعمـال الاجتـماع.

وفـي اجتـماع مكتـب الأمانـة بتاريـخ ٢٦ تموز/يوليـو ٢٠٠٧ تمَّـتِ الموافقـة علـى المُقـرَّرات التاليـة مـن اجتـماع اللجنـة التحضيريـة:

- تقديـمُ جـداول العضوية وتوزيعُـها حسـب المحافظـات، وتعيينُ شـخصِ ارتبـاطٍ أو أكثـر لـكلِّ محافظـة وآخـر احتياطـي، واعـتـمادُ أحـد أعضـاء المجلـس مـن سُـكان المحافظـة كـمَندوبٍ للمتابعـة مـع اللجنـة التحضيريـة.

- تضميـن اسـتمارة العضويـة المعلومـات التاليـة: الاسـم، السِّـن، مـكان الـولادة، الإقامـة، نـوع العمل، التحصيل العلمي، حِـزبي أو مُسـتـقل.

---

(٦) اطلـب أسـماء المرشـحين مـن مجالـس المحافظـات ومجلـس دمشـق فـي نهايـة هـذا الفصـل.

- اقتراح موعدٍ أوَّلِيٍّ لعقد الاجتماع المُوسَّع أوائل أيلول/سبتمبر، وتكليف رياض سيف وعلي العبد الله وجورج صبرا لاختيار المكان المناسب وتأمين الاحتياجات اللازمة والضرورية لإنجاح الاجتماع.

- إقرار جدولِ أعمال اجتماع المجلس على الشكل التالي:

(أ) الجلسة الصباحية: تقديم تقرير مكتب الأمانة واستقالته، انتخاب هيئة رئاسة المجلس من رئيسٍ ونائبِ رئيسٍ وأمينَين للسِّرّ، إقرار اللائحة الداخلية للمجلس، اختيار لجان خاصَّة بالاجتماع (لجان صياغة، تنظيم الاجتماع).

(ب) الجلسة المسائية: مناقشة الوثائق وإقرارها، مناقشة نشاطات إعلان دمشق بالخارج (مع المعارضة السورية)، انتخاب لجنة للإشراف على الانتخابات، انتخاب أعضاء الأمانة العامة ومكتب المجلس، عَقد جلسةٍ للأمانة العامة الجديدة لانتخاب مكتبها برئيسٍ ونائبَين وأمينَيّ سرّ، أو تأجيلها إلى وقتٍ لاحق.

- تكليف حسن عبد العظيم، أمين عبدي، علي العبد الله، سليمان الشمر بإعادة صياغة تقرير الأمانة.

- تشكيل لجنةٍ لتحديد مكان وزمان انعقاد المجلس القادم (تشرين الأول/أكتوبر ما لم يتعذَّر ذلك) من: موفق نيربية، نواف البشير، رياض سيف، حسن عبد العظيم، أمين عبدي، رياض الترك.

وفي ضوء استكمال تحضيرات عقد المجلس الوطني المُوسَّع، قرَّرتِ الأمانة العامة في اجتماعها ٩ آب/أغسطس ٢٠٠٧، تكليفَ لجنةٍ لإعداد تقريرِ مكتب الأمانة، وإقامة لقاء تعارُفٍ في القامشلي الجمعة ١٧ آب/أغسطس الساعة الخامسة مساءً في منزل غابرييل كورية. كما يُعقَد اجتماع لمكتب الأمانة عند سمير نشار في حلب، الساعة الخامسة

مـن يـوم الخميـس ٢٣ آب/أغسـطس، يليـه لقـاء تعـارف. كمـا تـمَّ إقـرار إضافـة مُمثـلٍ عـن حـزب العمـل للَّجـنة التحضيريـة، وتوزيـع اسـتمارات العضويـة لمَلـئها مـن قِبَـلِ أعضـاء المجلـس. وفـي اجتمـاع حلـب بتاريـخ ٢٣ آب/أغسـطس ٢٠٠٧ طالبـتِ اللجنـة التحضيريـة بضـرورة عقـد اجتمـاع المجلـس المُوسَّـع بالسـرعة المُمكـنة، ومـن ثُـمَّ نوقـشـتِ البنـود التاليـة:

أولًا: بالنسـبة لاجتمـاع المجلـس المُوسَّـع، طلَـب رجـاء الناصـر، الـذي حضَـر نيابـةً عـن حسـن عبـد العظيـم، تقديـمَ مشـروع برنامـجٍ سياسـيٍّ للإعـلان يتـم توزيعـه قَبـل انعقـاد المجلـس بمُـدَّةٍ كافيـة للتصديـق عليه كأول بنـدٍ فـي اجتمـاع المجلـس قبـل انتخـاب مكتـب المجلـس وأعضـاء الأمانـة العامَّـة، وأكَّـد علـى ضـرورة اسـتـناد البرنامـج السياسـي علـى وثيقـة إعـلان دمشـق والبيـان التوضيحـي، ولكـنْ لـم يلـقَ هـذا الاقتـراح القبـول لـدى الأكثريـة لتعـذُّر إتمامـه بالشـكل المناسـب وبالسـرعة المطلوبـة، بينمـا تـم الاتفـاق علـى تكليـف اللجنـة التحضيريـة لتقديـم مشـروع بيـانٍ ختامـيٍّ يُـوزَّع علـى جميـع أعضـاء المجلـس المُوسَّـع قبـل مـدةٍ كافيـة مـن الاجتمـاع، حيـث تتـم مناقشـته والموافقـة علـى الصياغـة النهائيـة لـه فـي نهايـة الجلسـة.

ثانيًـا: قبـول تفويـض أحـد أعضـاء المجلـس لعُضـوٍ آخـر إذا رغـب كإجـراءٍ احتياطـي، مـع التأكيـد علـى أن يتـم عقـد المجلـس بكامـل الأعضـاء ودون تفويـضٍ فـور توفُّـر الظـروف المناسـبة لذلـك.

ثالثًـا: تـم الاتفـاق علـى مشـروع اللائـحة الداخليـة للمجلـس الوطنـي لإعـلان دمشـق.[٧]

---

(٧) مشـروع اللائـحة الداخلية للمجلس الوطني لإعلان دمشق.
https://bit.ly/2G3syaM

وفـي اجتمـاع مكتـب الأمانـة بتاريـخ ٣ تشـرين الأول/أكتوبـر ٢٠٠٧ تمَّتِ الموافقـة علـى مُمثِّـلي لجنـة طرطوس ولجنـة اللاذقيـة [٨] وبهذا أُغلِـقَتْ لائحـة أسـماء المجلـس، حيـث وصَـل عـدد الأعضـاء إلـى ٢٢٠ عضـوًا. وأيضًـا تـم رفـض موضـوع التفويـض مـن قِبَـلِ الأكـثرية.

(٤) مـالِـيَّـةُ إعــلان دمـشـق

كان تمويـل الإعـلان ذاتيًّـا بشـكلٍ مُطلَـق مـن الاشـتراكات والتبرعـات للأعضـاء والأحـزاب المُنضَويـن فيـه. أُوكِـلَتْ إلـيَّ مهمـة المُحاسـب وأميـن الصنـدوق، وأُوكِـلَتْ مهمـة تدقيـق الحسـابات لعبـد المجيـد منجونـة، الـذي كان يعـرض التقريـر المالـي فـي كل اجتمـاعٍ بشـكلٍ دقيـق وشـفَّاف، الـواردات والنفقـات بالتفصيـل، ويُوقِّـعه منجونـة وأنـا.

وكان كلٌّ مـن حـزب الشـعب والاتحـاد الاشـتراكي والحزبَـين الكردِيَّـين (الديمقراطـي التقدُّمـي، عبـد الحميـد درويـش والديمقراطـي الكـردي، نذيـر مصطفـى) والمنظمـة الآثوريـة ولجـان إحيـاء المجتمـع المدنـي ــ يدفعـون ١٥ ألـف ليـرة شـهريًّا، وتَدفـع بعـض الأحـزاب الأخـرى مبالـغَ أقـلّ، وكلٌّ مـن فـداء حورانـي وسـمير نشـار وأيضًـا (أ.ع.ك) وأنـا ندفـع عشـرة آلاف ليـرة شـهريًّا، ونـواف البشـير ثمانيـة آلاف. وبلغـتْ مـوارد الإعـلان ٢٥٨٧٥٠٠ ليـرة سـورية خـلال سَنـتَـي ٢٠٠٧/٢٠٠٦، ومصروفاتـه فـي الفتـرة ذاتهـا ٢٥٣١٢٨٠ ليـرة سـورية كمـا هـو مبيـن فـي الجـدول أدنـاه.[٩]

وتكفَّـل «الإعـلان» بمسـاعدة عائـلات المعتقليـن السياسـيين، وأغلـب

(٨) اطلب أسماء مُمثِّلي لجنتي طرطوس واللاذقية في نهاية هذا الفصل.

(٩) اطلب جدول مالي عن واردات ومصروفات إعلان دمشق في نهاية هذا الفصل.

المفصوليـــن مـــن أعمالهـــم بسـب توقيعهم على اعلان دمشـق/بيروت. وتوزَّعـتِ النفقـات الخاصَّـة بالإعـلان خـلال العامَيْـن المذكورَيْـن وفـق الجـدول التالـي:

توزع مصروفات إعلان دمشق للعامَين ٢٠٠٦/٢٠٠٧ بالليـرات السورية		
المصروف	**المبـلغ (ليـرة سورية)**	**النـسـبة المئـويَّة ٪**
دعم ١٩ معتقلًا و٢ مُتَخَفِّـيين	١٧١٨٣٠٠	٦٧,٨٨
دعم ١٢ مفصولًا من العمل	٢٢٥٠٠٠	٨,٨٩
دعم عائلات معتـقلين	١٣٨٠٠٠	٥,٤٥
مساعدات صحية	٩٩٠٠٠	٣,٩١
مكتب الإعلام	٢١٦٠٠٠	٨,٥٣
مصاريف إدارية	١٢١٠٠٠	٤,٧٨
نـثـــريَّة	١٤٠٠٠	٠,٥٥
مجموع المصروفات	٢٥٣١٣٠٠	١٠٠,٠٠

كانـت مصاريـف إعـلان دمشـق المُسـجَّلة (٢٥٣١٢٨٠ ليـرة سـورية) تُـقارب وارداتـه (٢٥٨٧٥٠٠ ليـرة سـورية).

هـذا بالإضافـة إلـى مصاريـفَ غيـر مُسـجَّلة، منهـا نفقـات استـضافة عقـد الاجتماعـات والسـفر إلـى المحافظـات وتنظيـم اللقـاءات الحِواريـة، لكـن مـا كان يـسدُّ هـذا العجـز إلّا دفعـات ماليـة خاصَّـة كبيـرة لا تُسـجَّل، مـن ثلاثـة أشـخاص هـم عبـد الحميـد درويـش وفـداء حورانـي وأنـا. واسـتمر الوضـع علـى هـذا النحـو حتـى انعقـاد المجلـس الوطنـي واعتقالـي للمـرة الثانيـة.

(٥) تـمـويـل قـنـاة بـردى

فـي أواخـر عـام ٢٠٠٦ زارنـي فـي مكتبـي موظـفٌ كبيـر بالسـفارة الأمريكيـة، وأبلغنـي قـرار الإدارة الأمريكيـة بتخصيـص مبلـغٍ مالـيٍّ لدَعـم

المعارضة السورية، وسألَني عن احتياجاتنا كمُعارضة، فاتخذتُ قرارًا شخصيًّا بعد التشاور مع عددٍ من السياسيين المُقرَّبين مِنِّي، واستقرَّ الرأي مطلع عام ٢٠٠٧ على أنَّ ما تحتاجه المعارضة هو قناة فضائية لإيصال صوت المعارضة للسوريين في الداخل والخارج، ولكَسر الحصار المفروض عليها من قِبَلِ أهم القنوات العربية، ليُصارَ لسُؤالي بعد هذا الجواب ــ عن الجهة التي نثق بها والتي يُمكنهم المتابعة معها لإنجاز هذا المشروع، فقمتُ بترشيح «حزب العدالة والبناء» المُسجَّل في لندن والذي هو عضوٌ في إعلان دمشق.

لم أسمع بعدها شيئًا عن هذا الموضوع، وتم اعتقالي في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، ولكن بعد أشهرٍ عديدة من وجودي بالسِّجن استطاعت ابنتي جمانة أن تهمسَ لي بأنَّ أحدهم ترك لها ظرفًا عند أحد الأصدقاء فيه مبلغ ٥٠٠٠ دولار أمريكي باسم دعم رياض سيف، لتعرف كيف يُمكن أن تتصرَّف، فأشرتُ لها بالرفض، وعلمتُ منها لاحقًا أنَّ العملية تكرَّرتْ مرةً ثانية وبالمبلغ ذاته، مما اضطرَّها، بعد أن عرفتِ المصدر للسفر إلى بيروت، هربًا من المراقبة الشديدة عليها ومن التنصُّت المستمرِّ على هاتفها، كي تتصل بشكلٍ آمنٍ بكلٍّ من أسامة المنجد وأنس العبدة، من قيادة حركة العدالة والبناء، لتشكرهم كل على حِدَة على ما قدَّموه والاعتذار عن قبول أيِّ مبالغ إضافية.

في ذلك الوقت العصيب كنت وعائلتي بأمسِّ الحاجة إلى هذه المَعونة، ولكن تفاديًا لإعطاء النظام أي ذريعةٍ للإمعان في بطشه وحصاره لعائلتي، آثرتُ رفض أيِّ دعمٍ أو مساعدةٍ من أيِّ مصدر كان عدا إخوتي وأقرباء العائلة. ومن الجدير ذكره أنني علمتُ وأنا في السجن، بأنَّ قيادة «إعلان دمشق» قد خصَّصتْ في الوقت

ذاتـه مبالـغ ماليـة للمعتقليـن وعائلاتهـم، لكـن لـم يَتَـسَنَّ لـي بعـد خروجـي مـن السـجن متابعـة هـذه المسـألة ومعرفتهـا بالتفصيـل، لأننـي آثـرتُ تجميـدَ نشـاطي السياسـي وقدَّمـتُ استـقالتي مـن رئاسـة الأمانـة العامَّـة لإعـلان دمشـق.

إثـر تسـريبات ويكيليكـس[١٠] نشـرتِ الواشـنطن بوسـت تقريـرًا فـي ٢٠ نيسـان/أبريل ٢٠١١، مفـاده أنَّ وزارة الخارجيـة الأمريكيـة حوَّلـتْ نحـو ٦ مليـون دولار منـذ عـام ٢٠٠٨ لصالـح مَنفِـيِّين سـوريِّين مـن أجـل إطـلاق قنـاةٍ تلفزيونيـة لصالـح قـوى المعارضـة تُـبَثُّ مـن لنـدن سُمِّـيَتْ «قنـاة بـردى». بالإضافـة إلـى تمويـل أنشـطةٍ للمعارضـة داخـل سـورية، هـذا وقـد بـدأتْ «قنـاة بـردى» البـثَّ فـي نيسـان/أبريل ٢٠٠٩. وعندمـا اجتمعـتُ بعـد خروجـي مـن سـورية بأنـس العبـدة، أميـن عـام حركـة العدالـة والبنـاء والـذي ذكـره مقـال الواشـنطن بوسـت، طلبـتُ منـه معلومـاتٍ واضحـة عـن موضـوع «قنـاة بـردى» فأقـرَّ بأنـه تلقَّـى ٦ مليـون دولار مـن جهـاتٍ أمريكيـة لإطـلاق قنـاةٍ فضائيـة، وُزِّعَـتْ حسـب قولـه إلـى قسـمين: ٣ مليـون دولار لتجهيزاتٍ اشتـرتها مؤسسـات أمريكيـة، و٣ مليـون دولار أخـرى استـلَمها العبـدة وأنفـقها حسـب قوله لتَغـطية تكاليـف التأسـيس والتشـغيل بموجِب إيصـالاتٍ نِظامية سُـلِّمَتْ للجانـب الأمريكـي. وللأسـف لـم تكـن «قنـاة بـردى» علـى المسـتوى المرجـوِّ منهـا ولـم تُـؤدِّ الـدور المنـوط بهـا.

(٦) انـتـهاء التـحـضيرات وانـعـقاد «المـجـلس الوطـني المُوسَّع»

استـغرَق التحضيـر للمجلـس الوطنـي لإعـلان دمشـق نحـو سـنةٍ ونصـف

(١٠) اطلب هذه التسريبات على موقع ويكيليكس:
https://wikileaks.org/plusd/cables/09DAMASCUS272_a.html

تقريبًا، من الشهر السادس ٢٠٠٦ إلى ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧. وكان جوُّ الاجتماعات إيجابيًّا، بوجهٍ عامّ، تتخلَّله مشاحناتٌ بين رياض الترك وحسن عبد العظيم، بين الحين والآخر، ولكنَّ الجميع كان متحمسًا لعَقد هذا المجلس، وإنْ بدرجاتٍ متفاوتة ولأسبابٍ مُتباينة.

وقد اكتملتْ مختلف التحضيرات في الشهر العاشر، لكننا كُنَّا نؤجل تاريخ عَقده لعدم توفُّر الظروف المناسبة، وخاصَّةً المكان الذي يمكن الاطمئنان إليه من الناحية الأمنية.

كنا على قناعةٍ بأنَّ أجهزة الأمن تعرِف بأننا سنعقد مؤتمرًا لمجلسٍ وطنيٍّ مُوسَّع، ولكنها لا تعرف متى وأين، وفي ظل هذه القناعة، درسنا عِدَّةَ خيارات حول مكان الاجتماع كانت جميعها تحمل أخطارًا، إلى أن وجدنا أنَّ الخيار الأمثل أن يُعقَد الاجتماع في بَيتي، لأن غالبية المَدعُوِّين يعرفون العنوان، ولأن عناصر الأمن والمخابرات اعتادتْ رؤية الكثير من الزائرين لمنزلي، خاصَّةً وأنني قبل شهور، قد عقدتُّ في منزلي ندوةً لبرهان غليون حضرها العشرات أمام عيونهم ورقابتهم، ولأنهم لن يتوقعوا أبدًا أن تصل بنا الجرأة لعَقد هذا المؤتمر في مكانٍ هو تحت مراقبتهم الدائمة.

وبالفعل، تم ترتيب إبلاغ مائتين وعشرين شخصيةً سورية لحضور المجلس الوطني المُوسَّع في الأول من شهر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ [١١] حضَر منهم بالفعل مئة وسبعة وستون شخصًا، مع مشاركةٍ

---

(١١) أسماء المرشحين لحضور المجلس الوطني لإعلان دمشق: وثائق رياض سيف (موقع إلكتروني)

https://www.riadseif.net

اطلب أسماء المرشحين لحضور المجلس الوطني لإعلان دمشق في نهاية هذا الفصل.

مـن جميـع الأحـزاب الموقعـة علـى «إعـلان دمشـق»، العربيـة منهـا والكرديـة، باسـتثناء الحـزب اليسـاري الكـردي. كمـا حضَـر مُمثلـون عـن المنظمـة الآثوريـة ولجـان إحيـاء المجتمـع المدنـي وعدد من المسـتقلين العلمانيِّيـن ومثلهـم مـن الإسـلاميِّين. وكان ترتيـب تنظيـم وتوقيـت وصول الأعضـاء دقيقًـا جـدًّا، إذ وصَـل بعـض القيادات الحزبيـة في الليلة السـابقة لانعقـاد المؤتمـر وباتـوا فـي منزلـي، وتـم تـوزع الأعضـاء الآخريـن إلـى مجموعـاتٍ صغيـرة مُكوَّنـة مـن ٦/٤ أشـخاص، يحضـرون كل ربـع سـاعةٍ ابتـداءً مـن السـاعة السادسـة صباحًـا، بحيـث يكتمـل العـدد فـي موعـد افتتـاح المؤتمـر، أي حوالـي السـاعة الحاديـة عشـرة.

وبعـد انتهـاء وصـول الحضـور، تـم جمـع الهواتـف النقالـة مـن الجميـع وإغـلاق الأبـواب والنوافـذ وإنـزال السـتائر، ومنـع دخـول أو خـروج أيٍّ كان بشـكلٍ نهائـي.

(٧) تـوتُّـرٌ انـتـخابـيٌّ مُـبـكر

افتُتِـحَ المؤتمـر مـن قِبَـلِ أكبرنـا سـنًّا السـيد عبـد الحميـد درويـش، حسـب المـادة (١٥) مـن اللائحـة الداخليـة للمجلـس الوطنـي، وبعـد انتهـاء جلسـة الافتتـاح، توجَّـب علـى المؤتمِـرين انتخـابُ هيئـةِ رئاسـةٍ للمجلـس حسـب برنامـج المؤتمـر، والتـي كان لهـا حكايـة خاصَّـة، حيـث لعبـتْ مجموعـةٌ مـن الصُّـدف والتنـازلات الشـخصية والتوافقيـة دورَهـا فـي إنجـاز هـذه المهمـة، وتـم إنقـاذ المؤتمـر مـن إربـاكاتٍ سياسـية وتنظيميـة كانـت لا بـد حاصلـة، حيـث بـدا أنَّ ريـاض التـرك وحسـن عبـد العظيـم همـا المُرشَّـحان الوحيـدان لمنصـب الرئاسـة، وكنـت أعتقـد مـع أعضـاء كثيريـن بـأنَّ فـوز أحدهمـا سـوف يُسـبِّب شـرخًا فـي بنيـة المجلـس لتعـذُّر التوافـق بينهمـا، ويُؤثِّـر سـلبًا علـى

مجريات المؤتمر ومناخ الحوار، ما دام وصول أحدهما للرئاسة لن يُرضي الآخر.

وهنا واجهتنا مسألة إيجاد مُرشَّحٍ توافقيٍّ لرئاسة المجلس الوطني، وكنت قد تمنَّيتُ مسبقًا على الدكتورة فداء الحوراني أن تُرشِّح نفسها للرئاسة لما تملكه من ميزات شخصية وأخلاقية يجعلها مقبولةً من غالبية الأعضاء، لكنها اعتذرتْ لأسبابٍ عديدة، منها أنها تُدير مشفًى كبيرًا مع عدد من الشركاء، وقد بدأوا بتَوسعته ويتطلَّب هذا منها كل وقتها وجهدها ما دامت هي مَن يتحمل المسئولية عن أيِّ ضررٍ قد يُصيب المشفى، ومنها احتمال أن ينعكس هذا الأمر بإبعاد زوجها خارج سورية كإجراءٍ عقابيٍّ لها كونه فلسطينيًّا من غزة، ومنها خوفها على أذى قد يتعرَّض له ابنها الوحيد لقاء ذلك. كما عرضتُ على أكرم البني أن يترشَّح لأمانة السر فاعتذر لأسبابٍ شخصية مُقنعة، لكنَّ الصُّدفة والمفاجأة كانت في يوم الاجتماع.

وبينما كنت أتمنَّى على عبد الغني عياش وعبد الحميد درويش أن يكونا مُرشَّحَين احتياطِيَّين للرئاسة وعبد العزيز الخير كنائبٍ للرئيس، وأُعيدُ محاولة إقناع أكرم البني بالترشُّح لأمانة السر بعدما اعتذر مرارًا عن القبول ــ حضرتِ السيدة فداء فأخبرتُها بأننا لا نزال نُواجه مشكلةَ اختيار مُرشَّحٍ توافقيٍّ للرئاسة، وتمنيتُ عليها مجددًا القبول بالترشح لهذا الموقع، وعندها اقترح أكرم أن تقبل السيدة فداء الترشح للرئاسة لـيَقبل هو الترشح لأمانة السر، ففكَّرتْ مَلِيًّا بهذا الاقتراح، ثم قالت توكلنا على الله.

بعد هذا التوافق والذي كان مخرجًا للجميع، وبالتزكية أصبحتِ السيدة فداء حوراني رئيسةً للمجلس والسيِّدان عبد الحميد درويش

وعبد العزيز الخير نائبَين لها، وأكرم البني وأحمد طعمة أمينَين للسر. وهنا لابد من ذِكر أنَّ كل ما كانت تتوقَّعُه الدكتورة فداء قد حصل، فقد كلفها قبولها وفوزها برئاسة الإعلان سنتَين ونصف سجن وإغلاق المشفى الذي كانت تُديره، وأيضًا إخراج زوجها من سورية، ولكن لم يَصدر عنها يومًا أيُّ تذمُّرٍ أو ندمٍ على ما حصل أو ملامة لأحد، لتبقى محلَّ احترامِ وتقدير الجميع.

(٨) توتُّرٌ سياسيٌّ في المجلس

وأساسُ هذا التوتر هو الخلاف المُزمن بين أطراف إعلان دمشق في فَهم المسألة الوطنية والموقف من التدخلات الخارجية، سياسيةً كانت أم عسكرية، الأمر الذي تجلَّى في الخلاف والتباين على صياغة فقرةٍ من مشروع البيان الختامي المُقدَّم إلى المؤتمر، والتي جاء فيها:

«هدف عملية التغيير هو إقامة نظامٍ وطنيٍّ ديمقراطي عبر النضال السلمي، يكون كفيلًا بالحفاظ على السيادة الوطنية، وحماية البلاد وسلامتها، واستعادة الجولان من الاحتلال الإسرائيلي. ونحن إذ نُدرِك أنَّ عملية التغيير هذه تهدف أيضًا للحفاظ على الاستقلال الوطني وحمايته، فإنها تُحصِّن البلاد من خطر العدوان الصهيوني والتدخُّل العسكري الخارجي وتقف حاجزًا مانعًا أمام مشاريع الهيمنة والاحتلال وسياسات الحِصار الاقتصادي وما تُفرزه من تأثيرٍ على حياة المواطنين ومن توتُّراتٍ وانقسامات خطيرة. وبما أنَّ هذا الموقف لا يتناقض مع فهمنا لكون العالم أصبح أكثر تداخلًا وانفتاحًا، فينبغي

ألا نتـردَّد فـي طلـب التأييـد مـن القـوى الديمقراطيـة والمنظمـات الدوليـة والحقوقيـة فيمـا يخـص قضيتنـا فـي الحريـة والديمقراطيـة، وخصوصًـا فـي المسـائل المتعلقـة بحقـوق الإنسـان». توقَّـف حِزبـا الاتحـاد الاشـتراكي والعمل الشـيوعي عنـد هـذه الفقـرة وطالبـا باسـتبدال عبـارة «خطر العـدوان الصهيونـي والتدخُّـل العسـكري الخارجـي» بـعبارة «الوقـوف ضـدَّ مشـروع الهيمنـة الأمريكي/الصهيونـي» لكنهـا لـم تنـلْ أصواتًـا كافيـة، فحـاولَا التخفيـف منهـا بعبـارة «رفـض المشـروع الأمريكي/الصهيونـي» فلـم تنجـح أيضًـا، وتقـدَّم أحـد الأعضـاء باقـتراحٍ وسـطيٍّ هـو «فإنهـا تُحصِّـن البـلاد مـن خطـر المشـروع الصهيونـي المدعـومِ مـن الإدارات الأمريكيـة، والتدخـل العسـكري الخارجـي» وفـاز بأغلبيـة الأصـوات.

استـطاع المؤتمِـرون فـي النهايـة تجـاوزَ هـذا التوتُّـر السياسـي، وتـمَّ إقـرار ٤ وثائـق وهـي: (١) البيـان الختامـي للمجلـس الوطنـي لإعـلان دمشـق[١٢]، (٢) تقرير مكتب الأمانة حول نشـاطات الفتـرة المُنصرِمة[١٣]، (٣) البنية التنظيمية[١٤]، (٤) اللائحة الداخلية.[١٥]

---

(١٢) البيان الختامي للمجلس الوطني لإعلان دمشق.
https://bit.ly/2ZZgtds

(١٣) تقريرٌ حول نشاطات المرحلة المُنـصرمة.
https://bit.ly/2RLC5ps

(١٤) وثيـقة البنية التنظيمية لإعلان دمشق.
https://bit.ly/2ZXgnmE

(١٥) نص اللائحة الداخلية لإعلان دمشق.
https://bit.ly/2FUe7Wx

(٩) انـتـخابات الأمـانة العامَّة

(أ) آلِـيَّة الترشُّـح: تقـدَّم لانتخابـات مكتـب الأمانـة العامـة ٢٢ مُرشَّـحًا مـن مختلـف التيـارات، واتفقنـا علـى أن يُرشِّـح كل حـزبٍ شـخصًا واحـدًا، لإفسـاح المجـال لأكبـر عـددٍ ممكـنٍ لتمثيـل مختلـف الأحـزاب، وكذلـك لإعطـاء فرصـةٍ للمسـتقلين والقـوى المدنيـة أيضًـا، فتـم ترشـيح ريـاض التـرك عـن حزب الشـعب، وعبـد المجيـد منجونة عـن الاتحاد الاشـتراكي، ورشَّـحتْ نفسـها نـدى الخـش، وهـي مـن الاتحـاد الاشـتراكي أيضًـا، ولـم يعتـرِض أيٌّ مـن المشـاركين فـي المجلـس لا أحزابًـا ولا مسـتقلين علـى هـذا الترشُّـح لضـرورة وجـود سـيدةٍ فـي الأمانـة العامـة. وقبـل إقفـال بـاب الترشـيح طلَـب حسـن عبـد العظيـم ترشـيح نفسـه، خلافًـا لمـا تـم الاتفـاق عليـه. حاولنـا بالحـوار الـودِّي والعقلانـي ثَـنـيَه عـن ذلـك أو أن يتفـق حـزب الاتحـاد الاشـتراكي علـى مُرشَّـحٍ واحـدٍ كائنًـا مَـن يكـون، ولكنـه أصـرَّ علـى ترشـيح نفسـه إلـى جانـب مرشـح الحـزب الأساسـي عبـد المجيـد منجونـة، مُخِـلًّا بالاتفـاق السـابق، ليُصبـح لـدى الاتحـاد الاشـتراكي ثلاثـة مرشـحين بـدل الواحـد، ممَّـا أشـاع امتعاضًـا وتوتـرًا بيـن المؤتمريـن، وعكَّـر الأجـواء بعـد أن كان الجميـع يشـعر بالرضـى عمَّـا جـرى، وبأننـا حقَّقنـا إنجـازًا وطنيًّـا مهمًّـا.

(ب) آلِـيَّة الانـتـــخاب: طُبعـتْ أوراقٌ بأسـماء المرشـحين الـ ٢٣، وبعـد مـداولاتٍ حُـرَّة، طلبـتْ رئاسـة المجلـس شـطبَ الأسـماء التـي تزيـد عـن الـ ١٤ اسـمًا، حيـث تـم اسـتثناء مرشـحَين عـن الأكـراد وثالـث عـن الآشـوريين مـن الانتخـاب، وتُـرِكَ لأحزابهـم تسـميتهم لاحقًـا. تـمَّ ضبـط عـددِ الأوراق المُوزَّعـة حسـب عـدد الحضـور، لخـروج أربعـة أعضـاء قبـل الانتخابـات، أحدهـم مصطفـى الجابـري لوفـاة أخيـه.

أشـرفتْ رئاسـة المجلـس وكاتبَـا المحضـر علـى عمليـة الانتخـاب. تـمَّ

الفـرز العلنـي للأصـوات أمـام جميع أعضـاء المجلـس، وبحضـور مندوبين عـن أطـراف الإعـلان، ودُقِّــقتِ النتائـج وعـدد الأصوات لـكلِّ مرشــح. بلَغ عـدد الأوراق المُعرَّفـة ١٥٠ وعـدد أوراق التصويت الصحيحـة ١٤٩، وورقة واحـدة فقـط باطلـة. تـمَّ مراقبـة الانتخابـات والفـرز مـن قِبَـلِ عـددٍ مـن المسـتقلين وأعضـاء مـن منظمـات حقـوق الإنسـان المشـاركين فـي أعمـال المجلـس الوطنـي. وكانـت نتائـج التصويـت علـى مقاعـد الأمانـة العامَّـة حسـب تسلسـل الأصـوات كالتالـي:

التسلسل	الاسـم	عـدد الأصوات	الانـتـماء الحزبي
١	رياض سيف	١٣٢	مستقل
٢	علي العبد الله	١٣٠	لجان إحياء المجتمع المدني
٣	نواف البشير	١٢٦	حزب المستـقبل
٤	رياض الترك	١٢٥	حزب الشعب الديمقراطي
٥	موفق نيربية	١٢٤	مستقل
٦	سمير نشار	١١٧	الوطنـيُّون الأحرار/مستـقل
٧	سليمان الشمر	١١٤	حزب العمال الثوري
٨	ياسر العيتي	١٠٦	إسلامي ديمقراطي
٩	جبر الشوفي	١٠٢	مستقل
١٠	ندى الخش	٩١	حزب الاتحاد الاشتـراكي
١١	عبد الغني عياش	٨٥	حزب الاشتـراكـيين العرب
١٢	وليد البني	٨٤	مستقل/معتـقل ربـيع دمشق
١٣	عبد الكريم الضحاك	٨٠	حزب البعث العربي الديمقراطي
١٤	غسان نجار	٨٠	إسلامي مستقل/معتـقل نِـقابي
١٥	رضوان قضماني	٧٩	مستقل
١٦	حسن عبد العظيم	٧٨	حزب الاتحاد الاشتراكي
١٧	نصر سعيد	٦٢	مستقل/معتـقل حزب العمل

١٨	عبد المجيد منجونة	٥٦	حزب الاتحاد الاشتراكي
١٩	فواز تللو	٥٤	مستقل/معتـقل ربيع دمشق
٢٠	صفوان عكاش	٥٢	حزب العمل الشيوعي
٢١	إسماعيل الحامض	٤٢	مستقل
٢٢	كمال مويل	٢٨	مستقل
٢٣	خلف جربوع	١٨	مستقل/معتـقل حزب الشعب

تـمَّ إعـلان أسـماء أعضاء الأمانـة العامَّـة الجديدة لإعـلان دمشـق والمُكوَّنة مـن ١٤ عضـوًا الذيـن حصلـوا علـى أعلـى الأصـوات، وهـم: ريـاض سـيف، علـي العبـد اللـه، نـوّاف البشـير، ريـاض التـرك، موفـق نيريبـة، سـليمان شـمر، سـمير نشـار، ياسـر العيتـي، جبـر الشـوفي، نـدى الخـش، عبـد الغنـي عيـاش، وليـد البنـي، غسـان نجـار، عبـد الكريـم الضحـاك، وعضوان أحدهمـا مـن الجبهـة الديمقراطيـة الكرديـة، والثانـي مـن التحالـف الديمقراطـي الكـردي، وثالـث مـن المنظمـة الآثوريـة الديمقراطيـة، ليُصبـح عـددُ أعضـاء الأمانـة العامـة ١٧ عضـوًا، ثـم بـادرتِ الأمانـة العامَّـة الجديـدة إلـى انتخـاب هيئتـها الرئاسـية المُكوَّنـة مـن خمسـة أعضـاء، وهـم: ريـاض سـيف، ريـاض التـرك، نـواف البشـير، أميـن عبـدي، علـي العبـد اللـه. وانتخـبتْ هيئـة الرئاسـة ريـاض سـيف رئيسًـا لهـا.

وفـي مجـرى العمليـة الانتخابيـة، تابـعَ حسـن عبـد العظيـم وعبـد المجيـد منجونـة عمليـةَ فـرز الأصـوات، وعندمـا ظهـرت النتائـج، تفاجئَـا بعـدم حصولهمـا علـى مـا يكفـي مـن الأصـوات، فأعلنَـا مباشـرةً بـأنَّ هنـاك مؤامـرة قـد حِيكَـتْ ضدهمـا لإبعادهمـا عـن الأمانـة العامَّـة، فعـرَض الدكتـور رضـوان قضمانـي الانسـحاب لصالـح حسـن عبـد العظيـم إلَّا أنَّ الأخيـر رفَـض.

إنَّ الخطأ التنظيمي الذي ارتكبه حزب الاتحاد الاشتراكي بتقديم ثلاثة مرشحين وعدم الالتزام بمُرشَّحٍ واحد تبعًا للاتفاق، أدَّى إلى تشتيت أصواتهم وتوزيعها بين عبد المجيد منجونة وحسن عبد العظيم، والتي لو مُنِحَتْ لمرشحٍ واحدٍ لكان حَظِيَ بأغلبيةٍ مريحة، فخسرا كلاهما.

ويؤكد ذلك جدول النتائج إذ إنَّ أصوات الاتحاد الاشتراكي التي حصل عليها عبد العظيم ومنجونة مُجتمعة (٧٨+٥٦= ١٣٤) صوتًا، وهي تزيد عن الأصوات التي حصل عليها حزب الشعب (١٢٥) صوتًا أو رياض سيف (١٣٢) صوتًا أو أي من المرشحين الآخرين، هذا دون حساب أصوات ندى الخش (٩١) صوتًا، ما يَعني أنَّ ما أشاعه حزب الاتحاد الاشتراكي عن وجود اتفاقٍ مُسبَقٍ لإقصاء مُرشحيه هو تضليل وربما تمهيد وتغطية لعملية انسحابه من الإعلان.

وهنا لا أعتقد شخصيًّا أنَّ لرياض الترك أو لغيره، كما حاول البعض أن يغمِز، دورًا في خسارة الاتحاد الاشتراكي مقعده في الأمانة العامة، فرياض الترك، كما عرفتُه ولمستُ من مواقفه، بأنه كان حريصًا على أن تكون الأحزاب كلها ممثَّلةً في الأمانة العامة، بل وكان مقتنعًا بأنه لا يجوز إقصاء أيٍّ من الأحزاب الفاعلة.

وأيضًا لم يكن لغالبية المستقلين الديمقراطيين والليبراليين مصلحةً خاصَّةً للنَّيل من حضور الاتحاد الاشتراكي أو أي حزبٍ آخر أو لتغليب طرف على طرف، فالهمُّ المُتعلِّقُ بوحدة المعارضة الديمقراطية كان ظاهرًا وطاغيًا عند الجميع.

أما بخصوص تمثيل الإخوان المسلمين، فلم يكن لهم أي مندوبٍ في هيئات الإعلان، ولكن، كان هناك إسلاميون مُعتدِلون، أو سُمُّوا

بالإسـلاميين الديمقراطييـن، يُمثِّـلهم الدكتـور ياسـر العيتـي وريـاض درار وأحمـد الرمـح وأحمـد طعمـة الـذي انتُخِـبَ أحـد أمينَـيِ السـر، كمـا تقـدم، والـذي أبـدى نشـاطًا ملحوظًـا فـي تلـك الآونـة، وكان بعـض السـفراء الأجانـب، الذيـن نلتـقيـهم بحضـوره، يُبـدون ارتياحًـا لوجـوده وآرائـه المعتدلـة.

أمَّـا فيمـا يتعلَّـق بالالتباسـات التـي أُثيـرتْ حـول توسـيع الإعـلان وآلِيـات ذلـك، فـإنَّ الجميـع بـات يعـرف بـأنَّ هيئـات الإعـلان الشـرعية هـي مَـن أجـرى التوسـعة، بقـرارٍ مـن المجلـس الوطنـي المُصغَّـر الأول فـي ٢٦ حزيران/يونيـو ٢٠٠٦ والـذي تـم تأكيـده فـي المجلـس التأسيسـي فـي ٢٤ شـباط/فبراير ٢٠٠٧. ووافـق المجلـس الوطنـي المُصغَّـر الثانـي فـي ١٦ حزيران/يونيـو ٢٠٠٧ علـى القسـم الأكبـر مـن الأعضـاء المشـاركين فـي المجلـس الوطنـي، وفـوَّض الأمانـةَ العامـة بالمُصادقـة علـى مندوبـي لجـان المحافظـات التـي لـم تَستكـمِل مرشـحيها، بالإضافـة إلـى قائمـة اسـتدراكٍ محـدودة وفـق المُحـدَّدات الموضوعـة بالتوافـق.

ملاحق الفصل الثالث

بيضاء في الأصل

جدول أسماء مندوبي اللجان المستـقلين في محافظات الحسكة، وإدلب، ودرعا، والسويداء، وحماة، ودير الزور، وحلب

لجنة محافظة الحسكة

الرقم	الاسم	الانـتـماء السياسي	الرقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	محمد إسماعيل	الجبهة الكردية	٣	ممتاز الحسن	مستقل
٢	غابرييل كورية موشيه	المنظمة الآثورية الديمقراطية	٤	فرحان جعفر	مستقل

لجنة محافظة إدلب

الرقم	الاسم	الانتماء السياسي	الرقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	منهل باريش	مستقل	٣	إبراهيم هلال	مستقل
٢	علي غبشة	الاتحاد الاشتـراكي	٤	محمد خالدي	مستقل

لجنة محافظة درعا

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	خلف الزرزور	مستقل	٤	علي الجهماني	مستقل
٢	توفيق جوابرة	حزب الشعب	٥	علي أبا زيد	مستقل
٣	محمد جبر المسالمة	الاتحاد الاشتراكي	٦	موسى أبو نبوت	الاتحاد الاشتراكي

لجنة محافظة السويداء

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	ريما فليحان	مستقلة	٣	سلامة مراد	مستقل
٢	عصام خداج	الاتحاد الاشتراكي	٤	هيثم صعب	مستقل

لجنة محافظة حماة

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	اليان كلاس	الاشتـراكيون العرب	٤	عدنان الهيبة	مستقل
٢	محمود محفوض	حزب الشعب	٥	علي دبيات	مستقل
٣	مروان الخطيب	الاتحاد الاشتراكي			

لجنة محافظة دير الزور

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	عبد القهار سراي	حزب العمل	٣	يوسف ديب	مستقل
٢	زكي خرابا	الاتحاد الاشتراكي	٤	فوزي حمادة	حزب الشعب

لجنة محافظة حلب

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	حازم عجاج أقرعي	مستقل	٧	محمود نجار	مستقل
٢	علي الشريف	مستقل	٨	فراس يونس	مستقل
٣	نجيب ددم	الاتحاد الاشتراكي	٩	عبد الغني بكري	مستقل
٤	فارس ايغو	مستقل	١٠	أسامة عاشور	مستقل/ الوطنيون الأحرار
٥	فؤاد إيليا	حزب الشعب الديمقراطي	١١	حسن قاسم	مستقل
٦	محمد ديب كور	حزب العمال الثوري	١٢	عبد الجواد صالح	مستقل

أسماء مُمثِّلي الأحزاب في المجلس المُوسَّع

الرقم	اسم الحزب	أسماء مُمثِّـلي الحزب
١	حزب الاتحاد الاشتراكي	(١) حسن عبد العظيم (٢) لم يُحدَّد عند إعداد هذه اللائحة

٢	حركة الاشتراكيِّين العرب	(١) عبد الغني عياش (٢) منير بيطار
٣	حزب الشعب	(١) رياض الترك (٢) طلال أبو دان
٤	حزب العمال	(١) عبد الغني عياش (٢) منير بيطار
٥	حزب العمل الشيوعي	(١) فاتح جاموس (٢) صفوان عكاش
٦	حزب المستقبل	(١) نواف البشير (٢) سمير الدخيل
٧	المنظمة الآثورية	(١) بشير السعدي (٢) ملك يعقوب
٨	الجبهة الكردية	(١) عبد الحكيم بشار (٢) أمين شيخ عبدي (٣) عزيز داوود (٤) طاهر صفوك
٩	التحالف الكردي	(١) إسماعيل عمر (٢) محيي الدين شيخ آلي (٣) محمد موسى (٤) عبد الحميد درويش (٥) نصر الدين إبراهيم

أسماء الشخصيات الوطنية التي تمت الموافقة على عضويتها
في المجلس الوطني لإعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي
خلال اجتماع ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٧

الرقم	الاسم	المكان والصفة	الرقم	الاسم	المكان والصفة
١	أحمد صياصنة	درعا، عالم دين	٣٩	أمل موسى باشا	دمشق، مهندسة
٢	مصطفى أبا زيد	درعا، طبيب	٤٠	مها جربوع	دمشق، مهندسة
٣	محمد العمار	درعا، طبيب إسلامي	٤١	إحسان طالب	دمشق، مهندس
٤	يوسف قداح	درعا	٤٢	أصلان عبد الكريم	دمشق، مدرس سابق
٥	عمر شعبان	حلب، أعمال حرة	٤٣	منير الخطيب	دمشق، مهندس
٦	محمد منان أبو آزاد	حلب، مستقل	٤٤	نصوح إسماعيل	دمشق، مهندس
٧	مصطفى الجابري	حلب، مزارع	٤٥	حسام جزماتي	دمشق، موظف
٨	مصطفى كيالي	حلب، طبيب أسنان	٤٦	يوسف جهماني	دمشق، ناشر
٩	إحسان شوكت	حلب/عفرين، طبيب بيطري	٤٧	محمد برو	دمشق، إسلامي ليبرالي
١٠	عبد الرحمن خليل	حلب، محامي	٤٨	جاد الكريم جباعي	دمشق، كاتب
١١	خالد محمد	حلب، محامي	٤٩	ياسين الحاج صالح	دمشق، كاتب
١٢	محمد عطو	حلب/عين عرب، طبيب	٥٠	وليد البني	دمشق، طبيب

١٣	محمد صالح حسن	حلب، محامي	٥١	عمر أميرالاي	دمشق، مخرج
١٤	محمود بريمو	حلب، مستقل/ إسلامي	٥٢	خالد تاجا	دمشق، ممثل
١٥	محمود هاشم	حلب، مستقل/ إسلامي	٥٣	نائلة الأطرش	دمشق، مخرجة
١٦	سلام عوض	حلب	٥٤	محمد ملص	دمشق، مخرج
١٧	حسين إبراهيم باشا	حلب، رجل أعمال	٥٥	فواز تللو	دمشق، مهندس
١٨	غازي قدور	حلب، مدرس	٥٦	عبد الرحمن الحاج	دمشق، كاتب
١٩	عبد الإله إبراهيم باشا	الحسكة، مستقل	٥٧	حبيب إبراهيم	دمشق، مستقل
٢٠	طانيوس إيو	الحسكة، رجل أعمال	٥٨	مروان العش	دمشق، مهندس
٢١	موسى سينو	الحسكة، شيخ عشيرة	٥٩	أكرم البني	دمشق، كاتب
٢٢	رشيد بدران	الحسكة، شيخ عشيرة	٦٠	هيثم الحموي	معيد في جامعة دمشق
٢٣	عبد الكريم عمر	الحسكة، صيدلي	٦١	ياسر العيتي	دمشق، طبيب
٢٤	محمود صبري	الحسكة، شاعر	٦٢	عدنان مكية	دمشق، كاتب
٢٥	أكرم الملا	الحسكة، صحفي	٦٣	حميد مرعي	دمشق، اقتصادي
٢٦	محمد معو	الحسكة	٦٤	وفاء لحام	دمشق، ناشطة
٢٧	معروف عازر	الحسكة	٦٥	سميرة خليل	دمشق، ناشطة

٢٨	كرم دولة	الحسكة، مهندس، المنظمة الآثورية	٦٦	جوزيف اللحام	دمشق، محامي
٢٩	محمد محفوض	حمص، مهندس	٦٧	سلمان حمادة	دمشق، مستقل
٣٠	موفق نيربية	حمص، مهندس	٦٨	عادل أتاسي	دمشق، مهندس
٣١	نجاتي طيارة	حمص، كاتب	٦٩	جمانة سيف	دمشق، حقوقية
٣٢	مخلص شقرا	حماة، مدرس	٧٠	إسماعيل الحامض	الرقة، طبيب
٣٣	جاد الله الشوفي	السويداء	٧١	عبد الله خليل	الرقة، محامي
٣٤	عمر السعدي	السويداء	٧٢	محمد علي تمو	الرقة، طبيب
٣٥	حمد شيخ الجيلات	دير الزور، مهندس	٧٣	بليخ الطحري	الرقة، شيخ عشيرة
٣٦	طارق ملا حويش	دير الزور، محامي	٧٤	منذر حلوم	اللاذقية، مهندس
٣٧	منير شحود	دير عطية، أستاذ جامعي	٧٥	كامل عباس	اللاذقية، كاتب
٣٨	محمد جمعة قوبان	طرطوس			

أسماء المرشحين من مجالس المحافظات ومجلس دمشق

الرقم	الاسم	الانتماء السياسي	الرقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	شيخ داوود	التحالف الديمقرطي الكردي	١٠	سمير إلياس	مستقل
٢	مروان عقيل	الجبهة الديمقراطية الكردية	١١	صبحي قزمة	مستقل
٣	أبو خالد سليمات	الاتحاد الاشتراكي	١٢	جهاد نشواتي	مستقل
٤	عاصم قبطان	الاتحاد الاشتراكي	١٣	بسام الملك	مستقل
٥	مازن عدي	حزب الشعب الديمقراطي	١٤	منير الفقير	مستقل
٦	بسام سفر	حزب العمل الشيوعي	١٥	رياض حسام الدين	مستقل
٧	معاذ حمور	لجان المجتمع المدني	١٦	جهاد مسوتي	مستقل
٨	كمال مويل	مستقل	١٧	أسامة محمد	مستقل
٩	عادل الخوص	مستقل			

أسماء مُمثِّلي لجنة حمص في المجلس

الرقم	الاسم	الانتماء السياسي	الرقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	ياسر ملحم	مستقل، حزب العمل سابقًا	٤	هاني السباعي	مستقل
٢	محمود عاد	حزب الشعب	٥	صفوان طيفور	مستقل
٣	فيصل غزاوي	الاتحاد الاشتراكي			

أسماء مُمثِّلي لجنتي طرطوس واللاذقية

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	عبد القادر النابلسي	حزب العمل	٣	محمود إبراهيم	مستقل
٢	خالد المصري	حزب الشعب	٤	بشور سركيس	مستقل

أسماء مُمثِّلي لجنة اللاذقية

رقم	الاسم	الانتماء السياسي	رقم	الاسم	الانتماء السياسي
١	أحمد دريوسي	حزب العمل	٤	نصر سعيد	مستقل
٢	علي بركات	حزب الشعب	٥	وائل معروف	حزب العمال الثوري
٣	مصطفى زغلوط	الاتحاد الاشتراكي			

أسماء الشخصيات التي تمت الموافقة على ضمها

رقم	الاسم	المكان والصفة	رقم	الاسم	المكان والصفة
١	إبراهيم الباشا	كردي، مستقل	١١	أبية حمزاوي	دمشق، مستقلة
٢	ميديا محمود	كردية، مستقلة	١٢	عدنان محفوض	طرطوس، مستقل
٣	علي الجزيري	كردي، مستقل	١٣	بكر صدقي فهمي	حلب، مترجم
٤	محمد نوح	مستقل، الرقة	١٤	رديف مصطفى	حلب، جبهة
٥	عبد الله ماضي	مستقل، دير الزور	١٥	بشير ملا راشد	دير الزور

٦	نبيل أبو سعد	مستقل	١٦	راشد الصطوف	الرقة
٧	جبر الشوفي	السويداء، مستقل	١٧	عصام دمشقي	دمشق، مستقل
٨	غالب عامر	السويداء، الاتحاد الاشتراكي	١٨	زهير البوش	الحسكة، مستقل
٩	عبد العزيز الخير	اللاذقية، مستقل	١٩	غبرو تازا	القامشلي
١٠	نقولا غنوم	إدلب، مستقل			

جدول مالي عن واردات ومصـروفات إعلان دمشق

واردات ومصروفات عـــــــــام ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ بالليرات السورية						
الشهر	مصاريف عام ٢٠٠٦	مصاريف عام ٢٠٠٧	مجموع المصاريف ٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨	واردات عام ٢٠٠٦	واردات عام ٢٠٠٧	مجموع الواردات ٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨
كانون الثاني/ يناير		١١٢٧٨٠			١٧٣٥٠٠	
شباط/فبراير		١٠١٠٠٠			١٤٨٥٠٠	
آذار/مارس		٢٠٠٠٠٠			١٦٦٥٠٠	
نيسان/أبريل		١٣٩٠٠٠			١٦٢٥٠٠	
أيار/مايو		١٣٨٠٠٠			١٧٠٥٠٠	
حزيران/يونيو		١٠٩٥٠٠			١٥١٥٠٠	
تموز/يوليو	١٧٠٢٠٠	١٦٠٠٠٠		١٨٠٥٠٠	١٦١٥٠٠	
آب/أغسطس	١٤٠٠٠٠	١٦٣٠٠٠		١٧١٠٠٠	١٤٥٥٠٠	
أيلول/سبتمبر	١١٥٠٠٠	١٥٢٠٠٠		١٧٢٠٠٠	١١٦٥٠٠	

تشـرين الأول/ أكتوبر	١٠١٣٠٠	١٧١٠٠٠		١٧٤٠٠٠	١٠٠٥٠٠	
تشـرين الثاني/نوفمبر	٩٣٠٠٠	١١٧٠٠٠		١٦٣٠٠٠	٤٠٠٠٠	
كانون الأول/ ديسمبر	١٢٠٥٠٠	٢٢٨٠٠٠		١٧٥٠٠٠	١٥٠٠٠	
المجموع	٧٤٠٠٠٠	١٧٩١٢٨٠	٢٥٣١٢٨٠	١٠٣٥٥٠٠	١٥٥٢٠٠٠	٢٥٨٧٥٠٠
رصيد الصندوق						٥٦,٢٢٠

أسماء المرشحين لحضور المجلس الوطني لإعلان دمشق

الرقم	الاسم	مكان الولادة	العمل	مندوب محافظة	الصفة الوطنية
١	غابريـيل كورية موشيه	الحسكة			المنظمة الآثورية الديمقراطية
٢	ممتاز الحسن	الحسكة			مستقل
٣	فرحان جعفر	الحسكة			مستقل
٤	محمد إسماعيل	الحسكة			الجبهة الكردية
٥	منهل باريش	إدلب			مستقل
٦	إبراهيم هلال	إدلب			مستقل
٧	علي غبشة	إدلب			الاتحاد الاشتراكي
٨	محمد خالدي	إدلب			مستقل
٩	خلف الزرزور	درعا			مستقل
١٠	علي الجهماني	درعا			مستقل
١١	علي أبا زيد	درعا			مستقل
١٢	محمد جبر المسالمة	درعا			الاتحاد الاشتراكي
١٣	موسى أبو نبوت	درعا			الاتحاد الاشتراكي
١٤	توفيق جوابرة	درعا			حزب الشعب الديمقراطي
١٥	سلامة مراد	السويداء			مستقل

١٦	هيثم صعب	السويداء			مستقل
١٧	ريما فليحان	السويداء			مستقل
١٨	عصام خداج	السويداء			الاتحاد الاشتراكي
١٩	مروان الخطيب	حماة			حركة الاشتراكيين العرب
٢٠	إليان كلاس	حماة			مستقل
٢١	علي دبيات	حماة			مستقل
٢٢	عدنان الهيبة	حماة			حزب الشعب الديمقراطي
٢٣	محمود محفوض	حماة			حزب العمل
٢٤	زكي خرابا	دير الزور			الاتحاد الاشتراكي
٢٥	يوسف ديب	دير الزور			مستقل
٢٦	فوزي حمادة	دير الزور			حزب الشعب الديمقراطي
٢٧	عبد القهار سراي	دير الزور			حزب العمل
٢٨	حازم عجاج اقرعي	حلب			مستقل
٢٩	علي الشريف	حلب			مستقل
٣٠	عبد الجواد صالح	حلب			مستقل
٣١	حسن قاسم	حلب			مستقل
٣٢	محمود نجار	حلب			
٣٣	فراس يونس	حلب			

٣٤	عبد الغني بكري	حلب			
٣٥	نجيب ددم	حلب			الاتحاد الاشتراكي
٣٦	أسامة عاشور	حلب			حزب الوطنيِّين الأحرار
٣٧	محمد ديب كور	حلب			العمال الثوري
٣٨	فارس إيغو	حلب			مستقل
٣٩	فؤاد إيليا	حلب			حزب الشعب الديمقراطي
٤٠	بير رستم	حلب			الجبهة الديمقراطية الكردية
٤١	شيخ داوود خليل	دمشق			التحالف الديمقرطي الكردي
٤٢	مروان عقيل	دمشق			الجبهة الديمقراطية الكردية
٤٣	أبو خالد سليمان	دمشق			الاتحاد الاشتراكي
٤٤	عاصم قبطان	دمشق			الاتحاد الاشتراكي
٤٥	مازن عدي	دمشق			حزب الشعب الديمقراطي
٤٦	بسام سفر	دمشق			حزب العمل الشيوعي
٤٧	معاز حمور	دمشق			لجان المجتمع المدني
٤٨	كمال مول	دمشق			مستقل
٤٩	عادل الخوس	دمشق			مستقل
٥٠	سمير إلياس	دمشق			مستقل
٥١	صبحي قزمة	دمشق			مستقل

٥٢	جهاد نشواتي	دمشق			مستقل
٥٣	بسام الملك	دمشق			مستقل
٥٤	منير الفقير	دمشق			مستقل
٥٥	رياض حسام الدين	دمشق			مستقل
٥٦	جهاد مسوتي	دمشق			مستقل
٥٧	أسامة محمد	دمشق			
٥٨	ياسر ملحم	حمص			حزب العمل سابقًا/مستقل
٥٩	هاني السباعي	حمص			مستقل
٦٠	محمود عاد	حمص			حزب الشعب الديمقراطي
٦١	فيصل غزاوي	حمص			الاتحاد الاشتراكي
٦٢	صفوان طيفور	حمص			مستقل
٦٣	حسن عبد العظيم		مندوب أحزاب		الاتحاد الاشتراكي
٦٤			مندوب أحزاب		الاتحاد الاشتراكي
٦٥	رياض الترك		مندوب أحزاب		حزب الشعب الديمقراطي
٦٦	طلال أبو دان		مندوب أحزاب		حزب الشعب الديمقراطي
٦٧	عبد الحفيظ حافظ		مندوب أحزاب		حزب العمال
٦٨	سليمان الشمر		مندوب أحزاب		حزب العمال

٦٩	عبد الغني عياش		مندوب أحزاب	حركة الاشتراكيين العرب
٧٠	منير بيطار		مندوب أحزاب	حركة الاشتراكيين العرب
٧١	فاتح جاموس		مندوب أحزاب	حزب العمل
٧٢	صفوان عكاش		مندوب أحزاب	حزب العمل
٧٣	نواف البشير		مندوب أحزاب	حزب المستقبل
٧٤	سمير الدخيل		مندوب أحزاب	حزب المستقبل
٧٥	بشير السعدي		مندوب أحزاب	المنظمة الآثورية
٧٦	ملك يعقوب		مندوب أحزاب	المنظمة الآثورية
٧٧	عبد الحكيم بشار		مندوب أحزاب	الجبهة الكردية
٧٨	أمين شيخ عبدي		مندوب أحزاب	الجبهة الكردية
٧٩	عزيز داوود		مندوب أحزاب	الجبهة الكردية
٨٠	طاهر صفوك		مندوب أحزاب	الجبهة الكردية
٨١			مندوب أحزاب	الجبهة الكردية
٨٢			مندوب أحزاب	الجبهة الكردية
٨٣	إسماعيل عمر		مندوب أحزاب	التحالف الكردي

٨٤	محيي الدين شيخ آلي			مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٨٥	محمد موسى			مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٨٦	عبد الحميد درويش			مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٨٧	نصر الدين إبراهيم			مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٨٨				مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٨٩				مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٩٠				مندوب أحزاب	التحالف الكردي
٩١	ميشيل كيلو				أعضاء المجلس السابق
٩٢	نايف قيسية				أعضاء المجلس السابق
٩٣	عبد الكريم الضحاك				أعضاء المجلس السابق
٩٤	فداء حوراني	حماة			أعضاء المجلس السابق
٩٥	أحمد طعمة				أعضاء المجلس السابق
٩٦	غسان النجار				أعضاء المجلس السابق
٩٧	رياض سيف				أعضاء المجلس السابق
٩٨	سهير أتاسي	حمص			أعضاء المجلس السابق

٩٩	زينب نطفجي	دمشق			أعضاء المجلس السابق
١٠٠	طارق أبو الحسن				أعضاء المجلس السابق
١٠١	عبد الرحمن الأحمد				أعضاء المجلس السابق
١٠٢	رضوان قضماني				أعضاء المجلس السابق
١٠٣	عبد المجيد منجونة				أعضاء المجلس السابق
١٠٤	أيمن مراد				أعضاء المجلس السابق
١٠٥	سمير نشار				أعضاء المجلس السابق
١٠٦	ندى الخش	مصياف			أعضاء المجلس السابق
١٠٧	يوسف صياصنة				أعضاء المجلس السابق
١٠٨	عبد الرزاق عيد				أعضاء المجلس السابق
١٠٩	جودت سعيد				أعضاء المجلس السابق
١١٠	محمد خضر				أعضاء المجلس السابق
١١١	فايز سارة				أعضاء المجلس السابق
١١٢	حسين العودات				أعضاء المجلس السابق

١١٣	علي العبد الله				أعضاء المجلس السابق
١١٤	ملاك الحسيني				أعضاء المجلس السابق
١١٥	عارف دليلة			عضو شرف	أعضاء المجلس السابق
١١٦	أحمد صياصنة	درعا	عالم دين		شخصيات وطنية
١١٧	محمد جمعة قوبان	طرطوس			
١١٨	غازي قدور	حلب	مدرس		
١١٩	عمر شعبان	حلب			
١٢٠	ملا موسى باشا	دمشق			
١٢١	إحسان طالب	دمشق			
١٢٢	مها جربوع	دمشق			
١٢٣	حمد شيخ الجيلات	دير الزور			
١٢٤	جاد الله الشوفي	السويداء			
١٢٥	عمر السعدي	السويداء			
١٢٦	منير الخطيب	دمشق			
١٢٧	أصلان عبد الكريم	دمشق	مدرس سابق		
١٢٨	معروف عازر	الحسكة			

١٢٩	طارق ملا حويش	دير الزور			
١٣٠	نصوح إسماعيل	دمشق			
١٣١	مخلص شقرا	حماة	مدرس		
١٣٢	حسام جزماتي	دمشق	موظف		
١٣٣	يوسف جهماني	دمشق	دار نشر		
١٣٤	مصطفى أبا زيد	درعا			
١٣٥	محمد برو	دمشق		إسلامي ليبرالي	
١٣٦	محمد محفوض	حمص		تجمع مستقل	
١٣٧	كرم دولة	الحسكة		المنظمة الآثورية	
١٣٨	جاد الكريم جباعي	دمشق	كاتب		
١٣٩	ياسين الحاج صالح	دمشق	كاتب		
١٤٠	وليد البني	دمشق			
١٤١	عمر أميرالاي	دمشق	مخرج		
١٤٢	موفق نيربية	حمص			
١٤٣	منير شحود	دير عطية	أستاذ جامعي		
١٤٤	كامل عباس	اللاذقية	كاتب		
١٤٥	خالد تاجا	دمشق	ممثل		

١٤٦	نجاتي طيارة	حمص	كاتب		
١٤٧	نائلة الأطرش	دمشق	مخرج		
١٤٨	مروان العش	دمشق			
١٤٩	محمد ملص	دمشق	مخرج		
١٥٠	فواز تللو	دمشق			
١٥١	عبد الرحمن الحاج	دمشق	كاتب		
١٥٢	حبيب إبراهيم	دمشق			مستقل
١٥٣	أكرم البني	دمشق	كاتب		
١٥٤	هيثم الحموي	دمشق	معيد		
١٥٥	محمد منان أبو آزاد	حلب			مستقل
١٥٦	عبد الإله إبراهيم باشا	الحسكة			مستقل
١٥٧	آسـر العيتي	دمشق			
١٥٨	عدنان مكية	دمشق	كاتب		
١٥٩	طانيوس إيو	الحسكة	رجل أعمال		
١٦٠	مصطفى الجابري	حلب			
١٦١	مصطفى كيالي	حلب			
١٦٢	سلمان حمادة	دمشق			مستقل

١٦٣	بليخ الطحري	الرقة	شيخ عشيرة	
١٦٤	إحسان شوكت	حلب/عفرين		
١٦٥	عبد الرحمن خليل	حلب		
١٦٦	محمود صبري	الحسكة	شاعر	
١٦٧	محمد معو	الحسكة		
١٦٨	خالد محمد	حلب		
١٦٩	أكرم الملا	الحسكة	صحفي	
١٧٠	محمد علي تمو	الرقة		
١٧١	محمد عطو	حلب/عين عرب		
١٧٢	عبد الكريم عمر	الحسكة		
١٧٣	محمد صالح حسن	حلب		
١٧٤	موسى سينو	الحسكة	شيخ عشيرة	
١٧٥	رشيد بدران	الحسكة	شيخ عشيرة	
١٧٦	محمود بريمو	حلب		إسلامي
١٧٧	محمود هاشم	حلب		إسلامي
١٧٨	إسماعيل الحامض	الرقة		
١٧٩	حميد مرعي	دمشق	اقتصادي	

١٨٠	وفاء لحام	دمشق			ناشطة
١٨١	سميرة خليل	دمشق			ناشطة
١٨٢	محمد العمار	درعا			إسلامي
١٨٣	سلام عوض	حلب			
١٨٤	حسين إبراهيم باشا	حلب	رجل أعمال		
١٨٥	جوزيف اللحام	دمشق			
١٨٦	عبد الله خليل	الرقة			
١٨٧	عادل أتاسي	دمشق			
١٨٨	منذر حلوم	اللاذقية			
١٨٩	يوسف قداح	درعا			
١٩٠	جمانة سيف	دمشق			
١٩١	عباس عباس (أبو ديما)		كاتب		
١٩٢	علي الجزيري		كاتب		
١٩٣	ميديا محمود				
١٩٤	إبراهيم إبراهيم الباشا				شخصية اجتماعية

١٩٥	فارس الحلو		ممثل		
١٩٦	خالد خليفة				
١٩٧	صادق جلال العظم		مفكر		
١٩٨	ممدوح عزام		أديب		
١٩٩	زياد الفيصل	سليمة			حزب الشعب الديمقراطي
٢٠٠	بكر فهمي صدقي	حلب	مترجم		
٢٠١	عدنان محفوظ				حزب العمل سابقًا

الفصل الرابع

قرارات تجميد النَّشاط بعد المؤتمر وموقف بعض قوى الإعلان

بيضاء في الأصل

(١) المجلس بين الانسحابات والمواقف

بعد أقل من أسبوعٍ على انعقاد المجلس، تفاجأنا بإصدار حزب الاتحاد الاشتراكي وبتاريخ ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ بيان تجميد نشاطه في الإعلان مُدَّعِيًا وجود خلافاتٍ عميقة سياسية ومنهجية مع قوى الإعلان الليبرالية، وحذا حذوه في اليوم التالي حزب العمل الشيوعي وأصدر بيانَ تجميدٍ لنشاطه في الإعلان أيضًا. ثم أعلن هيثم مناع بتاريخ ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ تجميدَ عضويته في إعلان دمشق وأوضح فيه أنَّ هنالك طرفَين داخل إعلان دمشق: الطرف الأول يرى بأنَّ المعركة طويلة وأنَّ التعويل الوحيد هو على الناس، وأنَّ ذلك يتطلَّب عملًا شاقًّا ومُضنِيًا، والطرف الثاني يرى أنَّ أيام النظام باتت معدودة بسبب اغتيال الحريري والمحكمة الدولية، ومدَّ يدَه للخارج ولأمريكا تحديدًا.[١] وفي المقابل، بتاريخ ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ تجاوزتْ ندى الخش قرارَ حزب الاتحاد الاشتراكي وأعلنتْ إيقافَ تجميد نشاطها تضامنًا مع معتقلي المجلس الوطني

(١) وكالة «آكي» الإيطالية للأنباء، دمشق، ٢٧ كانون الأول/ديسمبر. ورَد في العدد ١٢-١٣ من مجلة **مقاربات**، حزيران/يونيو ٢٠٠٨. و**مقاربات** كما تعرف نفسها «مجلة غير دورية مُتخصِّصة بالشأن السوري» تصدر عن «مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية».

عبـر بيـانٍ جـاء فيـه: «لقـد كنـت مـن الناشـطين والمدافعيـن عـن إعـلان دمشـق منـذ اللحظـة الأولـى لصـدوره، ولقـد جمَّـدتُّ مشـاركتي لأسـبابٍ تتعلَّـق بمفهـوم التوافـق وأسـلوب العمـل وإدارتـه، ولـم يكـن هنـاك أي إشـكالٍ حـول الموقـف مـن الإدارة الأمريكيـة، وهـذا الموقـف واضـح فـي البيـان الختامـي للمجلـس الوطنـي. ونظـرًا لاسـتمرار اعتقـال الأخـت والشـريكة والصديقـة د. فـداء الحورانـي مـع بقيـة شـركاء الخـط د. أحمـد طعمـة والأسـتاذ علـي العبـد اللـه والأسـتاذ أكـرم البنـي ووليد البنـي وجبر الشـوفي، فإننـي أُعلِـنُ وقـف تجميـد نشـاطي احتجاجًـا علـى اسـتمرار الاعتقـال، فنحـن جميعًـا فـي خنـدقِ التغييـر الوطنـي الديمقراطـي».[٢]

(٢) موقف حـزب الاتـحاد الاشـتـراكي العـربي

يَعتبـر حسـن عبـد العظيـم[٣] أنَّ تجميـد حـزب الاتحـاد الاشـتراكي وحزب العمـل الشـيوعي لعضويتهمـا فـي الإعـلان بمثابـة «جـرس إنـذارٍ للتنبيـه بضـرورة المراجعـة وتصحيـح الخلَـل فـي أسـاليب العمـل التـي تمارسـها بعـض قـوى وشـخصيات الإعـلان فـي هيئـات الإعـلان ومؤسسـاته، لتمريـر مواقـفَ وقناعـاتٍ خاصَّـةٍ بهـا، دون الإقنـاع والتوافـق علـى الرؤية المشـتركة والسـقف المُشـترَك الـذي يُعبِّـر عـن جميـع القـوى والتيـارات» وأنَّ مـا حصـل فـي المجلـس الوطنـي «كان محاولـة لتغليـب وجهـة نظـرٍ علـى أخـرى فـي الائتـلاف، فثمـة قـوى وشـخصيات فـي التيـار القومـي واليسـاري تـرى أنَّ سـورية تُواجـه تحـدي الاسـتبداد الداخلـي، ومـا تَرَتَّـبَ

(٢) **مقاربات**، العدد ١٢-١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٨، مصدر سبقت الإشارة إليه.

(٣) أجوبـة حسـن عبـد العظيـم ضمـن الملـف الـذي خصصتـه مقاربـات فـي عددهـا المذكـور أعـلاه تحـت عنـوان «نافـذة علـى إعـلان دمشـق ـ الطريـق الصعـب»، إعـداد: حسـيبة عبـد الرحمـن وخَولـة دنيـا، العـدد ١٢ ـ ١٣.

عليه من فسادٍ واحتكار للسلطة وتغييبٍ للحريات ولسيادة القانون والخلل الاجتماعي وتردِّي الأحوال المعيشية واتساع دائرة الفقر ــ كما تُواجِه تحدِّي المشروع الأمريكي الصهيوني، بعد احتلال العراق، وإطلاق العنان للعدوان على الشعب الفلسطيني وعلى لبنان، وتغذية الصراعات الإثنية والطائفية والمذهبية في المنطقة والبناء عليها، إذ ثمة إجماعٌ على ضرورة التغيير الديمقراطي إلَّا أنَّ من الضروري وجود رؤية مشتركة بالتوافق على الموقف من سياسات العدوان والاحتلال في المشروع الوطني».

أمّا على الصعيد التنظيمي، فعند تشكيل المجلس الوطني السابق كان العددُ في حدود ٣٣ شخصًا بمُعدَّل مندوبَين عن كل حزبٍ في التجمع ومندوبَين عن لجان إحياء المجتمع المدني وأربعةٍ مندوبِين عن التحالف الديمقراطي الكردي، والجبهة الديمقراطية الكردية، ومندوبَين عن المنظمة الآثورية، و٧ شخصياتٍ مستقلة وقَّعوا على بيان التأسيس وقد أُضيفَ إليهم بالتوافق حوالي خمس شخصياتٍ أخرى مستقلة كناشطين أو مُمثلين لفعالياتٍ اجتماعية وثقافية. وتمَّ انتخاب لجنة متابعةٍ وتنسيقٍ من ٢٣ شخصًا تضم مُمثلين عن القوى واللجان والشخصيات المستقلة، تتوزَّع على ثلاثة مكاتب هي: مكتب الأمانة والإعلام والعمل الشعبي، وقد تابع مكتب الأمانة دورَه حتى تاريخ انعقاد المجلس الوطني. وقد طرَح البعض فكرة توسيع المجلس الوطني بإضافة شخصياتٍ مستقلة وزيادة الأعضاء، وبالمناقشة والتوافق على أن تكون الزيادة بمُضاعفةِ مُمثلي القوى، وتعديل البنية التنظيمية بحيث تَنتخب لجان الإعلان في المحافظات عددًا من الممثلين يتناسب مع عدد أعضاء اللجنة وفعاليتها، بعد أن كانت الهيكلية التنظيمية السابقة تُحدِّد لكل لجنةٍ ممثلًا واحدًا في المجلس الوطني عدا محافظتَي

دمشق وحلب وريفهما التي يُنْتخب ثلاثة ممثلين لكلٍّ منها. أما بالنسبة لاقتراح البعض إضافة مستقلين للمجلس الوطني مباشرةً بدون انتخاب، فقد تم الاتفاق بِناءً على طلبنا على الأمور التالية:

(أ) تحديد سقفٍ لعددِ أعضاء المجلس الوطني، وتم التوافق على تحديده بين ٧٠ إلى ١٠٠ عضوٍ كحَدٍّ أعلى، على أن يشمل هذا العددُ مجموعَ ممثلي القوى والفعاليات واللجان بعد الزيادة المُقرَّرة وأعضاء المجلس الوطني السابق.

(ب) تحديد معاييرَ مباشرة للمرشح لعضوية المجلس الوطني، بأن يُمثِّل حالةً فكرية وثقافية أو حالة اجتماعية أو نقابية ومن المعروفين لدينا جميعًا، وضربنا أمثلةً على ذلك أمثال برهان غليون وياسين الحاج صالح وجاد الكريم جباعي وطيب تيزيني وأكرم البني، وغيرهم من الناشطين فكريًّا وثقافيًّا، والمهتمين بالشأن العامّ. وقد تم التوافق على هذه المعايير في البنية التنظيمية.

(ج) أن يحصل المرشح على ٣/٢ من أصوات أعضاء المجلس الوطني السابق عند وقوع أيِّ اعتراضٍ عليه، غير أنَّ الممارسة العمَلية من قِبَلِ البعض تجاوزتِ السقف المُحدَّد لمجموع أعضاء المجلس والمعايير المُحدَّدة في البنية التنظيمية، حتى أنَّ أحدَ أعضاء مكتب الأمانة قدَّم جداولَ تضم ترشيح أكثر من ١٠٠ عضوٍ لا تتوفَّر في معظمهم المعايير التي تم الاتفاق عليها، «وقد تمَّ تجاوز السقف وتجاوز المعايير بتكتُّل بعض الأطراف، كما تمَّ تجاوز عملية الانتخاب لمُمثِّلي اللجان في عددٍ من المحافظات كدمشق والحسكة واللاذقية وغيرها، كما تمَّ ترشيح وإضافة جميع أعضاءِ فعاليةٍ ثقافيةٍ مُشاركة في الإعلان، بعد أن كانت تُمثَّل بمندوبين كأيِّ قوى سياسية، بحيث وصَل العدد الفعليُّ إلى حوالي

٢٢٠ عضـوًا. ووجدنـا أنفسـنا أمـام الأمـر الواقع، حيـث أنَّ الاعتــراض عليه وُصِـفَ بمحـاولات الهيمنـة والتعطيـل واسـتخدام حـق الفيتـو، والسـكوت عليـه يعنـي التسـليم بالأمـر الواقـع. وحاولنـا أن نطـرح فـي الاجتمـاع الأخيـر لمكتـب الأمانـة، التوافـقَ علـى آلِيَّـةٍ لعمليـة الانتخـاب يتـم فيهـا التأكيـد مُسـبقًا علـى نسـبةٍ مُحـدَّدةٍ لتمثيـل الأحزاب ونسـبةٍ للمسـتقلين، وآلِيَّـةٍ لتوزيـع المواقـع بيـن الأحـزاب والمسـتـقلين فـي مكتـب المجلـس الوطنـي وفـي الأمانـة العامـة، دون البحـث فـي الأسـماء، بحيـث يتحقَّـق التـوازن والتمثيـل لـكلِّ القـوى والفعالِيـات والمسـتـقلين، ولا يَطغـى أيُّ اتجـاهٍ علـى الآخـر. إلَّا أننـا فُوجئـنا بالرفـض ثـم تبيَّـن لنـا أنَّ ترتيـباتٍ تمَّـتْ مُسـبقًا للإقصـاء وتهميـش الـدور، يُضـاف إلـى ذلـك معيـارٌ هـامٌّ فـي أي مؤتمـرٍ أو مجلـسٍ مُنتـخبٍ ديمقراطيًّـا، وهـو أنَّ نسـبة التَّعـيِـين فيـه لا يجـوز أن تتجـاوز ١٠٪ مـن الأعضـاء المنتخبيـن ديمقراطيًّـا، وهـذا المعيـار لـم يتوفَّـر فـي المجلـس الوطنـي للإعـلان».[٤]

---

(٤) نـقـد إنسان حُـر، صفحات سورية.

http://www.alsafahat.net/blog/?p=1825

أورَد التسـاؤلات التاليـة: لمـاذا لـم تظهـر الاعتــراضات علـى توجهـات التيـار الليبرالـي إلا بعـد هزيمـة البعـض فـي الانتخابـات؟ لمـاذا لـم يتـم تجميـد العضويـة مباشـرة بعـد صياغـة البيـان الختامـي وقُبيـل الانتخابـات؟ لمـاذا لـم يحتـج أولئـك المُنــسحبون علـى صيغـة الانتخابـات قبـل حدوثهـا؟ أم أنَّ الديمقراطيـة جيـدةٌ عندمـا نصـل نحـن إلـى المراكـز القياديـة وتصبـح غيـر مناسـبة عندمـا تكـون نتيجتهـا الهزيمـة؟ إنْ لـم تكـن الانتخابـات هـي الوسـيلة لتحديـد أعضـاء الأمانـة العامـة، فمـا هـي الوسـيلة إذًا؟ لـو كنـا نتحـدث عـن ائتـلافٍ حكومـي بيـن أحـزاب لتحدَّثنـا عـن توافقـات وتعيينـات وليـس انتخابـات، لكـن والحـال ليـس كذلـك، فـلا يوجـد بديـل عـن الانتخابـات، مـع التسـليم أنهـا ليسـت الصيغـة المُثلـى لأنهـا تُسـاوي بيـن رئيـس حـزب وشـخصية مسـتـقلة. لكـن فـي المقابـل لا يمكـن أن نُسـاوي رئيـس حـزبٍ بأكثـر مـن عضـو، لأن كل الأعضـاء يُمثِّـلون جميـع شـرائح المجتمـع ولا نسـتطيع قيـاس مـدى تأييـد المواطنيـن لـكل شـخصية أو تيـار بسـبب امتــناع ذلـك فـي الواقـع السياسـي السـوري.

(٣) موقف حزب العمل الشيوعي[٥]

برَّر حزب العمل تجميدَه لنشاطه في إعلان دمشق بسبب «النَّهج الإقصائي والكواليسي والتشكيك والتهويل الذي انتهجتْه أطراف وقوى داخل إعلان دمشق» وهو ما أشار إليه بلاغ صادر عن اجتماع الهيئة المركزية لحزب العمل الشيوعي، أوائل كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، انتهى إلى استنتاجٍ مفادُه أنَّ «هذا النهج المُنفرِد والاستعلائي قاد في النهاية إلى تغييب التمثيل السياسي والتنظيمي لتيَّارَين: الشيوعي الديمقراطي (حزب العمل) والقومي الديمقراطي (الاتحاد الاشتراكي) في قيادة الإعلان وتوجُّهاته الأساسية».

(٤) موقف حزب الشعب الديمقراطي[٦]

لخَّص رياض الترك الموقفَ السياسي لإعلان دمشق بُعَيدَ المؤتمر الأخير بثلاث نقاطٍ أساسية: أولًا، «الحفاظ على الاستقلال الوطني والتشديد على استعادة الجولان السوري المُحتلّ». ثانيًا، «العمل على إنهاء الاستبداد الذي ساد البلاد لأكثر من ٤٤ عامًا». ثالثًا، «إقامة النظام الوطني الديمقراطي القائم على التغيير الهادئ والسِّلمي والمُتدرِّج للسلطة في سورية، في سبيل الخلاص من الحالات الشاذَّة والأزمات السياسية والاقتصادية الحادَّة، بما فيها بعض الأزمات السياسية الإقليمية». وأضاف:

---

(٥) غياث نعيسة، «اليسار وإشكاليَّات المعارضة السورية»، **الأخبار**، الخميس ٦ آذار/مارس ٢٠٠٨.

https://al-akhbar.com/Opinion/169507

(٦) **زمان الوصل:**

https://www.zamanalwsl.net/news/article/2574

«نحـن جـزءٌ مـن العالـم، ويُهمُّـنا أن يتـفهَّم العالـم واقـع وتطلعـات المعارضـة السـورية، ونسـعى لإيصـال رسـالةٍ للعالَـم بـأنَّ النظـام الاسـتبدادي فـي سـورية ليـس عِبئًـا علـى الشـعب السـوري فقـط وإنمـا هـو عِـبءٌ علـى مُحيطـه العربـي والإقليمـي فـي لبنـان والعـراق وفلسـطين. وربمـا هـذا التوجُّـه دفَـع بعـض رجـالات النظـام لاتِّـهامنا بالمَيـل نحـو الولايـات المتحـدة، ولكـن لا توجـد أي إمكانيـةٍ أن تُحَـلَّ تناقضـات المنطقـة قبـل أن يتـم الخـلاص مـن الأنظمـة الاسـتبدادية فيهـا. أمـا الخـلاص مـن الأنظمـة الاسـتبدادية ومنهـا النظـام السـوري، فـلا يُمكـن أن يتـمَّ إلا مِـن الداخـل، مـن قِبَـلِ السـوريين أنفسـهم».

وبالنسبة لنتائج انتـخابات المجلس الوطني لإعلان دمشق:

«فقـد ارتكـب أعضـاء الاتحـاد الاشتـراكي أخطـاء خـلال المؤتمـر، لقـد كانـوا يريـدون حـق الفيتـو لتعطيـل قـرارات المجلـس، إلا أنَّ المجلـس سـار إلـى نهايته وانتَـخب قياداته بشـكلٍ سـريٍّ وديمقراطـي. حتـى الاتحـاد الاشـتراكي نفسـه شـارَك فـي العمليـة حتـى النهايـة، ولكنهـم شتَّـتوا أصواتهـم بترشـيحهم لأكثـر مـن شـخصٍ لعضويـة الأمانـة العامـة، رغم أننـا فـي الإعـلان رأينـا أن يُرشِّـح كل حـزبٍ شـخصًا واحـدًا فقـط لنُـتيح الفرصـة أمـام كافـة الأحـزاب للتمثيـل، وليكون هنـاك تنـوع لـكل طيـفِ الأحـزاب السـورية وممثلـي المجتمـع المدنـي، وكانـت النتائـج فـي غيـر صالـح الاتحـاد الاشـتراكي».

وأضاف:

إنَّ تجمع إعلان دمشق هو «حالةٌ جيدة جدًّا لم نشهدها في تاريخ سورية سوى مرةٍ واحدة عشيةَ الانقلاب على الرئيس الشيشكلي، عندما اجتمع مُمثِّلو كافة الأحزاب السورية على اختلاف توجهاتها، وكانت النتيجة أن تخلَّصوا من استبدادِ ديكتاتورية الشيشكلي، وسارتْ سورية على طريق الديمقراطية الذي لم يستمرّ»... «نحن لا ندَّعي أننا الوحيدون الذين يُمثِّلون معارضة المجتمع، فالمجتمع يُفرِز دائمًا تياراتٍ وتجمعات وقوى مختلفة، ونحن نقبل بهذا التنافس الديمقراطي، ونرى أنَّ الوثيقة التوافقية التي أفرزها المؤتمر الأخير للإعلان هي مخرجٌ سليم في إطار المجتمع».

(٥) موقف حزب العُمال الثوري العربي[٧]

انتقَد حزب العمال الثوري قرارَ تجميد نشاط حزبَيِ الاتحاد الاشتراكي والعمل الشيوعي، وأشار إلى أنَّ:

«ما صدَر من بعض رفاقنا في حزب الاتحاد الاشتراكي، ومذكرة رفاقنا في حزب العمل التي قُدِّمَتْ لمكتب الأمانة السابقة، ربما لعبتْ دورًا في نتائج الانتخاب، كذلك آلِيَّةُ إدارة دور حزب الاتحاد في المجلس، التي تجلَّتْ بالسلبية والحِدَّة تجاه المستقلين. وكما ساءنا كحزبٍ وأعضاءِ مجلسٍ عدمُ نجاح مُرشحيهم، ساءنا قرار تجميد نشاطهم في مؤسسات الإعلان، وناشدناهم

(٧) **مقاربات**، العدد ١٢ ـ ١٣، حزيران/يونيو ٢٠٠٨، مصدر سبق ذكره.

بالتراجع عنه. كنا نأمل أن لا يحصل هذا التجميد، ولا شك أنَّ له دورٌ غير مباشر بتشجيع أقلام السلطة لتُواكِبَ الحملة الأمنية للنَّيل من أعضاء المجلس الوطني، بحملة إعلامِ «تخوينٍ وتشهير»، رافقت الاعتقالات والإحالة إلى المحاكم، وخضوع مُثقفي سورية لحفلات التحقيق والتعذيب، لاسيما أنَّ شخصًا ممَّن جمَّد نشاطه، برَّر التجميد بخروج المجلس الوطني عن توافقات الإعلان، وبادِّعاءٍ ظالمٍ بانشقاقٍ حصل فيه بين (القوميِّين الديمقراطيِّين واليساريِّين الديمقراطيِّين المُتصدِّين للهجمة الأمريكية الصهيونية) وبين (الآخرين الليبراليِّين والمراهنين على الخارج وعلى الأمريكان في عملية التغيير). وهم يعلمون أننا جميعًا في المعارضة الديمقراطية السورية، لا نقبل أن نكون جزءًا من أيِّ مشروعٍ يُسيءُ إلى سورية وإلى الوطن العربي، بل نحن من المَعنِيِّين بالدفاع عن وطننا وشعبنا إذا تعرَّض لأيِّ عدوان. ثم لنَفترض أنَّ في المجلس الوطني لإعلان دمشق حَمَلَةَ قِيَمٍ ليبرالية، وهذا في صالح المعارضة الديمقراطية، فهل يَحِقُّ للتيَّارَين القومي والماركسي إقصاء هذا التيار الليبرالي عن ممارسة حقه في مواجهة الاستبداد واعتباره خارج الشعب، وفرض هذه الرؤية على الطَّيف المعارض؟».

أما بخصوص آلِيَّة انعقاد المؤتمر وموضوع التوسعة، فقد أوضح حزب العمال الثوري حقيقةَ توافقِ المجلس الوطني السابق وأعضاء مكتب الأمانة السابق على عددٍ من المعايير وعلى عددٍ لأعضاء المجلس الوطني كحدٍّ أقصى، ويشمل:

(أ) أعضاء المجلس الوطني السابق (المُصَغَّر).

(ب) مُمثِّلين لكل حزبٍ من أطراف الإعلان.

(ج) انتخاب أو اختيار مُمثِّلي لجان الإعلان في المحافظات، والهيئة في المحافظة هي المَعنِيَّة بترشيحهم وبدعوتهم.

(د) شخصيات عامة يُسمِّيهم مكتب الأمانة بالتوافق؛ (وهذا فتَح الباب لزيادة عددِ أعضاء المجلس الوطني من ٧٠ إلى ٩٠ إلى ٢٢٠ عضوًا، حضَر منهم ١٦٧ عضوًا).

وختَم بأنَّ «إعلان دمشق كمشروعِ تغييرٍ وطنيٍّ ديمقراطي مَعنِيٌّ به الشعب في سورية، وإنَّ المستقلين فيه لهم الحق بنسبة تمثيلٍ كبيرة على حساب الأحزاب، لأن الشعب هو صاحب التغيير والمُقرِّر لمصيره. ونحن نفهم الإعلان على أنه ليس مشروعَ إسقاطٍ للنظام، وتبديل مجموعةٍ مُمسكةٍ بزمام السلطة بمجموعةٍ أخرى، بل هو تغييرٌ ديمقراطي، تغييرٌ لبِنية الدولة التسلُّطية، ببِنيةٍ ديمقراطية تفتح الأبواب لإقامة دولةٍ مدنية تعاقدية حديثة».

(٦) موقف التيَّار الليبرالي (عضو الأمانة العامة سمير نشار)[٨]

أبدى النشَّار أسفَه الشديد، وأشار إلى أنَّ «المُستفيد الوحيد من تجميد حزب الاتحاد وحزب العمل لنشاطهما هو السلطة، لأن قرار التجميد قدَّم الغطاء السياسيَّ لعملية الاستدعاءات والمُلاحقات والاعتقالات، وسمَح لشخصياتٍ رسمية من النظام

(٨) **مقاربات**، العدد ١٢ ـ ١٣، حزيران/يونيو ٢٠٠٨، مصدر سبق ذكره.

وشخصياتٍ إعلاميةٍ قريبةٍ منه بتَخوين الأمانة العامة المُنتَخبة. واستطاع النظام توظيف هذه الحالة في حملته على إعلان دمشق». وأضاف: «إنَّ النظام ومن خلال توافق الخارج الإقليمي والدولي ضده يجدُ أنه الخيار الوحيد وأنَّ بديله هو الفوضى، أي أنَّ المعادلة في نظره تتراوح بين ثُنائية الاستبداد أو الفوضى. لكن إعلان دمشق استطاع أن يُقدِّم نفسه بشكلٍ أوليٍّ كخيارٍ آخر يكسِر حِدَّةَ الاحتمالات عن هذه المعادلة التي يُحاول النظام السوريُّ ترويجها. من هنا، أعتقد أنَّ إعلان دمشق سوف يبقى هدفًا للتصفية والتفكيك من قِبَلِ النظام بكافَّة الوسائل وهي كثيرة لديه. ثم أستطيع التأكيدَ بأنَّ مزاعم وجود توجُّهٍ جديدٍ نحو النيوليبرالية كي يحصل الإعلان على دعمٍ وشرعيةٍ خارجية، لا أساسَ لها من الصحة بتاتًا، وأؤكد أيضًا بأنني من أكثر أعضاء الأمانة العامة ليبراليةً ولا يوجد لديَّ هذه التوجهات، وهذه المزاعم عبارةٌ عن تهويلٍ لا يستند إلى الواقع السوري، فهل في سوريا الآن ليبراليةٌ حتى نزعم بوجود نيوليبرالية».

ثم أوضَح موقفه من المعايير التي تمَّتْ مناقشتها والتوافق عليها من قِبَلِ الأمانة العامة السابقة، في اختيار الشخصيات المستقلة لعضوية المجلس الوطني، والتي كانت ترتكِز على توافر بعض الصفات الضرورية، والتي منها أن يكون المرشح معروفًا بالساحة السياسية والوطنية المعارضة من قِبَلِ بعض أعضاء الأمانة العامة، وأن يُشكِّل إضافةً ما إلى العمل الوطني من خلال حيثيَّةٍ مُعيَّنة ثقافية - سياسية - اقتصادية - اجتماعية - فنية - دينية، على أن يمتلك المصداقية في العمل الوطني. مع الحرص على ضمان التنوع في الشخصيات الراغبة بالانضمام للإعلان من حيث التوجُّه السياسي والأيديولوجي، ولدفع شرائح

جديـدة مـن المجتمـع السـوري للعمـل بالشـأن العـام (التيـار الإسـلامي الديمقراطـي).

وختَـم موقفـه بالقـول «إنَّ المعاييـر لـم تكـن دقيقـة بالمُطـلق ولـم يكـن هنـاك مقيـاسٌ واحـدٌ لجميـع أنصـار المجلـس الوطنـي، ولكـن لـم يعتـرض أحـدٌ مـن الأحـزاب أو القـوى أو الأفـراد علـى أعضـاء المجلـس الوطنـي باسـتثناء حالـةٍ واحـدة فقـط، حيـث اعتـرض أحـد الأحـزاب علـى شـخصيةٍ مسـتقلة رغـم موافقـة حوالـي مـا يزيـد علـى ثلاثيـن عضـوًا علـى تلـك الشـخصية، ومـع ذلـك تـم سحـب ترشيـح ذلـك العضـو الـذي هـو قيـد الاعتـقال حاليـا».

(٧) موقـف الأمانة العامـة

لـ«إعـلان دمشق للتغـيير الوطـني الديمقراطي»

اجتمعـتْ هيئـة رئاسـة الأمانـة العامـة فـي ١٢ كانـون الأول/ ديسـمبر ٢٠٠٧، وخلُصَـتْ إلـى أنَّ «قـراءة نتائـج الانتخابـات وتركيبـة مكتـب رئاسـة المجلـس الوطنـي والأمانـة العامـة، تؤكـد بوضـوحٍ ودون لبـس، تمثيـلَ كل القـوى السياسـية والتيـارات الفكريـة دون استـثناء. فالقـوى السياسـية، التجمـع الوطنـي الديمقراطـي، والتحالـف والجبهـة الكرديَّـان والمنظمـة الآثوريـة وحـزب المسـتقبل الديمقراطـي والوطنيـون الأحـرار، والتيـارات الفكريـة، (القوميـة واليسـارية والإسـلامية، العربيـة والكرديـة والآثوريـة)، لهـا تمثيـلٌ عـادل ومُتسِـقٌ مـع النظـرة التوافقيـة وتوازناتهـا، مـع عـدم وجـود أيَّـةِ مؤشـراتٍ علـى قيـام تحشـيدٍ أو تعبئـةٍ ضـد أي جهـة سياسـية أو فكريـة، وخاصَّـةً حـزب الاتحـاد الاشـتراكي العربـي الديمقراطـي، وإنَّ مـا حصـل فـي الانتخابـات ترتَّـب علـى مُجرَيـات الجلسـة، ناهيـكَ

عـن الـدور الـذي لعبـه ترشـيحُ ثلاثـةٍ مـن أعضـاء الحـزب هـم السـادة حسـن عبـد العظيـم وعبـد المجيـد منجونـة ونـدى الخـش لعضويـة الأمانـة العامـة، فـي تشـتيت الأصـوات بيـن الثلاثـة، واعتبـار الحـزب مُمَثَّـلًا فـي الأمانـة العامـة بشـخصِ السـيدة نـدى الخـش». و«أشـاد كل أعضـاء الأمانـة العامـة بالحـزب المذكـور للـدَّور الـذي قـام بـه، إنْ لجِهَـةِ إنجـاح عقـد المجلـس الوطنـي أو فـي تشـكيل ائتـلاف إعـلان دمشـق للتغييـر الوطنـي الديمقراطـي، واعتبـاره شـريكًا أصيـلًا فـي مسـيرة الإعـلان، وتطلعهـم للعمـل معـه مـن أجـل إنجـاز التغييـر الوطنـي الديمقراطـي المنشـود فـي سـورية، كمـا تمنُّـوا علـى الحـزب التراجـع عـن قـرار التجميـد». وإلـى ذلـك «أدان المجتمعـون ردَّ فعـلِ السـلطة السـلبي علـى عقـد المجلـس الوطنـي وقيامهـا بحملـة اعتقـالاتٍ غطَّـتْ معظـم المحافظـات السـورية وطالـت العشـرات مـن أعضـاء المجلـس. وطالبـوا السـلطة بالتخلِّـي عـن سياسـة دفـن الـرأس فـي الرمـال والاعتـراف بالمعارضـة الديمقراطيـة والتعاطـي مـع الموضـوع باعتبـاره أمـرًا طبيعيًّـا، وحصولـه جـزءًا مـن التغييـر المطلـوب فـي الحيـاة الوطنيـة السـورية، وإطـلاق سـراح مَـن تبقَّـى مـن المعتقليـن وهـم: أحمـد طعمة وأكـرم البني (أمينَـا سِـرِّ المجلس الوطنـي) وجبـر الشـوفي وغسـان نجـار (عُضـوي الأمانـة العامـة).

بيضاء في الأصل

الفصل الخامس

الاعـتـقالات بعد انـعـقاد المجـلس الوطني لإعـلان دمشق

بيضاء في الأصل

فـي التاسـع مـن كانـون الأول/ديسـمبر ٢٠٠٧ وبالتَّـزامن مـع اليـوم العالمـي لحقـوق الإنسـان، بـدأ جهـاز أمـن الدولـة وفروعـه فـي المحافظـات باسـتدعاء وتوقيـف ٤٦ ناشـطًا مِـنَ الذيـن حضـروا المجلـس الوطنـي، ليتـم إطـلاق سـراح ٣٤ منهـم بعـد فتـراتٍ تتـرواح بيـن عِـدَّة سـاعاتٍ وعـدة أيـام. كمـا تـم اعتـقال ١٢ عضـوًا مـن القيـادات المنتخبـة أو المشـاركين الفاعليـن فـي المجلـس، وتـم الاحتفـاظ بـهم ومـن ثُـمَّ تحويلهـم إلـى السـجون المدنيـة، وجـرتْ محاكمتهـم والحُكـم عليهـم بمـدة سـنتين ونصـف لـكلٍّ منهـم. [١]

(١) مُواجهـة الاعتـقال

علـى الرغـم مـن بَـدء حملـة الاعتقـالات علـى الإعـلان واعتقـال عضـوِ أمانـةٍ عامـة وأمينَـي سـرِّ المجلـس وتوقيـف عـددٍ مـن أعضـاء المجلـس

(١) اطلـب نبـذ قصيـرة عـن المعتـقلين فـي «الحكـم بسـجن معتقلـي إعـلان دمشـق» نقـلًا عـن تقريـر بتوقيـع «مركـز الدفـاع عـن الحريـات الإعلاميـة والثـقافية فـي الشـرق الأوسـط (سـكايز)»، ٣٠ تشـرين الأول/أكتوبـر ٢٠٠٨.

https://bit.ly/2KIySGM

اطلـب جـداول بأسـماء المعتـقلين، مَـن أُفـرِج عنهـم، ومَـن سـجن وأُحيـل إلـى المحاكمـة فـي نهايـة هـذا الفصـل.

الوطنـي، اختـار جميـع أعضـاء إعـلان دمشـق العلنِـيَّة واسـتمررنا بمهامِّنا التنظيميــة. وعقــدتْ رئاســة الأمانــة العامــة اجتماعَهــا فــي منزلــي بتاريـخ ١٢ كانـون الأول/ديسـمبر ٢٠٠٧. ونحـن فـي منتصـف الاجتمـاع، فُوجئنـا بطَـرقٍ قـوي علـى البـاب فتوقَّعنـا فـورًا أنهـم عناصـر الأمـن. خرجـتُ لـمُـقابلتهم، بعدمـا أخفينـا الأوراق والوثائـق وأغلقـتُ البـاب ورائـي. وعندمـا حاولـوا الدخـول إلـى البيـت رفضـتُ ذلـك لأنهـم رفضـوا التعريـف عـن أنفسـهم ولا عـن الفـرع الـذي يتبـعون لـه، وتوقعـتُ بأنـه لـم تكـن لديهـم أوامـر بالاعتـقال فقلـت لهـم: إذا كان معكـم أمـر بالدخـول فيُـمكنكم ذلـك، وإذا لا... فعلـى جُثتـي! وبعـد جـدلٍ دام أكثـر مـن سـاعةٍ طلبـوا منـي فـضَّ الاجتمـاع فقـط وخـروج المجتمعيـن. اتفقنا بـأن يخـرج المجتمعـون علـى دفعـات، حيـث يذهـب اثنـان بسـياراتهما وبعـد مُضِـيِّ عشـر دقائـق نتصـل بهمـا، وإذا كانـت أمورهمـا بأمـانٍ يخـرج اثـنان آخـران. وهكـذا خـرَج جميـع الحاضريـن مـا عـدا الدكتـورة فـداء حورانـي وسـليمان الشـمر.

فـي ١٦ كانـون الأول/ديسـمبر ٢٠٠٧ اعتُـقلتِ الدكتـورة فـداء حورانـي، وبعـد حوالـي الأسـبوع اتصـل أهلُهـا بـي لتوصيـل بعـض الملابـس لهـا، فرأيـتُ بـأنَّ إثـارة هـذا الطلـب مـع أجهـزة الأمـن فرصـةٌ لإظهـار علنِـيَّتي لأنـي اعتـقدتُّ بأنهـم يدفعوننـي لأظـلَّ مُتواريًـا وأعمل بشـكلٍ سـرِّي، أو يؤخـرون اعتـقالي لتقديـراتٍ خاصَّـة.

اتصلـتُ مـع علـي مملـوك ويبـدو أنـه توقَّـع أننـي سـأكلمه بشـأن وضعـي الأمنـي، فأجـاب: أنـا مُسـافر اتصـلْ بـي بعـد العيـد. فطلبـتُ منـه بشـكلٍ عاجـلٍ أن يسـمح لأهـل فـداء بإيصـال بعـض الملابـس لهـا، فـوافق. وبالفعـل اسـتلم الأمـن مـن أختهـا حقيبـة ثيـابٍ مـن دون أن يسـمحوا لهـا برؤيتهـا.

واجتمعتْ هيئة رئاسة الأمانة العامة ثانيةً في ١٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ بغياب علي العبد الله بسبب الاعتقال، واتفقنا على بَلورة خطةٍ أولية للعلاقة مع الخارج دون استفزاز السلطة، وأيضًا الاستفادة من أعضاء الإعلان في الخارج لإنجاز عمليات التحديث والمتابعة اليومية للموقع وإغنائه، ولإرسال نشرةٍ يومية بالبريد الإلكتروني لأكبر عددٍ ممكنٍ من العناوين من السوريين والمهتمين بالشأن السوري، وترجمة كل ما يُفيد نشاط الإعلان من وإلى اللغات الحيَّة (الإنكليزية - الفرنسية - الألمانية)، بما في ذلك القيام باعتصاماتٍ أمام السفارات السورية في أنحاء العالم، تضامنًا مع المعتقلين وتقديم مذكرةٍ لإطلاق سراحهم إلى سفارات الدول المُؤثِّرة وإلى منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان الدولية، والاستفادة من الزَّخَم الذي حقَّقه الإعلان بعد عقد المجلس الوطني لكسب أنصار جُدد في الداخل ومن قوى المعارضة في الخارج. وعدم المشاركة في الحوار على «قناة الحرة» ضمن برنامج «عين على الديمقراطية» كي لا نُعطي النظام ذريعةً لتوسيع الحملة على كوادر الإعلان وقياداته.

كما تقرَّر أنْ ألتقي السيناتور آرلين سبكتر بصِفَتِي الشخصية، أثناء زيارته لدمشق بتاريخ ٢٩ كانون الأول/ديسمبر، وفعلًا الْتقيتُه برفقة النائب باتريك كنيدي بتاريخ ٣٠ كانون الأول/ديسمبر وشرحتُ له الظروف التي يمرُّ بها الإعلان، وطابع حملة الاعتقالات التي يتعرَّض لها كوادره. وعندما أعلمني بأنه سوف يَخرج من لقائنا لمقابلة بشار الأسد، أعطيتُه قائمةً بأسماء زملائي المعتقلين وسألتُه أن يطلب إطلاق سراحهم. كان سبكتر سعيدًا جدًّا بنتائج المقابلة، وأخبرني أنَّ بشار الأسد قرأ القائمة التي قدَّمها له مرتين بعنايةٍ كبيرة، وقال له أنهم، (أي المعتقلين)، إنْ لم يكونوا في بيوتهم الآن

فهـم بالتأكيـد فـي طريقهـم إليهـا:

"If they are not already at home, they are just going home."

وسـألَني إن كان يسـتطيع الإدلاء بتصـريحٍ حـول الموضـوع، أجبتُـه فـورًا أنـه علينـا تثبيـت كلِّ كلمـةٍ قالهـا بشـار الأسـد أمـام العالـم، وبالفعـل أعلَـن سـبكتر مـا وعـدَه بـه الأسـد فـي مؤتمـرٍ صحفـيٍّ عقـده فـي مطـار دمشـق الدولـي، ولـم تكـدْ طائـرته ترتـفع عـن أرض المطـار حتـى خـرَج النظـام وكـذَّب الوعـود المنسـوبة لبشـار الأسـد.[٢]

وعلـى الرغـم مـن اتسـاع نطـاق الاسـتدعاءات والتوقيفـات، كنـت أعيـش حياتـي الطبيعيـة وأمـارس نشـاطي السياسـي كمـا فـي السـابق، مـع توقُّـع اعتـقالي فـي كل لحظـة. وعندمـا علمـتُ فـي صبـاح يـوم الإثـنين بتاريـخ ٢٨ كانـون الثاني/ينايـر ٢٠٠٨ أنَّ زملائـي فـي الأمانـة العامـة والمجلـس الوطنـي لإعـلان دمشـق المعتـقلين سـيتم اسـتجوابهم أمـام قاضـي التحقيـق، سـارعتُ إلـى قصـر العـدل لأتضامَـن معهـم. قـرَأ القاضـي أسـماءَ أحـد عشـر مُتـهمًا مطلوبيـن للقضيـة، وأضـاف أنـه اعتُـقِلَ عشـرةٌ منهـم وبقـي شـخصٌ مُتـوارٍ هـو ريـاض سـيف. بـدا لـي كأنهـم يقولـون لـي: اذهـبْ وتـوارَ قبـل أن نعتـقـلك أيضًـا، أو ربمـا كانـوا يُدبِّـرون لـي أمـرًا آخـر يَخفَـى عنـي. وحينئـذٍ بـادرتُ إلـى القـول: «لا، أنـا لسـت مُتـواريًا... أنـا موجـودٌ هنـا». لـم يلتفـتِ القاضـي إلـى احتجاجـي، وأصـدَر قـراره بتوقيـف المعتـقلين العشـرة وإيداعهم سـجن عـدرا المركـزي، بعـد أن بقـوا فـي أقبِـيَةِ إدارة المخابـرات العامـة، (أمـن الدولـة)، بدمشـق مـا يقـرب مـن شـهر ونصـف، تعرَّضـوا خلالهـا للتعذيب

(٢) «سورية ترفض مناقشة شؤونها الداخلية مع أي مسؤول أجنبي»، ٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ على موقع «القوات اللبنانية»:

https://www.lebanese-forces.com/2008/01/02/2560/

الجسـدي والنفســي. وبعدهـا انهالـتْ علـيَّ نصائـح الكثيريـن بضــرورة التخــفِّي لأن اعتقالـي أصبـح وشـيكًا وشِـبه مؤكَّـد، فرفضـتُ ذلـك رفضًـا قاطعًـا، وتوجَّهـتُ إلـى منزلـي بشـكلٍ طبيعـيٍّ وأنـا مسـتعدٌّ للاعتقـال أو مواصلـة العمـل السياسـي بشـكلٍ علنـي، كأميـنٍ عـام لإعـلان دمشـق.

كانــت موجــةُ بــردٍ تجتــاح دمشــق فــي تلــك الأيــام والثلــج يتــراكم فــي الطرقـات وعلـى مشـارف البيـوت بكثافـة، وعنـد حوالـي السـاعة السـابعة مسـاءً جـاء ضابطَـا شـرطة، وقـالا إنهمـا «قادمـان مـع كل أسـف... لاعتــقالي» وأنهمـا ينتــظراني حتـى أحضِـر مـا أحتاجـه. ذهبنـا إلـى فـرع الأمـن الجنائـي بريـف دمشـق، حيـث وضعونـي فـي أحـد المكاتـب مؤقــتًا، ثـم نُقلـتُ إلـى غرفـةٍ فيهـا شـابَّان موقوفـان أيضًـا، وقضيــتُ ليلتــي هنــاك فــوق بطانيــةٍ واحــدة علــى البــلاط البــارد.

وفـي اليـوم التالـي، الثلاثـاء ٢٩ كانـون الثاني/يناير ٢٠٠٨ ذهبـتُ إلـى قصــر العـدل وانتظـرتُ طـوال النهـار لكـي أَمثـل أمـام قاضـي التحقيـق الثالــث للتحقيــق معــي بنفــس الدعــوى وبنفــس التُّــهم المُعتــادة والمعروفـة التـي وُجِّهَـتْ لزملائـي العشــرة، وهي الانتــساب إلـى جمعيةٍ سـرية بقصـد تغييـر كيـان الدولـة السياسـي والاقتــصادي ونشــر أخبـارٍ كاذبــة مــن شــأنها أن تُوهــن نفســية الأمَّــة وإضعــاف الشــعور القومــي وإيقـاظ النعَـرات العنصــرية والمذهبيــة والنَّيـل مـن هيبـة الدولـة.

فـكان جوابـي أننـا طُـلاب حريـة، واليـوم نحـن بحاجـةٍ إلـى الديمقراطيـة وأنهـا الحـل الوحيـد للحفـاظ علـى وحـدة البـلاد وتقدمهـا وحصانتهـا ضد أيِّ تدخـلٍ خارجـي. وأضفـت، نحـن لسـنا جمعيـةً سـرية وإنمـا أعمالنـا كانـت علنِــيَّةً ونريـد التحـول بسـورية إلـى الديمقراطيـة بشـكلٍ هـادئٍ وآمــنٍ وتدرُّجــي، وعبــر انتــخاب جمعيــةٍ تأسيســية مــن كافــة فئــات الشــعب وكافــة القــوى السياســية بمــا فيهــم حــزب البعــث لصياغــة

دستورٍ يتلاءم مع المرحلة القادمة. وأكدتُّ أني مع حَلِّ القضية الكردية ضمن الحفاظ على وحدة البلاد أرضًا وشعبًا، ولا تشابُه بيننا وبين العراق، كما أننا ضد النعرات الطائفية، ولعل انتخاب فداء الحوراني، السُّنِّيَّة الحمَوية القومية العربية، رئيسةٌ للمجلس، والكردي عبد الحميد درويش والعلَوي اليساري عبد العزيز الخير والمسيحي الليبرالي أكرم البني في قيادة الإعلان ــ خير دليلٍ على ذلك؛ مُتسائِلًا وباستغراب: أين هي النعرات الطائفية إذن؟! إثر ذلك قرَّر القاضي توقيفي وإيداعي سجن دمشق المركزي، لأنضمَّ إلى زملائي المعتقلين الذين سبقوني إليه في اليوم السابق.

(٢) بعضُ ردود الأفعال على الاعتقالات

وفي نفس اليوم الثلاثاء ٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ صرَّح مساعد الناطق باسم الخارجية الأميركية توم كايسي للصحافيين بأنَّ الإدارة الأمريكية تُدين اعتقال رياض سيف من قِبَلِ الحكومة السورية، وتدعو إلى الإفراج عنه فورًا. وأضاف، لقد طالبتِ الولايات المتحدة الحكومةَ السورية في شهر آب/أغسطس الفائت بالسماح لرياض سيف بالسفر خارج البلاد لتلقِّي العلاج جرَّاء إصابته بسرطان البروستاتة، لكنَّ دمشق رفضتْ ذلك. ولم أعلم بذلك إلا عند نشره بعد سنوات من قِبَلِ ويكيليكس.[٣] بينما قال شتاينماير وزير الخارجية الألماني

(٣) في برقيةٍ سريةٍ مُؤرَّخة في ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٩، سرَّبها موقع «ويكيليكس» وترجمَتْها **زمان الوصل**، تدور حول تداعيات اعتقال النائب رياض سيف على تدهور صحته، تنقل السفارة الأمريكية في دمشق عن السناتور جون كيري أنه أثار مسألةَ صحة رياض سيف خلال عشاءٍ جمعه مع بشار الأسد على هامش زيارةٍ للسناتور الأمريكي إلى دمشق، وقد رَدَّ بشار أنه جرى إخبار سيف أن يرفَع طلب استرحام إلى الرئيس بشار الأسد، وسينظر الأخير في الإفراج عنه

فـي بيـانٍ بـأنَّ توقيـف ريـاض سـيف أمـرٌ غيـر مقبـول، ودعـا السـلطات السـورية إلـى الإفـراج الفـوريِّ عنـه. كمـا دعـتْ فرنسـا سـورية إلـى احترام الْتــزاماتها الدوليـة والإفـراج الفـوري وغيـر المشــروط عـن ريـاض سـيف وزملائـه وجميـع مَـن وقَّعـوا إعـلان دمشـق الموقوفيـن حاليـا. وأوضحـتِ المتحدثـة باسـم وزارة الخارجيـة الفرنسـية باسـكال اندريانـي، أنَّ فرنسـا تطلـب الإفـراج الفـوريَّ وغيـر المشــروط عـن ريـاض سـيف، الـذي يُثيـر وضعـه الصحـي قلقًـا شـديدًا. وأضافـتْ فـي بيـانٍ مكتـوب أنَّ توقيـف سـيف يرفـع عـددَ الذيـن أوقفتهـم أجهـزة الأمـن السـورية مـن مُوقِّــعي إعـلان دمشـق إلـى أحـد عشــر معتقـلًا، وتابعـتْ أنَّ باريس «تدعـو النظام السـوري إلـى احتـرام الْتــزاماته الدوليـة وخصوصًـا حرية الـرأي التي تكفلها الشــرعة الدوليـة للحقـوق المدنية والسياسـية التـي صادقتْ عليها سـورية العـام ١٩٦٩، مُعرِبـةً عـن قلـق فرنسـا حيـال الانتهـاكات المتكـررة لحقـوق الإنسـان والحريـات العامـة فـي سـوريا».[٤] كمـا دعـا الرئيـس الأميركـي جـورج بـوش إلـى إطـلاق عشــرات المعارضيـن للنظـام السـوري الذيـن اعتُــقِلوا خـلال الأيـام الماضيـة. ويُـورد دافيـد شـنكر[٥] فـي إطـار انتــقاد

لأسبابٍ إنسانية. ريـاض سـيف القيـادي البـارز فـي إعـلان دمشـق كان (حينهـا) معتــقلًا، ويُعانـي مـن تدهـورٍ واضـح فـي صحتـه، بسـبب مـرض السـرطان، مـا أثـار قلقًـا بالغًـا لـدى عائلتـه وأصدقائـه. وقـد نقـل كيـري لاحقًـا أنَّ المشـكلة بالنسـبة لــسيف هـي أنَّ المطلـوب منـه (أي الاسـترحام) سـيكون بمثابة اعتــراف بالتهـم التـي نُسـبت إليـه مـن قِبَـلِ النظـام:

https://wikileaks.org/plusd/cables/09DAMASCUS272_a.html

http://www.zamanalwsl.net/news/37992.html

(٤) «ألمانيـا وفرنسـا وأميـركا تُطالـب بإطـلاق سـراح ريـاض سـيف»، **شـفاف الشــرق الأوسـط**، الثلاثــاء ٢٩ كانــون الثاني/يناير ٢٠٠٨.

https://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id_article=3226&id_forum=2522&lang=ar

(٥) دافيـد شـينكر، «"احتضـار" المعارضـة فـي سـوريا مـع "وفـاة" أحـد المنشـقين»، معهـد واشـنطن لسياسـة الشــرق الأدنـى. أعـادت **لـوس أنجلـس تايمـز** نشـر المقالـة فـي ١٠ آذار/مـارس

سياسة باراك أوباما تجاه النظام السوري، بأنه بينما يُعتقل رياض سيف الذي يُعتبر من أكثر أعضاء [الجماعات] العلمانية احترامًا في سورية، ومن تلك [القوى] الديمقراطية المُعارضة لسياسة القبضة الحديدية للرئيس الأسد وعشيرته العلَوية، فإنَّ إدارة الرئيس أوباما تُبدِي وللأسف استعدادًا لاستئناف الحوار الدبلوماسي مع دمشق. وأضاف: «إنَّ محنة سيف هي تذكرةٌ بالغةُ السوء لحالة حقوق الإنسان في سورية، وتُوضِّح سيرته لماذا سيكون من الخطأ بالنسبة لواشنطن [كنس] حملة حقوق الإنسان تحت البساط، فخلال فترة إدارة الرئيس جورج دبليو بوش، خصَّص البيت الأبيض، على الأقل!، أهميةً خِطابية للموضوع، فقد ذكَر بوش اسم رياض سيف علَنًا على الأقل ثلاث مرات. واليوم، يُوحي البعض بأنَّ تهميش حقوق الإنسان يمكن أن يُشكِّل نوعًا من "وسيلةٍ لبناء الثِّقة" تجاه دمشق، تساعد في خلق بيئةٍ مُواتية لمحادثات السَّلام بين إسرائيل وسورية».

وفي المقابل، أدانت العديد من المنظمات الحقوقية السورية والعربية والكردية والعالمية الاعتقالاتِ والمحاكمات السياسية لمعتقلي إعلان دمشق، وأطلقتْ عدة مواقع إلكترونية حملاتٍ تضامنية مع هؤلاء المعتقلين وقَّع عليها عشرات الناشطين. كما أصدرتْ «منظمة العفو الدولية» تقريرًا عن الاعتقالات جاء فيه: «وتعتقد منظمة العفو الدولية أنَّ الأشخاص الأحد عشر جميعهم سجناء رأيٍ اعتُقلوا لمجرد ممارستهم السِّلمية لحَقِّهم في حرية التعبير وتكوين الجمعيات، ويُذكَر أنَّ رياض سيف مُصابٌ بسرطان البروستاتة الذي بلغ مرحلةً متطورة،

٢٠٠٩، ثم ترجمت إلى العربية على موقع **شفاف الشرق الأوسط**، الأربعاء ١١ آذار/مارس ٢٠٠٩: https://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id_article=5707&id_forum=6804&lang=ar

وهنـاك قلـقٌ شـديد مـن أن يُعـرِّض اعتــقاله الآن حياتَه للخطـر، وإذ يحتاج ريـاض سـيف إلـى عـلاجٍ تخصصــيٍّ للســرطان لا يتوفـر إلا خـارج سـورية، لكـنَّ السـلطات السـورية رفضـتْ بصـورةٍ مُتكـررة السـماح لـه بمغـادرة البـلاد للحصـول علـى هـذا العـلاج، وعمومًـا قـد لا يتلقَّـى السـجناء فـي عـدرا إلا العـلاج الطبـي الأساسـي، كمـا لا يُعـرف مـا إذا كانـت قـد أُسـيئَتْ معاملتـه علـى نحـوٍ آخـر أثنـاء اعتقالـه، لكـنَّ الأنبـاء تُشـير إلـى أنَّ جميـع الأشـخاص المعتقليـن الآخريـن مـن إعـلان دمشـق قـد تعرَّضـوا فعلًا لسـوء المعاملـة خـلال فتـرة الاعتقـال. وبذلـك تدعـو منظمـة العفـو الدوليـة إلـى الإفـراج الفـوري عـن ريـاض سـيف وإسـقاط كافـة التهـم المنسـوبة إليـه، لأنهـا كمـا يبـدو تستــند فقـط إلـى ممارسـته السـلمية لحَقِّـه فـي التعبيـر عـن معتــقداته، كمـا منَحهـا لـه العهـد الدولـي الخـاصُّ بالحقـوق المدنيـة والسياسـية الـذي تُشـكِّل سـورية طرفًـا فيـه. وأيضًـا تدعـو منظمـة العفـو السـلطاتِ السـورية إلـى الوفـاء بواجبهـا فـي ضمـان تمتُّـع ريـاض سـيف بأعلـى مسـتوى مـن الصحـة الجسـدية والعقليـة، كمـا هـو مُحـدَّدٌ فـي المـادة ١٢ مـن العهـد الدولـي الخـاص بالحقـوق الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة».[٦]

(٣) إيــذاءٌ معـنويٌّ ومـادِّيٌّ مُمـنـهَج

بالترافـق مـع حملـة الاعتقـالات قامـتِ السـلطة السـورية بحملـةٍ شرسـةٍ لــتشويه سـمعةِ مُعتقلي وناشـطي إعلان دمشق والتشـكيك في وطنيتهم، وسَـخَّرَتْ لذلـك وسـائل الإعـلام التابعـة لهـا وعـددًا مـن أبواقهـا الإعلاميـة

(٦) «ريـاض سـيف: المعتــقل الحـادي عشــر مـن مجموعـة إعـلان دمشـق»، تقريـر منظمـة العفــو الدوليــة، ١ شــباط/فبراير.
https://www.amnesty.org/ar/latest/news/2008/02/syria-reid-seif-20080201/

والسياسية المعروفة بارتباطها مع أجهزة الأمن، ومنهم أعضاء في مجلس الشعب ورئيس غرفة تجارة حلب كمثال.

بالإضافة إلى تشجيع القيام بأعمال تخريبٍ مُشينة ارتكبها مأجورو الأجهزة الأمنية في مدينة حلب صباح ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ حين عبثوا بمحتويات مَرسَم الفنان التشكيلي طلال أبو دان وحطَّموا كافة محتوياته من تماثيل ولوحات وتُحف فنية، من دون سرقةِ أيٍّ شيء مما يؤكد كيدِيَّة الأذى والتخريب. كما قاموا بتخريب معمل أدوية للكيميائي المعتقل محمد حجي درويش وتحطيم سيارة النقل الخاصة بالعمل. وفي نفس الوقت بادروا إلى تكسير وتشويه سيارة عضو الأمانة العامة سمير النشار بأدواتٍ حادَّةٍ وبموادٍّ كيميائية، وكذلك تعرَّضتْ سيارة المحامي إبراهيم ملكي المقيم في حلب لأضرار جزئية وأقل قيمة. والأسوأ، كان إقدام السلطات السورية بتاريخ ٢٨ شباط/فبراير ٢٠٠٨ على إنهاء إقامة زوج الدكتورة فداء الحوراني الطبيب الفلسطيني غازي عليان، (مواليد الكويت ١٩٥٤)، بشكلٍ مُفاجئ، وترحيله إلى خارج البلد عبر الحدود السورية الأردنية.

(٤) موقف الإعلان بعد اعتقال عدد من أعضاء الأمانة العامة والمجلس الوطني

أصدرتِ الأمانة العامة لإعلان دمشق بعد اعتقال أعضاء الأمانة العامة والمجلس الوطني بيانًا[٧] في أواخر شباط/فبراير ٢٠٠٨، جاء فيه أنه

(٧) «رغم حملة الاعتقالات: الأمانة العامة لإعلان دمشق تعقد اجتماعها الدوري»، **زمان الوصل**، ٢٩ شباط/فبراير ٢٠٠٨:

https://www.zamanalwsl.net/news/article/3738/

مـن الصحيـح أنَّ إعـلان دمشـق قـد تعـرَّض لضــرباتٍ تمثَّــلتْ فـي اعتقال ثلاثـة عشــر قياديًّـا بـارزًا، وإلـى تشـويشٍ فكريٍّ وسياسـي واتهامـاتٍ ظالمة جاءتْـه مـن هنـا وهنـاك، لكـنَّ الإعـلان اسـتطاع امتصـاصَ الصدمـة، وذلـك لكونـه مُعبِّــرًا عـن حاجـةٍ موضوعيـة للتغييـر الديمقراطي السِّـلمي والآمن والمُتـدرِّج، وسـيُتابع طريقـه مسترشـدًا بوثائـق مجلسـه الوطنـي الأخيـر، خصوصًا بــيانه السياسي الخــتامي.

وقـد نبَّهـتِ الأمانـة إلـى «أوضـاع المَرضَـى، حيث يزيـد ظـرف الاعتقال من تفاقـم الخطـر علـى حياتهـم، خصوصًـا فـي حالـة الدكتـورة فـداء الحورانـي رئيسـة المجلـس الوطنـي، بعـد أن فشـلتِ الفحوصـات والعلاجـات العادِيَّة المُقدَّمـة لهـا فـي مشـفى دومـا وابـن النفيـس، واسـتمرَّ ارتفـاع ضغطهـا الشــرياني بصـورةٍ معنـدة وخطِـرة، الأمـر الـذي يُوجـب سـرعة الإفـراج عنهـا وإتاحـة الفرصـة لتقديـم العنايـة القلبيـة الخاصَّـة لهـا. أمـا فـي حالـة الأسـتاذ ريـاض سـيف رئيـس هيئـة الأمانـة العامـة، والـذي سـبَق منعـه من السـفر لتلقِّـي العـلاج المتقدم طِبِّــيًّا والمناسـب لمرض سـرطان البروسـتاتة المُسـتفِحل، هـا هـو فـي السـجن لا يتمكَّـن مـن الاسـتفادة حتـى مـن العـلاج العـادي، فلذلـك نُطالـب بسـرعة الإفـراج عنـه والسـماح له بالسـفر خـارج البـلاد لتلــقِّي العلاج الـلازم».

وأعـادت الأمانـة العامـة «التأكيـد علـى ضـرورة المُسـارعة إلـى معالجـة الأوضـاع العامَّـة فـي البـلاد بـروح المسـؤولية الوطنيـة العاليـة، والتخلـي عــن الأســاليب القمعيــة، وذلــك بإغــلاق ملــف الاعتقــال السياســي، وإيقـاف المحاكمـات الصُّوريـة، وتبييـض السـجون مـن معتقلـي الـرأي والضميـر، وإتاحـة الفرصـة أمـام انفـراجٍ سياسـيٍّ جـادٍّ مـن شـأنه أن يُجنِّـب البـلاد مخاطـر المغامـرة والعزلـة، مـع العـودة إلى الصـف العربي وحـل قضايانـا المُعلَّقـة مـع جوارنـا بـروح الأخـوة والمصالـح المشـتركة».

كما ردَّ عضو رئاسة الأمانة العامة رياض الترك على حملاتِ تشويه سمعة معتقلي إعلان دمشق بقوله:

«إنَّ رئيسة المجلس الوطني فداء الحوراني ورفاقها لا يحتاجون إلى شهادة حُسنِ سلوك، فهي سيدةٌ ترعرعتْ في بيتٍ وطني مشهودٍ له بالنضال والدفاع عن الوطن وحريته وحاجات فقرائه، ومشهودٌ لرِفاقها المعتقلين سعيهم لإرساء الديمقراطية والحرية في سورية، ونأسف أن تتناول بعض الأصوات الرخيصة قاماتٍ مثلهم... إنَّ الخلفية الأساسية من وراء اعتقال هؤلاء الناشطين هي انعقاد المجلس الوطني لإعلان دمشق، والمعروف أنَّ هذا المجلس يضم أحزابًا سوريةً متنوعة، عربية وكردية، وتنظيماتٍ مدنية، بالإضافة إلى شخصياتٍ وطنية مستقلة من مختلف الاتجاهات السياسية». «تخلَّل المؤتمر حواراتٍ طويلةً وشفافة، نتَج عنها وثيقة أساسية تجلَّتْ في البيان الختامي للمؤتمر، الذي عبَّر عن الموقف السياسي لإعلان دمشق المُعارض»... «تمنَّينا أن يكون ردُّ فعل السلطة هادئًا، وأن تُبادر للحوار مع المعارضة ممثلةً بإعلان دمشق، خاصَّةً في هذا الظرف المُعقَّد الذي يضع سورية على كف عفريت نتيجة سياسات السلطة نفسها».[٨]

(٨) «رياض الترك: اتهام تجمع إعلان دمشق بالعلاقة مع أمريكا اتهامٌ رخيص وخطر»، **زمان الوصل**، ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧.
https://www.zamanalwsl.net/news/article/2574

ملحق الفصل الخامس

بيضاء في الأصل

جداول بأسماء المعتـقلين والمفرج عنهم والمحالين إلى المحاكمة

المعـتـقلون

الرقم	الاسم	الرقم	الاسم
١	غازي قدور	١٨	سمير الدخيل
٢	جبر الشوفي	١٩	سمير نشار
٣	إسماعيل عمر	٢٠	عبد القهار سعود
٤	رديف مصطفى	٢١	فوزي غزاوي
٥	أسامة عاشور	٢٢	بشير إسحق السعدي
٦	بير رستم	٢٣	عبد الكريم الضحاك
٧	فوزي حمادة	٢٤	حسن زينو
٨	محمد خير مسالمة	٢٥	فواز تللو
٩	علي إبراهيم الجهماني	٢٦	زرادشت محمد
١٠	يوسف الصياصنة	٢٧	أشرف سينو
١١	نجاتي طيارة	٢٨	مصطفى أوسو
١٢	فواز الهايس	٢٩	فؤاد إيليا
١٣	موفق نيربية	٣٠	زياد الفيل
١٤	نصر سعيد	٣١	يوسف عويد

١٥	كامل عباس	٣٢	عدنان مكية
١٦	غالب عامر	٣٣	كمال مويل
١٧	مخلص شقرا	٣٤	غسان النجار

أسماء الذين استمر اعتقالهم وتواريخ اعتقالهم وهم

الرقم	الاعتــقال	الاسم	الموقع	نبذة شخصية
١	٩ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	أحمد طعمة	أمين سر المجلس	طبيب أسنان من مواليد دير الزور ١٩٦٥
٢	٩ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	أكرم البني	أمين سر المجلس	كاتب ومعتـقل سياسي سابق من مواليد حماة ١٩٥٦
٣	٩ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	جبر الشوفي	عضو الأمانة العامة لإعلان دمشق	عضو مجلس الأمناء في لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان في سورية من مواليد السويداء ١٩٤٧
٤	١٦ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	فداء الحوراني	رئيسة الأمانة العامة للمجلس الوطني لإعلان دمشق	طبيبة ومديرة مشفى الحوراني بحماة، عضو في الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي، مواليد ١٩٥٦
٥	١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	علي العبد الله	عضو الأمانة العامة لإعلان دمشق	صحفي من مواليد دير الزور ١٩٥٠
٦	١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	ياسر العيتي	عضو الأمانة العامة لإعلان دمشق	طبيب وأستاذ مُحاضر في مجال التنمية البشـرية، له العديد من المؤلفات في مجال الذكاء العاطفي ودواوين شعرية من مواليد ١٩٦٨

٧	١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧	وليد البني	عضو الأمانة العامة لإعلان دمشق	طبيب ومعتـقل سياسي سابق، ومن مُؤسِّسـي منتدى الحوار الديمقراطي ولجان إحياء المجتمع المدني وجمعية حقوق الإنسان في سورية، من مواليد ١٩٦٤
٨	٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨	فايز سارة	عضو المجلس الوطني لإعلان دمشق	كاتب وصحفي معتـقل سابق من مُؤسِّسـي لجان إحياء المجتمع المدني في سورية، مواليد ريف دمشق ١٩٥٠
٩	٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨	محمد حجي درويش	عضو المجلس الوطني لإعلان دمشق	كيميائي ويُدير معمل أدوية في حلب، عضو اللجنة المركزية لحزب الشعب الديمقراطي، مواليد جسر الشغور ١٩٦٠
١٠	١٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨	مروان العش	عضو المجلس الوطني لإعلان دمشق	مهندس جيولوجي من مواليد ١٩٥٦
١١	٢٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨	رياض سيف	رئيس الأمانة العامة لإعلان دمشق	صناعي ونائب مستـقل ومعتـقل سياسي سابق على خلفية تأسيسه منتدى الحوار الوطني ودعوته إلى تأسيس حزب السِّلم الاجتماعي، مواليد دمشق ١٩٤٦
١٢	٣٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨	طلال أبو دان	عضو المجلس الوطني لإعلان دمشق	فنان تشكيلي ونحَّات وناقد فني، معتـقل سابق، عضو الأمانة العامة لحزب الشعب الديمقراطي، مواليد حلب ١٩٥٣

بيضاء في الأصل

الفصل السادس

المُحاكـمات والأحـكام

بيضاء في الأصل

عُقِـدَتْ جلسـةُ توجيـه الاتهامـات بتاريـخ ١٣ نيسـان/أبريل ٢٠٠٨ واقتـصرتْ علـى قـراءة التفقـد، ومـن ثُـمَّ توجيـه التهـم المعتـادة: النَّيـل مـن هَيبـة الدولـة وإيقـاظ النعَـرات العنصـرية والمذهبيـة وإنشـاء جمعيـةٍ سـرية بقصـد تغييـر كيـان الدولـة وترويـج الأنبـاء الكاذبـة.

وتـمَّ التأكُّـد مـن موافقتنـا علـى توكيـل فريـق الدفـاع، وسُـمِحَ بالحديـث المُقتـضَب لخمسـة معتقليـن فقـط مـع مقاطعتهـم بشـكلٍ مُتواتـر مـن قِبَـلِ رئيـس المحكمـة (القاضـي البعثـي) محيـي الديـن الحـلاق. وكنـت أول المتحدثيـن وأكـدتُّ أنَّ قضيتنـا هـي قضيـةُ حريـة تعبيـرٍ ولا علاقـة لهـا بالتهـم المُوجَّهـة إلينـا، ويجـب علـى الدفـاع التركيـز علـى المضمـون السياسـي لقضيـتنا وليـس الشـكل القانونـي، ونحـن إذ نرفـض ونستـنكر التهـم الموجهـة، نؤكـد مَوقفنـا المُطالـب بوضـع برنامـجٍ وطنـيٍّ للإصـلاح فـي سـورية يبـدأ أولًا بحريـة التعبيـر. ثـم تحـدَّث أكـرم البنـي الـذي أظهـر بـأن لا جـدوى فـي مثـل هـذا النـوع مـن المحاكمـات مـن تقديـم دفـاعٍ قانونـيٍّ شـكلي، حيـث المسـألة سياسـية. تـلاه فايـز سـارة، الـذي أشـار لموضـوع الزيـارات ولضـرورة أن يكـون لقضايـا الـرأي بيئـة قانونية تُناسـبها، خاصَّـةً إذا كان هـذا الـرأيُ علنِيًّـا وسِـلمِيًّا. بينمـا تسـاءل وليـد البنـي عـن المسـتندات التـي وُجِّهَـتِ التهـم البشـعة اسـتنادًا إليهـا. وختَـم هـذه المواقـف علـي العبـد اللـه بقولـه، إننـا نعتبـر هـذه القضيـة

سياسية، وسيكون الدفاع فيها مسألةً شكلية، أما التهم الموجهة لنا فهي ليست مقبولةً ولا معقولةً في هذا العصر ونُطالب بإسقاطها.

ثم تتالتْ جلسات هذه المحاكمة في ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٨ و٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٨ و٢٦ آب/أغسطس ٢٠٠٨ و٢٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨.

وصدَر الحُكم على معتقلي إعلان دمشق جميعًا بتاريخ ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨ [١] بحضور عددٍ من أعضاء السلك الدبلوماسي ومندوبين عن المفوضية الأوروبية ومُمثِّلين لبعض المنظمات الدولية لحقوق الإنسان وعددٍ من المحامين السوريين والعرب، فضلًا عن أهالي المعتقلين وأصدقائهم وجَمهرةٍ من المهتمِّين، وبعد أن نادوا بأسمائنا للتأكد من وجودنا، تلا رئيس المحكمة الفقرات الحُكمية التالية من القرار:

- تجريم المتهمين جميعًا بجِناية إضعاف الشعور القومي، سندًا للمادة ٢٨٥ عقوبات، والحُكم عليهم بالاعتقال لمدة ثلاث سنوات.

- تجريم المتهمين جميعًا بجِناية إيهان نفسية الأمَّة، سندًا للمادة ٢٨٦ عقوبات، والحُكم عليهم بالاعتقال لمدة ثلاث سنوات.

- دَمج العقوبتَين وتنفيذ إحداهما، بحيث تُصبح العقوبة هي الأشغال الشاقَّة لمدة ثلاث سنوات.

---

(١) حالة حقوق الإنسان في سورية ـ ملف معتقلي إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي:

https://www.hrw.org/ar/report/2010/07/16/256102

https://www.amnesty.org/ar/

https://bit.ly/3iW5mth

- للأسباب المُخفِّفة التقديرية تُخفَّض العقوبة بحيث تُصبح سنتَين ونصف.

- احتساب مدة توقيفهم، حَجرهم وتجريدهم مدنِيًّا، مع تغريمهم الرسوم والمجهود الحربي.

وبعد انتهاء القاضي من تلاوة الحُكم، اشتعلتْ قاعة المُحاكمة بالتصفيق الحادِّ ولمدةٍ طويلة، تعبيرًا عن الدعم والتضامن معنا كمُعتقلين، ما رفَع وعزَّز معنوياتنا وزادَنا ثقة، بأنَّ الاستبداد إلى زوال. وبمُبادرةٍ عفوية جماعية، أمسكنا بأيدي بعضنا البعض وهتفنا معًا: «عاشتْ سورية وطنًا حُرًّا ومواطنين أحرار»[٢]

«صدَّقتْ محكمة النقض للغرفة الجنائية الأولى على الحُكم الصادر عن محكمة الجنايات الأولى بدمشق في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨ [٣] ومن ثم، بتاريخ ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٩، رفضتْ محكمة النقض طعنًا قدَّمَتْه هيئة الدفاع[٤] بالأحكام الجائرة التي صدرتْ بحقِّنا».

وفي المقابل، أصدرتْ خمس عشرة منظمة من منظمات حقوق الإنسان السورية، العربية منها والكردية، بيانًا أدانت فيه الاعتقالات والأحكام الصادرة بحَقِّ المعتقلين، بينما طالبتْ بعض المنظمات

---

(٢) «بيان معتقلي إعلان دمشق للتغيير السِّلمي الديمقراطي»، المنظمة السورية لحقوق الإنسان (سواسية)، ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨.

www.shro-syria.com

(٣) حالة حقوق الإنسان في سورية ـ ملف معتقلي إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي.

https://www.hrw.org/ar/report/2010/07/16/256102

https://bit.ly/2ZZhZMJ

(٤) تألَّف فريق الدفاع من الأساتذة عبد الرزاق زريق وجوزيف اللحام وإبراهيم حكيم وخليل معتوق.

بشـار الأسـد بإصـدار عفـوٍ عـن هـؤلاء المعتقليـن. وأيضًـا اسـتنكر عـددٌ مــن المنظمــات العربيــة والدوليــة الاعتقــالات والأحــكام المُسيَّســة، فمثـلًا، ورَد فـي بيـان منظمـة «مراسـلون بـلا حـدود» بتاريـخ ٢٩ تشـرين الأول/أكتوبـر ٢٠٠٨ يـوم صـدور الأحـكام بحقِّــنا بأنـه:

«لا يجـوز للمجتمـع الدولـي أن يسـتمر فـي مراعـاة نظـامٍ لا ينفـك عـن الانقضـاض علـى صحافِيِّــيه ومجتمعـه المدَني بمــا أوتــي مــن عنــف. إنَّ هــذه الأصــوات المســتقلة المخنوقـة فـي ظـلِّ عدالـةٍ تخضـع للنظـام تحتـاج إلـى دعـمِ كلِّ المُتــمسِّكين بحريـة التفكيـر والنشــر، وأنَّ سـوريا هـي اليـوم ثانـي أكبـر سـجون الشــرق الأوسـط للمُحترفيـن الإعلاميــين بعـد إيـران، عندمـا تحتــجز أربعـة صحافييــن وخمسـة مخالفيـن إلكترونيِّيـن، لتحتـل سـوريا المرتبـة ١٥٩ مــن ١٧٣ دولـة فـي التصنيـف العالمـي لحريـة الصحافـة فــي عــام ٢٠٠٨».[٥]

(٥) بيان منظمة «مُراسلون بلا حدود» بتاريخ ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨:
https://www.anhri.net/ifex/alerts/syria/2008/pr1029.shtml

الفصل السابع

السَّــجــن الثــاني

بيضاء في الأصل

(١) الأيَّـــام الأولى

صـدَر قـرار التوقيـف وتحويلـي مـن المحكمـة إلـى سـجن عـدرا مـع عددٍ كبيـر مـن المعتقليـن، وكانـت المُعاملـة فَظَّـةً ومُهينـة حيـث تـم توزيعنـا إلــى مجموعتيــن، وقيَّــدوا أيدينــا وأرجلنــا بالسلاســل ثــم وضعــوا كل مجموعـةٍ فـي سـيارة مُغلقـة، تُشـبه سـيارة توزيـع اللحـوم، ولـم تُنــزَعِ القيـود إلا عنـد وصولنـا السـجن، حيـث أرسـلوني فـورًا إلـى «حـلاق» كان ينتــظرني فـي البهـو، وكان مُتعمَّـدًا أمـام كل المسـاجين أن أبقـى واقفًـا وأن تُرمَـي بقايـا الشَّـعر علـى وجهـي للإمعـان فـي الإهانـة، ثـم حوَّلونـي إلـى المهجـع رقـم عشـرة، وحـذَّروا كل المسـاجين مـن أيِّ كلامٍ أو تعامـلٍ معـي وإلا سـيتعرَّضون لعقوبـةٍ شـديدة.

كانـت الغرفـة مُكتــظَّة بالسـجناء، سـواء فـوق الأسِــرَّة أو فيمـا بينهـا أو فـي المَمـرَّات، الجميـع كان واجمًـا، عندمـا دخلـتُ المهجـع، وأبـدوا عدم اهتمـامٍ بقدومـي وتركونـي أجلِـس وحيـدًا فـي الممـر علـى الأرض، بينمـا كانـت السـماء تُثلِـج فـي الخـارج والهـواء البـارد يلفحنـي بقـوة، لـم أُعْـطَ أيـة بطانيـة فــتدَثَّرتُ بمعطفـي ووضعـتُ حذائـي تحـت رأسـي مُتأهِّبًـا للنــوم، وفجــأة ظهــر ميشــيل كيلــو أمامــي، وكان قــد ســمِع بقدومــي ويُقيـم فـي نفـس الجنـاح ولـه فتـرة طويلـة فـي السِّـجن قبلـي، فأحضـر

لـي مخـدَّةً وبطانيـة ولحافًـا، ممـا سـاعدني كثيـرًا علـى مواجهـة الجـوِّ القـارس.

نزلنـا فـي صبـاح اليـوم التالـي إلـى السـاحة فـي فتـرةٍ تُسـمَّى «التنفُّـس» فتحدَّثـتُ مـع ميشـيل عـن انعقـاد المجلـس الوطنـي لإعـلان دمشـق وكيـف اسـتطعنا جمـع مائـةٍ وسـبعة وسـتين شـخصًا. بعيـدًا عـن أنظـار الأمـن كان ميشـيل قـد سَـمِعَ بمـا جـرى ولكنـي ذكـرتُ لـه تفاصيـل الانتخابـات والنتائـج، وأبلغتُـه أنَّ معنويـات الشـباب عاليـةٌ جـدًّا وهـم مسـتعدون أن يدفعـوا الثمـن ويتحمَّلـوا أعبـاء السـجن حيـث رأيتُـهم بالقصـر العدلـي اليـوم.

عندهـا فُوجئـتُ بـرَدَّةِ فعلـه الغريبـة حيـن قـال «إنَّ الإعـلان خُطِـف، وأنـه هـو مَـن كتـبه وأسَّـس لـه، والآن يقفـز كلُّ واحـدٍ ويدَّعـي أنـه هـو الـذي عمـل وهـو الـذي أنجـز» فأجبتُـه بـأن «لا أحـدَ يُنكـر أنَّ ميشـيل كيلـو وجـورج صبـرا وآخريـن سـاهموا بتأسـيس الإعلان، وأنـا عندما نُشِـرَ إعـلان دمشـق كنـت فـي السـجن وأخَـذَ حسـن عبـد العظيـم موافقتـي عليـه مـن هنـاك، ولكـنَّ هـذا لا يعنـي أن يبقـى الإعـلان حِكـرًا علـى مَـن كتبـه، بـل الطبيعـي أن يأتـي أنـاس آخـرون ليتابعـوا هـذا العمـل ويُطـوِّروه، لأنـه مِلـكٌ عـام وإنجـازٌ وطنـيٌّ وليـس قضيـةً شـخصية». وبعـد هـذا الحديـث صـار لـكلٍّ مِنَّـا مسـار مختلـف عـن الآخـر.

ويبـدو أنـه لا يـزال مُقتـنعًا بمَوقفـه ذاك حتـى اليـوم، حيـث عبَّـر عنـه مُؤخَّـرًا فـي رده علـى مقـال جـورج صبـرا «إعـلان دمشـق القصـة الكاملـة»[1] بقولـه: «قدَّمنـا مشـروعًا لتوحيـد المعارضـة مـن أقصـى

(١) ميشـيل كيلـو، «ملاحظـات علـى "القصـة الكاملـة لإعـلان دمشـق" ــ تعقيـبًا علـى جـورج صبـرا»، **العربـي الجديـد**، ١٥ أيار/مايـو ٢٠١٩:
https://www.alaraby.co.uk/opinion/2019/5/19/

اليمين إلى أقصى اليسار، فاستُخدِمَ لتمزيق المعارضة إلى أبد الآبدين، بما في ذلك تلك التي تَنشط منذ عام ١٩٧٩ في إطار "التجمع الوطني الديمقراطي"، لذلك تستطيعون قراءة الفاتحة على روح مشروعنا، واعتباره كأنه لم يكن. وإذا كانت الورقة الجديدة قد استُخدِمَتْ لتفريق مَن كانوا قرابة ثلاثة عقودٍ شركاء في إطارٍ تنظيميٍّ مُوحَّد، فكيف يمكن اعتبارها "ورقة إعلان دمشق"، وأي طيفٍ سياسيٍّ ومدنيٍّ ستُوحَّد، إن كانت قد قَوَّضتِ "التجمُّع"؟».

(٢) العلاقة مع إدارة السِّجن وعناصرها

السجن في سورية صورةٌ مُكثَّفة ومُصغَّرة عن واقع البلد ونظامه، محكومٌ بجماعاتٍ من الشَّبِّيحة كالمافيات التي خارجه، وبالتالي فالسجن في سورية ليس مكانًا للتربية والإصلاح، بل بيئة مُولِّدةً لمزيدٍ من الجرائم، وغالبًا ما يغدو فيه نصف المجرم مجرمًا كاملًا، ونصف الشاذ شاذًّا تمامًا. تُصرَف فيه مبالغ ضخمة لقَهر البشر وتشويه إنسانيتهم، وفيه سوقٌ سوداء تجد فيها كل أنواع المُهرَّبات والممنوعات، بما في ذلك شراء الذِّمم لتَلفيق قضايا وتزوير شهادات، يُشارك فيها ضباطٌ ومحامون وقُضاة.

كان رئيس السجن في تلك الفترة العميد سمير الشيخ وكان يَحمِل لي حقدًا دفينًا لأنه يَعتبر أني تطاولتُ عليه عندما كنت موقوفًا في نفس السجن قبل سنوات، ولم يُخفِ كراهيته في التعامل معي، بدءًا من الحلاقة والنوم والتفتيش والزيارات، ولكنه انتقل بعد عدة أشهر، وجاء العميد محمود الذي تعامل معي بحِيادِيَّةٍ كأيِّ سجينٍ.

في حين تعامل معي نقيبان، أحدهما ضابطُ أمن السجن، بدلالة

موقفهما السياسيِّ مِنِّي، أيْ كعَدُوّ، فكانا يتفنَّنان بإزعاجي؛ فعندما يكون أحدهما مُناوِبًا مثلًا يقوم في منتصف الليل بحملة تفتيشٍ وبعثرةٍ لكلِّ أغراضي بحثًا عن الممنوعات، وطبعًا لم يكن عندي شيء ممنوع بحسب رأيهما إلا كاسة شاي وملعقة معدنية، وتتم مُصادرتهما فأشتري غيرهما وهكذا.

تَحْتَكِرُ عمليات البيع والشراء في السجن عِصابةٌ تَفرض الأسعار حسبما تشاء، مثلًا يبيعون الخضار نخب ثاني أو ثالث بثلاثة أضعاف سعر النخب الأول خارج السجن، ويُمنع وصول أي شكوى للعميد. وكنت دائمًا أحتج على الأسعار وعلى أيِّ سلعةٍ فيها مخالفة فاحشة، وآخذُ منها عينةً وأرسلها إلى العميد محمود، ونتيجةَ مُلاحقتي اليومية صار العميد يضع لكل سلعةٍ سعر بيعها المسموح، وتُعَمَّم قائمة الأسعار في كل صباحٍ على كافة الدكاكين المُتواجدة في الأجنحة وتُذاع من إذاعة السجن.

بدأتِ المافيا المستفيدة من الوضع السابق مُحاربتي بشَتَّى الأشكال، فمنعوني من ممارسة رياضتي الصباحية في الساحة التي نظَّفتُها، ليَلعب فيها التنس اثنان من المساجين المدعومين لوحدهما، وحين قدَّمتُ شكوى لرئيس السجن، زاد حقدهم عليّ، واتهموني زورًا بالتحريض على عصيانٍ داخل السجن وتم التحقيق معي وأحضروا «شهود زور» ادَّعوا أنني حرَّضتُهم على العصيان ورفَعوا عليَّ قضيةً جنائية، لكنَّ رئيس السجن تمكَّن من إيقافهم عند حدهم، فلجئوا إلى تلفيق قضيةٍ أخرى أسوأ من سابقتها، فادَّعوا بأنني أتفوَّه أثناء الزيارة بإساءاتٍ للنظام ولفَّقوا على لساني افتراءات لم أقلها بهدف منع الزيارة عَنِّي.

كانت الزيارة نافذتنا الوحيدة على ما هو إنساني في هذا العالم،

رغـم أنهـا لا تتجاوز ربع سـاعةٍ كل أسـبوع، مـع الضجة والأصـوات العالية. كان بينــي وبيــن زُوَّاري شــبكين يقــف ضابــطٌ مُخصَّــص لمُراقبتــي داخلهمــا، ويَســمع كل مــا نتحــدث بــه، وأحيانًــا يُســجِّل حديثنــا علــى الموبايــل حتــى ولــو كان عائليًّــا خاصًّــا. وكانــوا يتعمَّــدون إهانتـــنا أثنـــاء الزيـــارة، وأذكـــر أنَّ زوجتـــي صُدِمَـــتْ وأجهشـــتْ بالبــكاء عندمــا رأتنــي بعــد أربعــة أو خمســة أيــام مــن اعتــقالي وراء الشــبك وذقنــي طويلــة وشــعري محلــوق ومرتديًــا البدلــة المقلمــة. وتذكر ابنتي جمانة ظروف اللقاء الأول بيننا:

«اسـتطعتُ بعـد جهـدٍ الحصـول علـى موافقـةٍ مـن نقابـة المحاميــن لزيــارة والــدي والتــي لــم يســتطع القصــر العدلـي رفضهـا، وعندمـا زرنـاه أنـا وزوجتـه بليـكان مـراد، لـم يسـمحوا لنـا أن نُدخِـل أيَّ شـيءٍ معنـا، وهـذا خـرق للقانـون لأن الأغـراض أصـلًا غيـر مُخالفـة، وانتظرنـا سـاعاتٍ طويلـة، وفـي السـاعة الواحـدة والنصـف ظهـرًا تـم إخـلاء شــبك الزيــارات، وأتــوا بوالــدي مُحاطًــا بمجموعــةٍ مــن الضبـاط والعناصر تتَّسـم أشـكالهم بالعنف وتـقطر القسـوة وانعـدام الإنسـانية مـن وجوههـم ونظراتهـم، فرَضـوا علينـا ألا نقتـرب مـن الشـبك لا نحـن ولا والـدي، حيـث أصبحـتِ المســافة فيمــا بيننــا مــا يقــرب مــن الخمســة أمتــار، كان علينـا أن نصــرخ عندمـا نريـد الحديـث مـع والـدي بسـبب المســافة والصــدى، وكل الأســئلة كانــت حــول حالتــه وصحتــه، لــم نســتطع أن نتحــدَّث عــن أي أمــرٍ آخــر. كان أحدهـم ضخمًـا وعينـاه مُلوَّنــتان ومليئتـان باللـؤم، يُمطِرنـا بالصيــاح والأوامــر والنواهــي ليَقطــع أيَّ حديــثٍ نبــدأه. كانـوا قـد قَصُّـوا شـعره، وتلـك المـرة الأولـى التـي كنـا نـراه

فيها بهذا الشكل، مُرتدِيًا بدلة السجن المخططة، كان هناك تعمُّد في إظهار الإهانة والإذلال له ولنا، وللأسف استمرَّتْ هذه المعاملة في كل زيارةٍ طوال فترة السجن لمدة سنتين ونصف».

(٣) التَّعاطي مع السجناء والعلاقة مع الأصدقاء

كان وضع سجناء الرأي في المهاجع ذاتها مع السجناء الجنائيين هو أحد أنواع العقوبة لنا، وكان في كل مهجعٍ أو غرفةٍ ٣٢ سريرًا بطابقين، علوي وسفلي، ١٦ سريرًا على الجهة اليمنى، ثمانية أسِرَّةٍ عُلوية وثمانية تحتها وتُسمَّى أسِرَّةً أرضية، ومثلها على جهة اليسار، وبينهما ممرٌّ بعَرض متر ونصف. وفي صدر المهجع كان الحمّام ودورات المياه وما يُشبه المطبخ، مساحة فارغة قرب مصطبةٍ عليها سخانات كهربائية تُستخدم للتسخين والطبخ، فضلًا عن برميلٍ كبير تُجمع فيه القمامة. وطبعًا عند وصولي للمهجع لم يكن هناك أي سريرٍ فارغ، فالأسِرَّة تُوزَّع حسب الأقدمية في السجن، وحتى ما بين الأسِرَّة كان مشغولًا أيضًا. وبعد يومين من النوم في الممر أعطوني مكانًا بين سريرين لأنام فيه يُسمونه «معذبة» ووضعوا أمامي شخصًا مُخبرًا يعدُّ عليَّ أنفاسي. حاولتُ صباحًا حلاقة ذقني بماكينةٍ أعطاني إياها ميشيل، لكن لم تمضِ إلا بضعة دقائق حتى حضرتْ دوريةٌ تسألني عنها وتُصادرها. كان أغلب السجناء في الغرفة يُدخِّنون بشراهة، وأنا غير مُدخِّن وأتحسَّس منه ويُصيبني بالاختناق، فطلبتُ نقلي إلى غرفةٍ لغير المُدخِّنين فنقلوني إلى الجناح الرابع وهو أنظف من سابقه نِسبِيًّا. كان جو الغرفة سيئًا، وعلينا أن نتخيَّل ما يعنيه حشر أربعين أو خمسين مُجرِمًا مُتَّهمين بجرائم

«السلب بالعنف» في غرفةٍ واحدة، تتفاوت أمزجتهم ويتنازعون على السيطرة والزعامة، ويترأسهم أكثرهم انحطاطًا وسوقِيَّة، مَحمِيًّا ومدعومًا من الضباط الفاسدين!

والمُريح أنهم قد حذَّروهم مُسبقًا من التعامل معي. وبعد عدة أسابيع من النوم على الأرض في «معذبة»، بين سريرين كما في الجناح السابق، تمَّ إعطائي سريرًا أرضيًّا، حيث استفدتُّ من المساحة الخالية تحته كي أضع كل شيءٍ أملكه في السجن تقريبًا وهو كأسٌ لشرب الشاي ومعلقة وصحن وبعض أدوات التنظيف... إلخ.

كان يوجد في الغرفة ثلاث دورات مياه، ودرَجتِ العادة أن يُستَخدم أكبرها كحمَّام، وقد نُظِّم الدخول إليه بالدور، لكنْ فورَ وصولي إلى المهجع بادرتُ إلى تنظيف جميع المرافق الصحية، فتوافقوا جميعهم على أن أكون أول مَن يستحمّ، واستمر الوضع على هذا المنوال.

وعندما سُمِحَ لي بالزيارات حاولتُ قبل كل شيء تحسينَ وضع المهجع، فطلبتُ أدوات تنظيف ومُنظِّفات، وبعض الحنفيات لاستبدال المعطوب منها بجديدة على حسابي. وكنت أُسارع لتوزيع ما يأتيني من حلويات وفواكه على مَن في المهجع بالتساوي وأُشارِك المساجين في مصائبهم وأفراحهم. وقد درجتِ العادة في حال وصول خبرٍ لسجينٍ عن وفاة أحد أقربائه أن يُقام له عزاءٌ لمدة ثلاثة أيام مع وليمةٍ في اليوم الأخير، لذلك طلبتُ إحضار طنجرة طبخٍ كبيرة وملحقاتها تكفي لإطعام خمسين شخصًا، حيث صار الجناح كله يستعملها في مثل هذه المناسبات، وتتم إعارتها للأجنحة الأخرى. لم أترفَّع عن أيِّ عملٍ يَخدم الجميع، كنت أعتبر

أننـي أخـدم نفســي، نظَّــفتُ درج الباحـة المهجـور بمُفـردي وجعلتُـه مكانًـا للرياضـة والجلـوس وشـرب الشـاي، ونظَّفـتُ مـرةً السـياقات أو المجاريـر غيـر السَّـالكة لوحـدي مـن دون مسـاعدة أحـد. ولقـاء مـا أقـوم بـه بـدأتُ أشـعر أنَّ جـوَّ الغرفـة المشـحون بالصـراع بـدأ بالتفـكُّك، وبـدأتُ تغييـر علاقـات السـجناء ببعضهـم وأيضًـا علاقتــهم معـي.

كان تفريـغ القمامـة فـي السـجن كارثيًّـا، حيـث تُنــقل براميـل القمامـة مـن المطبـخ إلـى ممـر الغرفـة ثـم إلـى ممـر الجنـاح وهــي تفيـض بالعفونــة والروائــح الكريهــة وترشــح بالميــاه الســوداء الآســنة، وكان نقلهـا فـي الرابعـة صباحًـا يتطلَّـب إيقـاظ كل السـجناء النائميـن فـي الممـرات الذيـن لا يعـودون إلـى النـوم قبـل تنظيـف المـكان تنظيفًـا كامـلًا. وهنـا بـادرتُ لأخـذ موافقـةِ رئيـس السـجن علـى وضـع القمامـة فـي كيـس نايلـون بعـد تنظيـف قعـر البرميـل جيـدًا، ليُصـار إلـى إخـراج الكيــس الملــيء بالقمامــة فقــط، وبهــذه الطريقــة يمكــن أن نُخفِّــف الروائـح ومعانـاة السـجناء النائميـن فـي الممـرات. وعندمـا نجحـتْ هذه الطريقـة وافـق العميـد علـى تعميـم أكيـاس القمامـة علـى السـجن كلـه. كمـا قدمـتُ لـه اقتراحًـا ثانيًـا بضـرورة وجـود مخـرجٍ للنَّــجاة فـي كل جنــاح فــي حــال نشــوب حريــق، ولا أعــرف حتــى الآن إن نُفِّــذَ هــذا الاقتــراح أم لا؟...

والمُفارقـة أنَّ أحـدًا مـن السـجناء لـم يُزعجنـي، رغـم أنـه كان مطلوبًـا منهـم ذلـك، بـل نشـأتْ بينـي وبيـن بعضهـم مـا يُشـبه المـودَّة، وكنـت أحافـظ علـى حـدودي معهـم وأشـغل نفســي بقـراءة أيِّ شـيءٍ يقـع تحـت يـدي لأنـي لـم أكـن أملـك حـقَّ الوصـول إلـى مكتبـة السـجن ولـم يُسـمَح لـي بإدخـال الكتـب مـن الخـارج، وكنـت دومًـا مُعتــمِدًا علـى نفسـي وأتجنَّـب طلـب المسـاعدة مـن أيٍّ كان، وذلـك علـى الرغـم مـن

وضـوح تعاطـف البعـض معـي. وعندمـا أُجرِيَـتْ لـي وأنـا فـي السـجن، عمليـة البروسـتاتة، وبَقِـيَ النــزيف بعدهـا حوالـي أربعة أيـام، وكان لديَّ صعوبـة فـي تغييـر ملابســي الداخليـة، ورغـم ذلـك، تقصَّـدتُّ ألا أطلـب مسـاعدةَ أحـد، بـل كنـت أسـتيقظ باكـرًا جـدًّا لغَسـل الثيـاب المتسـخة ونشــرها فـي الغرفـة، وغالبًـا أرتديهـا وهـي لا تـزال رطبـة نسـبِيًّا.

كان معـي وفـي نفـس الجنـاح وفـي إحـدى الغُـرف القريبـة مني شـريكي فـي الإعـلان محمـد حجـي درويـش، الـذي تمـادوا كثيـرًا فـي إزعاجـه. كنـا نقضــي الاسـتراحة سـويًّا وأصبحـتْ علاقــتنا متينـةً، وكنـا نتقاسـم كل مـا يأتينـا مـن خـارج السـجن. وبعـد فتـرة، اعتُــقِلَ أيضًـا «أبـو ديار»مـن قيــادات حــزب الآزادي لأنــه كان ينقــل مطبوعــاتٍ للحــزب بمناســبة انتفاضـة القامشـلي، فكنـا نمشــي معًـا بالباحـة وحوَّلنـا المسـيرَ اليومـيَّ إلـى درسٍ فـي اللغـة الإنكليزيـة.

أمـا بخصـوص باقـي أعضـاء المجلـس الوطنـي المعتقليـن فكانـوا يُعانـون مـن نفـس الظـروف القاسـية، ولـم نسـتطع أن نلتــقي سـويًّا إلا أربـع أو خمـس مـراتٍ فـي فتـرات النــزول إلـى المحكمـة وبظـروفٍ قاسـية ومُهينـة. لكـنَّ علاقتـي مـع ميشـيل كيلـو كانـت محـدودةً حيـن كُنـا فـي الأسـابيع الأولـى بالجنـاح نفسـه، ثـم صـارت شِـبهَ معدومـة بعد انتــقالي إلـى جنـاحٍ ثـانٍ، ولا أعـرف الظـروف التـي عاناهـا ميشـيل قبـل اعتــقالنا ولكـن عندمـا جئـتُ أنـا كان وضعُـه مريحًـا نسـبِيًّا ويُقيـم فـي المهجـع رقـم عشـرة فـي غرفـةٍ لــغَير المُدخِّــنين، ويَحظـى بزيـارةٍ دوريـة مـن ابنتـه فـي مكتـب أحـد الضبـاط.

(٤) الوضــع الصِّــحي

خـلال فتـرة وجـودي فـي السـجن الأول، أُجرِيَـتْ لـي بتاريـخ ٢ تمـوز/

يوليو ٢٠٠٥ عمليةُ قَسْطرة قلبية بيَّنتْ وجودَ انسدادٍ كليٍّ للشريان الأمامي النازل، مما يَستدعي إجراء عملية قلب مفتوح لاستبداله، فتقدَّمتُ بعد إطلاق سراحي بطلبِ السماح لي بالسفر لأنه حَقِّي أولًا ولمُتابعة علاجي ثانيًا، حيث كنت ممنوعًا من السفر منذ العام ٢٠٠٠، فقوبل طلبي بالرفض. وبعد اكتشاف إصابتي بسرطان البروستاتة وتدهور وضعي الصحي تقدَّمتُ بطلبٍ ثانٍ للسماح لي بالسفر من أجل العلاج خارج البلاد لعدم توفُّره في سورية، ولم ألق من السلطات الأمنية غير المُماطلة والتسويف، فوجَّهتُ بيانًا إلى الرأي العام[٢] بتاريخ ١٣ آب/أغسطس ٢٠٠٧ مفاده «لإصابتي بحالةٍ مُتقدِّمة من سرطان البروستاتة، ولعدم توفر العلاج الناجع لهذه الحالة في سورية وتوفُّره مع احتمالاتٍ عالية في الشفاء تصل إلى ٩٠٪ في بعض البلدان المتقدمة، ولاستمرار منعي من السفر، أضع قضِيَّتي الصحية أمام كل المهتمين بقضايا حقوق الإنسان في سورية والعالم، على أمل المساعدة بحُصولي على حَقِّي الطبيعي والمشروع بتلقي العلاج المناسب في الخارج».

وقد تضامن معي عشراتُ المنظمات الحقوقية ومئات الصحفيِّين والناشطين المدنيِّين والحقوقيِّين، سوريُّون وعرب وأجانب وأحزابٌ سياسية عربية وكردية، وأصدرتِ الأمانة العامة للإعلان بيانًا تضامنِيًّا ولكن ذهبتْ كل هذه الأصوات أدراج الرياح دون أية استجابة من السلطة.

وأستعيد هنا شهادة ابنتي جمانة على تلك الفترة:

---

(٢) «أنقذوا حياة رياض سيف»، ملف تضامني، السبت ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٧.
https://bit.ly/32UxYxD

«اكتشفنا إصابةَ والدي بسرطان البروستاتة في بداية ٢٠٠٧ وتواصلنا مع أطباء ومراكز صحية في ألمانيا حيث كان العلاج بسيطًا والدواء متوفرًا، ولم يكن موجودًا في سورية، ولكنَّ الوالد ممنوعٌ من السفر. قدَّمنا طلبًا بغية أن يُرفع عنه المنع ويستطيع السفر ولم نُفلِح، ورفعنا دعوى قضائية[٣] وحاولنا الوصول لوسطاء دوليِّين وألمان، ولكن بدل السماح له بالسفر أقدموا على اعتقاله بعد انعقاد المجلس الوطني لإعلان دمشق مباشرةً، ولم يبقَ أمامه من حَلٍّ سوى العلاج بالهرمون الذي كان سيئًا بحَدِّ ذاته، وله آثارٌ جانبية أسوأ».

في منتصف فترة الاعتقال تقريبًا، أخبرنا الطبيب في مشفى دار

---

(٣) «عقدتْ محكمة القضاء الإداري بدمشق، الدائرة الأولى، يوم الثلاثاء الموافق ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧ جلسةً برئاسة المستشار محمود بيطار وعضوية المستشارَين سمير حزوري وغسان السالك، للنظر في القضية التي أقامها عضو مجلس الشعب السابق الأستاذ رياض سيف على كلٍّ من السيد وزير الدفاع إضافةً لمَنصبه والسيد وزير الداخلية إضافةً لمَنصبه والسيد مدير إدارة المخابرات العامة إضافةً لوَظيفته، للمُطالبة بإلغاء بلاغات منع السفر الصادر بحَقِّه والسماح له بمُغادرة البلاد لتلقِّي العلاج. وكانت هذه الجلسة مُخصَّصةً للتدقيق فيما يتعلق بالطلب المستعجل المتضمِّن وقف تنفيذ مفاعيل بلاغات منع السفر الثلاث الصادرة بحق الأستاذ سيف والسماح له بالسفر لتلقي العلاج ريثما يتم الفصل بأصل الحَقِّ وإصدار القرار بإلغاء تلك البلاغات نهائيًّا.

وقد أصدرتْ محكمة القضاء الإداري في هذه الجلسة قرارها بردِّ طلب الأستاذ رياض سيف وقفَ تنفيذ بلاغات منع السفر الصادرة بحقه.

ولم يتمكَّن الوكيل القانوني للأستاذ رياض سيف من الاطِّلاع على حيثيات القرار ومُبرراته حتى تاريخه، علمًا بأنَّ القرار قابلٌ للاستئناف أمام المحكمة الإدارية العليا خلال مدة ستين يومًا».

«العدالة السورية: لا يحِقُّ للنائب رياض سيف السفر للعلاج»، **شفاف الشرق الأوسط**، الجمعة ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧.

https://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id_article=2574&lang=ar

الشـفاء، خليـل أومـري، الـذي كان مُشــرفًا علـى حالـة والـدي الصحيـة قبـل اعتقالـه، بـأنَّ دار الشـفاء ستتــزوَّد بجهـاز "الهايفـو" الـذي يعمـل علـى مبـدأ حـرق الخلايـا المُســرطَنة بالأشـعة، ومـن الممكـن أن يكـون مناسـبًا لمعالجـة حالـة الوالـد. رافـق وصـول الجهـازِ طاقـمٌ طبـيٌّ ألمانـي للمكـوث عشــرة أيـام بغيـة تدريـب فريـق الطبيـب أومـري علـى كيفيـة اسـتخدام الجهـاز والعـلاج بـه، واقتــرح علينـا التحـرك لإجـراء العمليـة للوالـد فـي فتـرة مـا قبل وصـول الجهـاز، قدَّمنـا طلبًـا إلـى وزارة الداخلية وإدارة السـجن وحاولنـا الحصـول علـى الموافقـة للعمليـة، ولكـن مـن الواضــح أنَّ هنــاك قــرارًا مــن الســلطات الأعلــى بــأن لا يســمحوا لــه بالخـروج إلـى أيِّ مـكانٍ أو مقابلـةٍ أيًّـا كان، وحتـى أبـدوا تخوفهـم مـن قـدوم الأطبـاء الألمـان، واعتبــروهم قادميـن خِصِّيصًـا لــمُقابلة الوالـد، وحتـى أنهـم قالـوا لـي فـي الداخليـة بصــراحة: أنهـم لـن يسـمحوا لـه بالخـروج لإجـراء العمليـة طالمـا أنَّ الأطبـاء الألمـان لـم يُغـادروا سـورية!

بعــد ســفرهم بأســبوع، جــاءت الموافقــة علــى إجــراء العمليــة فــي دار الشــفاء، ولكــنْ دون تحديــد أيِّ موعــد، وبعــد مــرور أيــامٍ ونحــن بالانتظـار، اتصـل والـدي فجـأةً مـن السـجن وأخبرنـا بأنهـم أخطـروه بـأن يتجهَّـز للذهـاب للعمليـة. انطلقنـا فـورًا وقمنـا بالحجـوزات المطلوبـة لأن النفقـات علـى حسـابنا بالطبـع. كنـا هنـاك فـي السـاعة التاسـعة والنصــف صباحًــا، وانتظرنــا ســاعاتٍ وســاعات ولــم يــأتِ أحــد، قلقنــا مــن أنهــم قــد يكونــوا قــد غيَّــروا رأيهــم، وإدارة المستشــفى مســتمرةٌ بالأسـئلة إن كانـوا قادميـن أم لا؟ لأن الأطبـاء ينتظـرون، ولابـد مـن القيـام بفحوصــاتٍ أوليــةٍ قبــل إجــراء العمليــة.

وفــي هــذه الأثنــاء لاحظنــا، علــى غيــر المألــوف، وجــودَ ســيارةٍ ســوداء («ستيــشن») نوافذهـا مُغطَّـاة بالأسـود («الفيــميه») وتقـف تقريبًـا عند

بـاب المستشـفى وبقِيَـتْ لفتـرةٍ طويلـة، ولـم يخطـر ببالنـا، طيلـة هـذه الفتــرة، أن يكـون الوالـد فيهـا ويرانـا بينمـا نحـن قربـه ومحرومـون مـن رؤيتـه أو الاتصـال بـه!

وتفاجأنـا بعـد سـاعات، بـأنَّ السـيارة السـوداء تحرَّكـتْ من مكانهـا ودخلتْ إلـى كـراج المستشـفى، وهنـاك أنزلـوه منهـا بطريقـةٍ همجِيَّـة، كمـا ذكَـر لـي، وكنـا مـن جهتنـا بعـد طـول انتظـار، قـد فقدنـا الأمـل بوصولـه. حيـن أخبــرَنا المسـئولون فـي المشـفى فجـأةً بـأنَّ والـدي قـد وصـل وأنـه فـي قبـو المشـفى، نزلنـا لــرؤيته، ولكـنَّ رجـال الأمـن المرافقيـن لـه سـارعوا إلـى دَفعِنـا والصــراخ علينـا ومنعونـا مـن التواصـل والحديـث معـه بـأيِّ كلمـةٍ أو إشـارة، بـل لـم يُسـمح لنـا إثـر ذلـك، بــرؤيته إلا بعـد ثلاثـة أيـامٍ مـن إجـراء العمليـة، علـى الرغـم مـن تواجدنـا الدائـم فـي غرفـة الانتظـار بالمشـفى، والتـي تبعـد بضعـة أمتـار عـن غرفــته المُحاصـرة.

أمـا الموقـف الأصعـب فـكان السـاعة الثامنـة مـن صبـاح يـوم إجـراء العمليـة، عندمـا جـاء عنصــرُ أمـنٍ إلـى غرفـة الانتظـار وأعطانـي سـاعةَ أبـي وخاتمَـه مـا أثـار خوفـي فــركضتُ إلـى غرفتـه للاطمئنـان عليـه، ولكــنَّ أحـد الضبـاط دفعنـي ورمانـي علـى الجـدار لأرتطـم بـه، فـي الوقـت الـذي كنـت فيـه ألمـح أبـي علـى الســرير النقَّـال، وأسـمعه يقـول: «أرفـض أن أُجـرِيَ العمليـة فـي ظـل هـذه الظـروف اللَّاإنسـانية» فبـادرتُ للتواصـل مـع الطبيـب ولكننـي لـم أستــطع، وقـد قـال لـي فيمـا بعـد أنَّ عناصـر الحراسـة دخلـوا جميعًـا معـه، ولكنـه رفـض وجودهـم وقـال لهـم: «إننـي كطبيـبٍ جـرَّاح أرفـض القيـام بـأي شـيء إذا لـم تُخـلَ غرفـة العمليـات وينتظـرون خارجهـا، أو سـأترك كل شـيء وتتحملـون أنتـم مسـؤولية مـا سـيحصل للمريـض» وبهـذا الموقـف فـرَض عليهـم فـي النهايـة الخـروج مـن غرفـة العمليـات.

أثنـاء وجـود أبـي فـي غرفـة العمليـات توجَّهـتُ إلـى وزارة الداخليـة ودموعـي تأبـى التوقـف وطلبـتُ مقابلـة الوزيـر، طبعًـا لـم يُقابلنـي، ولكننـي قدَّمـتُ اسـتدعاءً خطـيًّا للسـماح لـي برؤيـة والـدي والعنايـة به، وقلـت لهـم بـأنَّ مَـن يُصـدر هكـذا أوامـر بظـروفِ المـرض هـو شـخصٌ مُجـرَّدٌ مـن الإنسـانية بالتأكيـد، أو أنـه ليـس لديـه أم وأب وأولاد ولا يعـرف هـذه العواطـف! لـم يتغيَّـر الوضـع ولـم يُسـمَح لنـا بزيارتـه إلا لمـدة نصـف سـاعة مسـاءَ اليـوم الثالـث وفـي السـاعة التاسـعة ليـلًا، وبوجـود ضابـط أمـنٍ للمُراقبـة. ومـع هـذا لـم تتوقَّـف الإزعاجـات لـه مـن بعـض الضبـاط الحاقديـن الذيـن كانـوا يتعمَّـدون حِرمانـه مـن النـوم ليـلًا بالرغـم مـن مرضـه، كمـا لـم ينتـه هـذا الوضـع المـزري بخروجـه مـن المشـفى، إذ كانـت ظـروف السـجن فـي غايـة السـوء بالنسـبة لمُضاعفـات العمليـة مُضافًـا إليهـا العـلاج الهرمونـي الـذي أثَّـر سـلبًا علـى صحتـه بسـبب تناولـه لسـنوات، لأنـه كان العـلاج الوحيـد المُتـاح فـي سـوريا والـذي اضطـرَّ للاسـتمرار فيـه حتـى بعـد خروجـه مـن السـجن بسـبب مَنعـه مـن السـفر».

الفصل الثامن

استــقالـتي من رئاسة الأمانة العامَّة لإعــلان دمشق

بيضاء في الأصل

قُبَيلَ إطلاق سراحي، أواخر تموز/يوليو ٢٠١١، وبعد أن أنهيتُ مدة الحُكم القضائي، وقضيتُ ثلاثين شهرًا كاملة في سجن دمشق المركزي، تمَّ نقلي إلى فرع أمن الدولة، الجهة التي اعتقلتني، وأمضيتُ هناك ليلتي الأخيرة في زنزانةٍ قذرةٍ مُمتلئة بالحشرات خاصَّةً الصراصير، ولا يَدخلها النور، لأُستَدعَى في صباح اليوم التالي للمُثول، مُطمش العينين ومُكبل اليدين، أمام مجموعةٍ ممَّن عرَّفوا عن أنفسهم بأنهم قادة الفروع الأمنية المسؤولة عن أمن سورية والدولة السورية، وأخبروني بأنهم كلَّفوا العميد توفيق يونس ليتحدَّث باسمهم، الذي ختَم كلامه بالتهديد والوعيد، قائلًا: «يا رياض سيف اسمَعني منيح، أنت غلطت بحقنا ودفعت ثمن غلطك سنتين ونص بالسجن، من طرفنا الحساب مصفر، ورح نفتح إضبارة جديدة، التهم التي وجهناها لك هي تهم بسيطة، كم سنة سجن وتنقضي، أما من الآن فصاعدًا فإن غلطت بحقنا، فإن تهمتك ستكون التخابر مع الموساد الإسرائيلي، وأنت تعرف ما هي عقوبتها. وأعتبر أننا قد بلغناك الرسالة باسمي وباسم كل زملائي».

خرجتُ من السجن في نفس اليوم، وكنت قد حسمتُ قراري قبل أسابيع بأنْ أتوقَّف عن النشاط السياسي، لأن صِحتي لم تعد تُساعدني وأعصابي لم تعد تَقوى على احتمال الشدائد

بعـد قضـاء سـنتين ونصـف فـي ظـروفٍ قاسـية جـدًّا وغيـر إنسـانية. لقـد تعـاوَن المـرض والمُعانـاة للنَّيـل مِنِّـي، وتملَّكنـي شـعورٌ قـويٌّ بأننـي غيـر قـادرٍ علـى العطـاء وقيـادة المجلـس الوطنـي فـي ظـروفٍ غايـة فـي الصعوبـة، وكنـت شـبه مُحطَّـمٍ جسـديًّا ونفسـيًّا فأعلنـتُ استـقالتي مـن الأمانـة العامـة للمجلـس الوطنـي لإعـلان دمشـق فـي يـوم خروجـي مـن السـجن لكـي يتحـرَّر الإعـلان مـن ضغـطٍ أخلاقـيٍّ وسياسـي، ويتمكَّـن مـن انتخـاب رئيـسٍ جديـدٍ للأمانـة العامـة تكـون ظروفـه أفضـل مـن ظروفـي.

وبهـذا أسـدل السـتار علـى مرحلـةٍ صعبـة وهامَّـة وغنـية مـن مسـارِي السياسـي.. بمـا لهـا ومـا عليهـا.

معظمُ الرَّوابطِ المُحالِ إلَيْها في متن هذا الكِتاب هِيَ رَوابِطُ
مُخْتَصَرَة تُحيلُ إلى مقالاتٍ ونصوصٍ سَبَقَ نَشْرُها وَرَقِيًّا وإلِكْترونِيًّا
وكانَت اسْتِعادَتُها وإتاحَتُها على موقِـع
www.riadseif.net
حَقَّت الإشارة إلى ذلك بيانًا لما تُحيلِ إلَيهِ الرَّوابِطُ، وعلى سبيل
الدَّعْوَةِ إلى زيارة الموقع المَذْكور وتفقُّد مُحْتوياتِه.

بيضاء في الأصل

قراءة ذاتـيَّة في سيرةٍ موضوعيَّة
بقلم جاد الكريم الجـباعي
٥

مقدمة المحررين
١٧

الإهداء
١٩

الباب الأول
من الصِّناعة إلى التَّشْريع

الفصل الأول
من النَّشاط الخاصِّ إلى العمل في الشَّأن العامّ
٢٣

الفصل الثاني
انتخابات الدَّوْر التَّشريعيِّ السَّادس
٢٩

الفصل الثالث
بين التَّرغيب والتَّرهيب
(١) فضح المستفيدين، (٢) اتِّهامي بجَمع الأموال، (٣) اختِفاءُ ابني إياد
٣٧

الفصل الرابع
انتخابات الدَّوْر التَّشريعيِّ السَّابع
٥١

الفصل الخامس
انطلاقة جديدة وقضايا ساخنة تحت الأضواء
(١) التفرغ للشأن العام، (٢) وقفةٌ مع التصدير والإدخال المؤقَّت وتقزيم القطاع الخاص الصناعي،
(٣) دعوةُ وزير الاقتصاد لِلقاء وفدٍ من أحد البنوك الألمانية، (٤) إثارةُ مسألة الاحتكار السياسي،
(٥) مواجهة الفساد، (٦) صفقة عقود الخلوي
٦٣

الفصل السادس
ربيع دمشق
(١) مخاض الحراك المدني، (٢) جمعية أصدقاء المجتمع المدني،
(٣) منتدى الحوار الوطني، (٤) حركة السِّلم الاجتماعي، (٥) توقُّف نشاط منتدى الحوار الوطني،
(٦) استئنافُ عمل «منتدى الحوار الوطني»... وإغلاقه النهائي
٨٩

الفصل السابع
تجربة السِّجن الأولى
(١) الاعتقال والمحاكمة، (٢) الحياة اليومية في السِّجن، (٣) جائزة فايمر لِحقوق الإنسان،
(٤) زيارة وزير الداخلية، (٥) توقيعي على وثيقة إعلان دمشق، (٦) إطلاق سراحي
١٢٥

الباب الثَّاني
الخروجُ الأوَّل من السِّجن
وتجربتي في إعلان دمشق

الفصل الأول

حياةٌ جديدة وحراكٌ جديد

(١) الخروج من السجن، (٢) ضغوط الأجهزة الأمنية، (٣) تفعيل مشاركتي في إعلان دمشق

١٣٥

الفصل الثاني

أحداث ومواقف هامة

(١) إعلان بيروت ـ دمشق/دمشق ـ بيروت، (٢) حدَثان مُتزامِنان: أزمةُ الرسوم الكاريكاتورية للرسول محمد والموقف من جبهة الخلاص، (٣) انتخابات مجلس الشعب والاستفتاء الرئاسي وانتخابات الإدارة المحلية، (٤) العلاقة مع الخارج

١٧٣

الفصل الثالث

الدعوة والعمل لعقد المجلس الوطني

(١) التحضير لانعقاد المجلس الوطني لإعلان دمشق، (٢) انعقاد «المجلس التأسيسي» لإعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي، (٣) انعِقاد المجلس الوطنيِّ «المُصغَّر الثاني»، (٤) ماليَّةُ إعلان دمشق، (٥) تمويل قناة بردى، (٦) انتهاء التحضيرات وانعقاد «المجلس الوطني المُوسَّع»، (٧) توتُّرٌ انتخابيٌّ مُبكر، (٨) توتُّرٌ سياسيٌّ في المجلس، (٩) انتخابات الأمانة العامَّة

١٩٩

الفصل الرابع

قرارات تجميد النشاط
بعد المؤتمر وموقف بعض قوى الإعلان

(١) المجلس بين الانسحابات والمواقف، (٢) موقف حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، (٣) موقف حزب العمل الشيوعي، (٤) موقف حزب الشعب الديمقراطي، (٥) موقف حزب العُمال الثوري العربي، (٦) موقف التيَّار الليبرالي عضو الأمانة العامة سمير نشار، (٧) موقف الأمانة العامة لـ«إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي»

٢٥١

الفصل الخامس
الاعتقالات بعد انعقاد المجلس الوطني لإعلان دمشق
(١) مُواجهة الاعتقال، (٢) بعضُ ردود الأفعال على الاعتقالات، (٣) إيذاءٌ معنويٌّ ومادِّيٌّ مُمنهَج،
(٤) موقف الإعلان بعد اعتقال بعض أعضاء الأمانة العامة والمجلس الوطني
٢٦٧

الفصل السادس
المُحاكمات والأحكام
٢٨٧

الفصل السابع
السَّجن الثاني
(١) الأيَّام الأولى، (٢) العلاقة مع إدارة السِّجن وعناصرها،
(٣) التَّعاطي مع السجناء والعلاقة مع الأصدقاء، (٤) الوضع الصِّحي

٢٩٣
الفصل الثامن
استقالتي من رئاسة الأمانة العامَّة لإعلان دمشق
٣٠٩

بيضاء في الأصل

لعـلَّ المُشْـتَركَ بيـن التجـارب الصناعيَّـة والتشـريعيَّة والسياسـيَّة في سـيرة ريـاض سـيف، هـو مفهـوم المنفعـة الليبـرالي. ويتجـلَّى هـذا المفهـومُ بوضـوح، وفقًـا لمعاييـرَ عامَّـةٍ ولنظـامٍ مقبـولٍ مـن الجميـع، في ضـوء مبـدأ مدهـش مُفـاده: «كلَّمـا زادت أجـورُ العامـلات والعمـال تـزدادُ أربـاح المؤسَّسـة».

فعـلى هـذا المفهـوم تتأسَّـسُ المنفعـة العامَّـة الـتي تتحقَّـق مـن خـلال الصناعـة والتشـريع والسياسـة، بـل إنَّ المنفعـةَ، في هـذه السِّـياقات، لا تكـون إلّا منفعـة عامـة، وهـذا مـا يجعـل مـن صناعِيّ، كريـاض سـيف، معارضًـا موضوعيًّا لنظـام الامتيـازات والمحسـوبيَّة والفسـاد معارضـةً جذريَّـة لا تـردُّدَ فيهـا.

إنَّ هـذا النمـوذج مـن المعارضـة الجذريَّـة الـذي تُمَثِّـلُ عليـه سـيرةُ ريـاض سـيف يتفـوَّق حُكْمًـا عـلى أيّ معارضـة أيديولوجيَّـة. وبهـذا المعـنى لا مبالغـة في القـول بـأن أبـرزَ الـدروس المُسـتفادة مـن سـيرة الرجـل ــ وأبـرزَ الرسـائل الـتي يحملهـا هـذا الكتـاب ــ هـو، ببسـاطة، أنَّ طَلَـبَ المنفعـة العامَّـة لا يُمْكِـنُ أنْ ينفصـلَ عـن معارضـة نظـام الامتيـازات والمحسـوبيَّة والفسـاد.

جاد الكريم الجباعي